

♦♦ ۱۰ قصه

قصه فرشته

محمد باقی



قصص الفرسية

♦♦ قصة

قصص فرسية

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الجيزة

كان أبى

تقديم هذه القصص قد ورطنى فى تجربة جديدة .

فقد كان على أن أقدم أبى .. لقراء هذا الجيل .. فى مجموعة « المائة قصة » التى قام بنقلها من الأدب العالمى إلى قراء العربية منذ ثلاثين عاما وتوليت نشرها وتقديمها إلى القراء فى هذه الأيام . ولست أدرى ما الذى جعلنى أورط نفسى فى هذا التقديم ؟

لم يكن هذا أول كتاب أنشره له بعد وفاته منذ خمسة وعشرين عاما .. فقد سبق أن أعدت نشر كتابيه « الصور » و « السمر » ومجموعة من القصص الروسية .. وتولى تقديمه فيها زملاؤه ومعاصروه من كتابنا الكبار كالمازنى والعقاد . لماذا أحاول أنا أن أحمل عبء التقديم وأنا أدرى بمشقة وتعبه . ؟

لقد قال المازنى - رحمة الله عليه - وهو يقدمه فى كتاب الصور :

« كانت فيه فكاهة حلوة تهون العسير وتذلل الصعب وتجلبو صدأ العيش ، وهى التى يسرت له أن يكون الرجل العارف بالحياة الذى لا يعدله أحد فى الظرف وحسن المراضاة وطيب المعاشرة ، فقد كان ضحوكا أبدا إلا أن يكون فى قراءة أو كتابة ، وكان يؤثر من الأصدقاء الظريف القادر على النكتة ، ويفر من فيه صلف أو عجرفة ، وما رأيت قط يفرق بين غنى أو فقير أو كبير أو صغير .

وقد مضت على وفاة الصديق الكريم المرحوم السباعى سنوات طويلات المدد ، وخفت صوته القوى ، وارتضى قلمه المقتدر زمانا لم ينسه فيه . ولكن الجيل الجديد لا يكاد يعرفه لأن الأسماع لا تفرغ بذكره ، وإن كان ممن يجب أن يكون كل جيل منهم على ذكر ، فما تنجب الدنيا كل يوم مثله .

وإذا كان قد تقدم به زمانه فإن هذا الزمان الذى أخرجه قبل أوانه قد أبطأ عليه بالإنتصاف ومطله حقه ، ولكن الزمان يسلب الإنسان كل شيء إلا الفضل وإن مظل وسوف .

وليس أدب المرحوم السباعى مما يدفن . لأنه إذا اعتبرنا اللغة فهو من أرقى ما فى اللغة العربية وأبلغه ، وإذا اعتبرنا المعانى فهو زاخر بها ، وإذا نظرنا ما ترجم ألفيناه من خير ما فى أدب الغرب ، وهو أول من عنى بأن يترجم عن الإنجليزية طائفة من أسمى ما فى أدبها وليس السبق بفضل فى ذاته ، وإنما الفضل فى حسن الاختيار وحسن الأداء ، حتى لكأن ما ترجم كان قد كتب بالعربية فى الأصل . فهو على رأس المترجمين الحديثين ، وفى ركب المتقدمين من أدباء النهضة الجديدة »

قال العقاد وهو يقدمه فى كتاب قصص روسية :

« ليست هذه المقدمة بالتي تنسج للوفاء بحق السباعى فى الأدب العربى الحديث على وجه الإسهاب والتفصيل ، وإنما يتسع لذلك كتاب شامل لعصره ، ومكانه هو من عصره ، وهو فى أجل مكان .

ولكننا نجتزئ هنا بالإجمال الذى يدل قليلة على الكثير ، فنضعه فى مكانه حيث نقول : إنه كان طليعة المدرسة الأدبية الحديثة فى نهضة الأدب لمصرى التى تحدت منذ أوائل القرن العشرين .

وقد تلاقى السباعى وأكبر الأدباء الروسين فى صحائف حوافل بغرائب الشخص وطرائف التحليل والتمثيل ، فلو كتبها مؤلفوها بالعربية لما بلغوا بها من الإجاداة فوق ما بلغ المترجم القدير ، لأنه نفذ من كلامهم إلى الروح وحفظ له بلاغة التعبير »

أجسر أنا على تقديمه بهذا القول .. أو بما يشابهه .. دون أن يؤخذ قولى .. على سبيل « كان أبى » .. ودون أن أتهم بالتفاخر به ؟

لماذا لم أوفر على نفسى هذه المشقة فأرجو من الدكتور طه حسين .. وهو الكريم المجامل .. أن يقدمه .. بعد أن قال لى عنه : « لقد كان أبوك أول من أخرجنى عن أزهرى »

لماذا لم أسأل صديقه القديم سلامه موسى .. أن يقدمه . وهو الذى قال
لى فى أول لقاء لنا فى مكتبة الخانجي : (أهذا زمن ؟ .. الذى تروج فيه
كتيك أكثر من كتب أليك) .. فلما سأله مازحا : « ألا يحتمل أن أكون
أفضل من أبى ؟ » فنفى بشدة قائلا : « بالطبع لا » فلما سأله : « أقرأت
لى ؟ » أجاب بالنفى بنفس الشدة .. ولم أشك فى أنه ما دام قد استطاع
المفاضلة بين طرفين دون أن يعرف أحدهما .. فلا بد أنه واثق من الآخر -
وهو أبى - لا يدانيه فى قدرته أحد .

ولماذا .. إذا كنت أشفق من أن أجشم هؤلاء مشقة تقديمه .. لم أمنح
خاله الوفى الأستاذ عباس حافظ متعة هذا التقديم وهو الذى لم تخل من اسمه
مقالة له . ولا خلا من ذكره حديث ..

لماذا .. أترك كل هؤلاء .. وألجأ إلى نفسى أحملها ما لا طاقة لها به ؟
أهو الغرور الذى يدفع فى نفسى الإحساس بأنى قد أصبحت شيئا ..
وبأنى أستطيع أن أضع نفسى موضع المقدم .. لمعلمى الأول .. وصاحب
الفضل على .. والذى - لو مد الله فى عمره - لكان أسبق إلى تقديمى ..
ودفعى عبر الطريق الشائك الشاق .. الذى سرت أكافح فيه وحدى بعد أن
فقدت عونته وهدايته ؟

أم هى الرغبة فى رد الجميل .. على الدفعة الأولى التى دفعها لى عند
طفولتى . والتى كانت لى نعم العون والهداية حتى بعد أن فقدت - بموته
- عونته وهدايته ؟

أم هو الشوق .. إلى مناجاة النائى .. المستعصى رجوعه .. والحنين إلى
لقاء الغائب .. الميوس من لقاءه ؟

قد يكون هذا .. أو يكون ذاك .. أو يكون شيئا من هذا وذاك ..
وهو إحساس بأن هذه المجموعة الضخمة من القصص التى نقلها أبى من
الأدب العالمى .. والتى استوعبتها بين العاشرة والرابعة عشرة .. كانت حصيلتى
الكبرى التى رسبت فى أعماقى .. والنسبة وجهتى فى كتابتى الأولى .. والنسبة
نضحت على أسلوبى وأفكارى . لقد سقيتها فى أول الأمر .. كواجب لا

بد من أدائه .. كنت أنقل البروفات وأنا فى العاشرة من بيتا فى جنية ناميش
إلى مطبعة البلاغ فى عابدين .. وكنت أجلس مع جامعى الحروف .. حتى
ينتهى تصحيح البروفة الثانية على تصحيحات أبى فى البروفة الأولى ..
وكانت التصحيحات مميزة بالخطوط الطويلة الممتدة من السطور إلى الهوامش ،
حيث وضعت الكلمات الصحيحة فى دوائر .

ثم أخذت اندفع فى قراءة قصصه .. وأجد فى ذلك متعة عجيبة .. كنت
ألتهمها التهاما .. وألتهم معها كل ما يقع فى يدي من قصص .. وأخذ أبى
يقرأ لى القصة قبل أن يرسل بها إلى المطبعة .. وأذكر أنه هفنى أول قلم ..
عندما لحت فى ترديد بيت من يا جارة الوادى .. قائلا « وخاطبت عينى
فى لغة الهوى عيناك » .

ومرت سنوات خمس منذ أن بدأ أبى نشر قصصه المترجمة والمؤلفة فى
البلاغ الأسبوعى فى سنة ١٩٢٧ ، بدأها فيما أذكر بقصة « ما تشاء »
لشكسبير ، وختمها بقصته الطويلة التى لم تتم وهى الفيلسوف . حتى مات
فى أغسطس سنة ١٩٣١ وفى خلال هذه السنوات الخمس كنت أشعر أنى
وأبى قد بتنا صديقين .. وكنت ألتهم كتابته فى نهم .. واستمتاع .. وحب ..
وكنت أعرف من خلاله الكثير من الكتاب العالمين .. تاريخهم وحياتهم ..
ونواذرهم .. ولم يكن يقصد قط تنقيفى .. فقد كان هذا آخر ما يخطر
بباله .. بل كان يحدثنى حديث الصديق .. فى خلال جولاته فى شارع
السد .. أو فى جلوسه عند صفيه .. الأسطى محمود المزين فى شارع
خيرت .

ومات أبى .. ولست فى معرض الرثاء .. أو الحزن .. ولكنى أقر بأنه
خلف فى حياتى فراغا عجيبا .. وكان أكثر ما يفجعنى فى موته اليقين بأنى
لن أراه ثانية .. وقد انعكس هذا فى أحلامى .. فظللت أحلم لسنوات بعد
وفاته .. بأنه قد عاد مرة أخرى .. وكانت اليقظة تروعنى بحقيقة فقدته ..

وظللت أقرأ بعد ذاك .. وأحاول الكتابة .. وكنت أحاول جهدى تقليد
أسلوبه .. وكانت جل حصيلتى من اللغة من كتابته .. وكنت أجد مشقة فى

تقليده ، فقد كانت حصيلة من تراث لغوى ضخمة من الأدب العربى ..
وكانت حصيلتى من خلاصة حصيلة ..

وكان أكثر ما يستهوينى فى أسلوبه .. قدرته على التضمين .. وهو إدخال
الآية أو الشعر ضمن كلامه بطريقة مسترسلة تبديها كأنها جزء منه وليست
دخيلة عليه .. وقد كان التضمين هو طابع أسلوبه المميز ، ويدور جليا حتى
فى قصصه المترجمة ..

فهو فى قصة « تحفة فنية » لتشيكوف يصف دخول الغلام « ساشا
سميرنوف » بأنه القنبلة أو « كجلمود صخر حظه السيل من عل » .

ثم يقول عل لسان « بيوتر » فى قصة زويدة منزلية : إنك تسلمنى لقضاء
الله « وقضاء الإله أحوط للناس من الأمهات والآباء » ثم يردد مرة أخرى :
- سأرحل عنكم إلى فضاء الله الواسع الفسيح ..

وفى الأرض منأى للكريم من الأذى

وفيهما لمن خفاف القلى متحول

وفى قصة « الغرام » لتشيكوف يقول فى حوار بين العاشق وحببيه
« إيتونا إليكسيفيا » :

- أراك مكتئبا حزينا ، وما كذلك كنت أيام الربيع حين زرتنا .

تقول ابنة العمرى : مالك بعد ما

أراك حديثا ناعما البال أفرعا

فقلت لها : طول الأسى إذ سألتنى

ولوعة الحزن تترك الوجه أسفعا

فلو أن ما ألقى أصاب متالعا

أو الركن من سسلى إذن لتضعضا

وهكذا لا تكاد تخلو قصة واحدة من التضمين وكنت مأخوذا بقدرته
على التضمين وطواعية الشعر له ، فرحت أقلده على ضعف حصيلتى من الشعر
واستعصائه على ، وحاولت استعماله فى قصصى الأولى .. ولا أظننى استطعت

التخلص منه حتى فى قصصى الأخيرة . فأذكر أنى فى قصة « إنى راحلة »
كتبت على لسان عائدة وقد حل يوم زفافها الممقوت ووقفت قبيل الفجر
تستقبل النسيم الرطب وتستذكر أياما خلت : ما أقدر المناظر المعينة والأجواء
المخصوصة على تحسين الذكريات .. وإثارة الشجن .

رب صوت غابر أو نسمة رطبة . تعيد إلى نفوسنا حشدا من الأحداث ،
رب نقيق ضفدع أو زقزقة عصفور تنكأ فى نفوسنا جرحا اندمل وقرحا شفى

رب ورقاء هوف فى الضحى	ذات شجو صدحت فى فن
ذكرت إلها وعهدا سالفا	فبكت حزنا فهاجت حزنى
فيكائى ربما أرقها	وبسكاها ربما أرقنى
ولقسد تبكى فما أفهمها	ولقسد أبكى فما تفهمنى
غير أنى بالجوى أعرفها	وهى أيضا بالجوى تعرفنى

وقد غاب على أمين طريقتى فى استعمال الشعر فى هذا العصر .. وقال
إنه يقلل من استرسال كتابتى ويضعف من أسلوبى فلم أصدقه حتى سألت
زوجتى ذات مرة عن رأيها فى التضمين ، فسألتنى وما هو التضمين ؟ فقرأت
لها الفقرة التى نشرتها فى إنى راحلة فأجابت ببساطة إنها قرأت إنى راحلة
بضع مرات ولكنها فى كل مرة كانت تقفز أبيات الشعر هذه ، لأنها لا
تفهمها ، ولا تريد أن تفهمها .. وعلمت بعد ذلك أن ثلاثة أرباع القراء
يقفزون أبيات الشعر التى تعترض الكلام .. فآمنت بنصيحة على أمين ..

وبرغم ذلك لم أستطع التخلص من داء التضمين فاستعملته فى آخر قصة
لى وهى « رد قلبى » .

والظاهرة الثانية فى أسلوبه التى حاولت تقليدها فكلفتنى من الجهد مالا
أطيق .. هى قدرته الخارقة على السجع .. الناتجة عن طواعية الألفاظ طواعية
مبعثها حصيلة المترادفات الضخمة التى يملكها من اللغة ، ولا أظن هناك مثالا
لذلك خيرا من وصفه للخريف والشتاء فى قصة ورقة اليانصيب بقوله :

« ثم أن إيفان دمترى شرع بعد ذلك يصور لنفسه الخريف وأنداءه ،
ومزنه وأنواءه ، ثم الشتاء وزمهريره وغيمه وصيره ، ووكف لثوجه وضريه ،

وعصف إعصاره وهوبه ، وكسوف نهاره وفرط شحوبه ، وظلماته وحلكاته ، ومزلقه وزحلقه ، وضيق مذاهبه ، وكثرة معاطبه ، وخرج مسالكة ، وقبح مهالكه ، وانقباض الصدر منه والنفس ، وكدر المزاج وتبلد الحس ، وتقلص البدن وانكماشه ، وظلمة الروح وإيجاشه ، وسامة المرء فيه وقلة إيناسه ، وسجنه بين جدران بيته واحتباسه .

وانى أعتقد أنى قد أنجح فى كتابة مثل هذا الوصف ، على أن أقف كتابة القصة لمدة عشرة أيام أتفرغ فيها لجمع المترادفات التى تمكنتى من نظم مثل هذا الوصف ، الذى لا أظنه قد استحق من جهده أكثر مما تستحقه بضعة سطور فى الحوار العادى من أية قصة .

تلكما هما الظاهرتان اللتان تلقى نظرى فى أسلوبه الآن .. والتى أشعر أن قارئ اليوم لم يعد له جلد عليه .. وإن كنت لأدري من التسبب فى هذا .. أهو الكاتب الذى لا قدرة له عليهما .. أم القارئ الذى لا جلد له على تتبعهما ..

يبقى بعد ذلك مضمون القصص ..

إن الشيء العجيب الذى أحسست به فيها .. ولا سيما فى مجموعة القصص الروسية .. هو أن أفعال الهدف الذى ينادى به كتاب الأدب الهادف أو الأدب فى سبيل الحياة شيء لا يكاد يحس .. وأن كلها لا تزيد على صورة صادقة من حياة الناس ، بل إن هناك قصة لشيخ الكتاب الروس مكسيم جوركى ، وهى الأمير وابنه ، تتلخص فى أن ابن الأمير عاد ظافرا من الحرب ، فسأله الأمير أن يطلب ما يشاء .. فطلب منه جاريته المحبوبة .. فلم يستطع الأمير أن يفرط فيها لفرط حبه لها ولم يستطع أن يخلف وعده ، فحمل الجارية فى سفينة وأصر على أن يقذف بها فى البحر حتى لا ينالها أحد .. وفعلوا رمى بها فى البحر ثم رمى نفسه وراءها من فرط حبه لها .

تلك هى الحدوتة التى لو كتبها أحد كتابنا اليوم لا تهتم بالسلبية وسلسلة نقائص أخرى من سجل نقاد الأدب الهادف .

والمجموعة لاشك نخبه ممتازة فى جملتها وإن كانت لا تخلو من بعض
قصص تافهة . وأى شىء فى هذه الدنيا لا يخلو من التافهة ؟
وبعد لقد نضحت المجموعة على إنتاجى الأول أسلوبا ومضمونا .. فهى
كما قلت كانت زادى الأكبر الذى منحه لى أبى ، فكان لى نعم العون ونعم
الهداية .. ترى هل قلت كل ما أريد عن القصص وعن أبى ؟
أم أنها - كما سبق القول - مجرد مناجاة للنائب المستعصى رجوعه ..
والغائب الميئوس من لقائه ..
« يوسف السباعى »

الرواية

للقصصى الروسى أنطون تشيخوف

قالت الخادمة لسيدها «بافيل ويسلى» المؤلف الأشهر وهو على المائدة وقد فرغ من طعام الغداء :

- إن بالباب سيدة تستأذن عليك ، وقد أقامت تنتظرك برهة طويلة .

قال المؤلف الأشهر :

- ما أراها إلا إحدى المتطفلات على الأدب والكتابة . وقد جاءت ببعض سخافاتهن تعرضها على لتصدع بها رأسى ، بعدا لها ولأمثالها ، خبريها أنى مشغول .

- ذلك من أصعب الصعب ، لقد ترددت على الدار خمس مرات ، وهى تأبى إلا لقاءك ، وإنها والله لتوشك أن تبكى حسرة ولهفة .

- اذهبي بها إذن إلى المكتب ...

تناول المؤلف «بافيل» رداءه فلبسه بكل تؤدة وأخذ فى يمينه قلما وفى يساره كتابا ومضى إلى المكتب وحاول جهده أن يتظاهر بهيئة المكدود المثقل بأعباء العمل .

وألقي بالمكتب امرأة ضخمة بدينة محمرة الوجه لابسة نظارة ، حسنة الهندام والشارة على رأسها قلنسوة حمراء محلاة بعصفور أحمر ، ولما أبصرت للمؤلف ضمت ذراعيها على صدرها وصمدت إليه بعينيها كالضارعة المبتهلة .

وقالت بصوت حاد مذكر يتهدج اضطرابا :

- بديهي أنك لست تذكرنى ، إنى .. إنى تشرفت بلقبك مرة فى بعض الحفلات ... أنا الآنسة موراشكين .

- أ ... أ ... أ ... إحم ... اجلسى .. ماذا عسى أستطيع أن أصنع لك ؟ .

قالت وأخذت مجلسا وقد زادت اضطرابا وربكة :

- قد ترى يا سيدى .. قد ترى .. أنك لا تذكرنى .. أنا الآنسة موراشكين ..
قد ترى يا سيدى أنى من أشد الناس إعجابا بعقريتك ، وما زلت مولعة باجتلاء
محاسن يراعتك ، واقتناء نفائس يراعتك ، لا أصانعك ولا أداجيلك ، ولا أجاملك
ولا أحاييك ، معاذ الإله وحاش بيانك الرائع ، وأدبك البارع ، وإنما أضع التمجيد
موضعه وأقر التكريم والتمجيد فى نصابه ، وأثنى عليك بما أنت أهله ، هذا وإن
لى أنا أيضا يا سيدى مشاركة فى الأدب وقد أخذت بطرف من العرفان ، لا
أزعم أنى أحسب فى عداد المؤلفين ، على أنى قد وفقنى الله إلى أن أجود بما
عندى وإن كان ضئيلا ، فلقد أبرزت فى أحايين مختلفة ثلاث قصص للصبيان ،
لم تقرأها بطبيعة الحال يا سيدى ، وقد ترجمت شيئا كثيرا ، وكان المرحوم أخى
ينشر نبذا فى جريدة الحرية ..

قال بافيل :

- لا شك فى ذلك ... ولكن ماذا عسائ أن أصنع لك ؟ .

- قد ترى يا سيدى .. (وهنا نكست السيدة جيدها وغضت بصرها وزاد
احمرارها) أنى أعرف مبلغ نبوغك ودقة نقدك وأصالة رأيك ، وما زلت تواقفة
إلى استجلاء آرائك ، أو بالأحرى إلى افهسنا نصيحتك ، ولقد ألفت رواية
تمثيلية ، وأريد عرضها عليك قبل النشر .

وعمدت السيدة إلى جمعيتها وإنها لترتجف كالعصفور بلله القطر أو كأنها :

قطاة عزها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح

فاستخرجت ملفا من الورق ضخما سمينا ...

وكان صاحبها بافيل « لا يجب أن يقرأ من الأوراق إلا ما مسطرت يده ، فإذا
هدد بإرغامه على قراءة مسودات غيره أو الإصغاء إليها أحس كأنه قد نصب أمام
فوهة المدفع ، فلما بصر بالمسودة السمينة الضخمة طارت نفسه هلاعا وابتدر
قائلا :

- لا بأس ... دعيتها .. فسوف أقرأها ...

قالت السيدة بصوت واهن قد براه الكمد والشجى فكاذ بييد ورفعت يديها
مبتهلة :

- سيدى بافيل ! أعلم أنك مشغول جدا ، وأن كل لحظة من وقتك نفيسة قيمة ، وأعلم أنك تسبني الآن وتلغنى فى ضميرك ، ولكن تعطف على وحنانك ! ودعنى أقرأ عليك روايتى .

قال « بافيل » متلجلجا :

- لقد كان بودى أن أجيبك إلى هذا يا سيدتى لولا كثرة أشغالى ، وضيق مجالى ، فاسمحي لى بالقيام توا ولك الشكر .

قالت السيدة بصوت كآنين الشكلى ورنه النائحة :

- سيدى بافيل !

وحنقتها العبرة فأجهشت بالبكاء وفاض دمعها مدرارا ...

- لا أنكر أنى أسألك تضحية عظيمة وأنى قد بلغت فى الفضول والتطفل ، فلو كان ذنبى عظيما فإن رحمتك وحنانك أعظم ، ولا أجحدك أنى راحلة من غدى إلى بلدة قران ولا بد لى من أخذ رأيك اليوم ، فتكرم على بنصف ساعة فقط ، إنى أبتهل إليك ضارعة خاشعة !

لقد كان « بافيل » على صلابة ظاهره أرق الناس قلبا وأرحمهم فؤادا ، فلما شاهد من لوعة المرأة وغليل حرقتها ما شاهد خارت قواه وفلت عزيمته وقال :

- لا بأس يا سيدتى ، سأصغى إليك .. سأهيك من وقتى نصف ساعة .

فأرسلت السيدة صيحة فرح شديدة ونزعت فلتسوتها ، واطمأنت فى مقعد وشرعت تقرأ بادئة بالمنظر الأول من الفصل الأول ، وخلاصته أن خادما وخادمة ينظفان غرفة فاخرة الأثاث والرياش ويفيضان أثناء ذلك بالحديث عن سيدتهما الصغيرة « حنة » التى كانت تنشئ مدرسة ومستوصفا فى القرية ، ثم ينصرف الخادم وتشرع الخادمة فى محاضرة مسهبة عن فائدة التعليم وأن العلم نور والجهل ظلمة ، ثم إن المؤلفة السيدة موراشكين ترجع الخادم إلى الغرفة وتطلق لسانه بمحاضرة مستفيضة عن سيده الجنرال واستهجانته لآراء ابنته وعزمه على تزويجها لرجل غنى جاهل وزعمه أن الجهل نور والعلم ظلمة . وأن صلاح الناس فى الجهل المطبق وفسادهم فى العلم والعرفان .

ثم يغادر الخادمان المسرح وتظهر السيدة الصغيرة نفسها ، فتخبر المتفرجين

أنها قضت الليلة السالفة سهادا لم تذق حلاوة النوم من ذكرى حبيبها فالتين الذى يشتغل عريفا عند أبيه (أبوه فقى كتاب) ، والذى على شدة فقره وفاقته قد ضرب فى العلوم بأرجح سهم وأوفر نصيب ، وفاز فى الفنون بالقدح المعلى ، ولكنه مع ذلك لا يؤمن بوجود الصداقة ولا الحب على ظهر هذا العالم الأرضى ، ويعتقد أن الحياة خلو من الخير مقعمة بالشر ، ومن أجل ذلك أصبح يمقت الحياة ويشتهى الموت ، ولذلك قد عزمت السيدة على إنقاذه .

أصغى المسكين « بافيل » إلى كل هذا وجعل يثلهف على رقدة فى سريه ، أو خلوة فى مضجعه ، وجعل يتفرس فى وجه المرأة والغيظ يأكل قلبه والحق قد فى أحشائه يحتدم ويتضرم .

وكان صوتها الحاد يضرب على صماخ أذنه كضربات السندان (اللهم اكفنا السوء) وهو لا يعى شيئا ولا يفهم شيئا !
وجعل يقول فى نفسه :

لك الحمد أما ما نحب فلا نرى ونبصر ما لا نشتهى فلك الحمد
لقد أرسلك الشيطان إلى فى ساعة نحس كائنى بحاجة إليك ، أنت ألفت الرواية ، وأنا ما ذنبى وماذا جنيت ؟ رحماك اللهم ! أوقد حكمت على أن أسمع كل ما فى هذا الملف من سخافة ، لله ما أسمن هذا الملف وما أضخمه ! .. ويا وبلى ويا حسرتى !

نظر « بافيل » إلى الحائط حيث صورة زوجته معلقة وتذكر أن زوجته كانت سألته أن يشتري لها خمسة أمتار من الحرير ورطل جين فلمكنى وعلبة « بودرة » للأستنان وقال فى نفسه :

- عسى أن لا أكون فقدت عينة الحرير ، أين وضعتها ؟ أظنها فى جيب الرداء الأزرق ، قبحا لهذا الذباب الملعون ! لقد وسخ الصورة . لأسألن الخادمة « أولغا » أن تنظف زجاجها .. يا ويلتى ! إن المرأة دائية فى القراءة دعوب الرحى أو دعوب الأيام فى عمر الإنسان ، لقد بلغت المنظر الثانى عشر ، فلعلنا قد قاربنا ختام الفصل الأول ، قبحها الله ما أضخم بدنها ! أتحسب الحمقاء أن الذكاء مما يتفق مع هذا السمن المفرط وأن العبقريّة تستطيع أن تحل فى هذا الجبل من اللحم

وفى مثل حرارة ذلك الشحم المتراكم ؟ وأولى لها من تأليف الروايات والله أن
تشرب الخل البارد وتنام فى يدرون ! »

وقالت السيدة بغتة :

- ألا ترى أن هذا المونولوج أطول مما ينبغى ؟ ..

لم يسمع « بافيل » المونولوج ولكنه قال :

- لا .. لا .. إنه بديع جدا ..

فتهلل وجه السيدة سرورا واستمرت تتلو ما يأتى :

حنة : لقد أضناك وأكل جسدك كثرة التفكير ، إنك تعيش فى الدماغ لا
فى القلب ، إنك جعلت كل عقيدتك وإيمانك فى الذهن ، وكفرت بالعواطف
وجحدت الإحساس والشعور .

فالتنن : ماذا تعنين بالقلب ، هذا اصطلاح من اصطلاحات علم التشريح
ولست أجزئه اسما للتعبير عما نسميه الإحساسات والعواطف .

حنة : (مضطربة حائرة) والحب ، ماذا تقول فى الحب ؟ حقا إنه ليس
مجرد نتيجة من نتائج تسلسل الخواطر . خبرنى صراحة هل أحبيت قط فى
حياتك الماضية ؟

فالتنن : لا تدعبنى أنكأ القروح القديمة ولما تندمل .. (فترة سكوت) أظن
أنك شقية تعسة .

فى خلال المنظر الثامن عشر ثاءب « بافيل » وصرت أسنانه صريرا حادا
وآله صدور هذا الصوت المنكر ، فتظاهر بمزيد الالتفات إلى السيدة مدارة لتلك
الهفوة .

وقال فى نفسه :

- المنظر التاسع عشر ، ليت شعرى متى ينتهى هذا الفصل الذى إخاله أطول
من ليل الصب ويوم الحشر ، اللهم لا أسألك رد القضاء ولكنى أسألك اللطف
فيه ، أما والله لو دام هذا الفصل أكثر من عشر دقائق لاستغشت بالبوليس !
ولكن الله تداركه بلطف منه وعناية إذ قالت السيدة فى تلك اللحظة :

« يرخى الستار » ..
وتنهذ بافيل من أعماق قلبه وتحرك للقيام ولكن السيدة قلبت الصحيفة بأسرع
من لمح البرق واستمرت فى تلاوتها :

الفصل الثانى المنظر الأول

(شارع بقرية ، على اليمين مدرسة ، وعلى اليسار مستوصف ، جماعة من
القرويين ، رجال ونساء ، جالسون على باب المستوصف) ..
فاعترض (بافيل) قائلا :

- معذرة سيدتى ، على كم فصل تشتمل الرواية ؟ ..
قالت السيدة :

- على خمسة .

وكانما خشيت أن يفر سامعها من بين يديها فأسرعت بالتلاوة :
فالتين تشرف من نافذة المدرسة ، فى أقصى المنظر يرى رهط من القرويين
يحملون أمتعتهم إلى النزل .

استسلم « بافيل » لقضاء الله الذى لا مرد له وأنزل نفسه منزلة المحكوم عليه
بالإعدام حكما لا مناص منه ولا مخلص ، واجتهد أن يطرد النعاس عن مقلتيه ،
وخيّل إليه أن نهاية هذا البلاء المحتّم أبعد إليه من رحمة الله على عدوه أبلّيس فقطع
من ناحيتها كل رجاء ..

دو .. دو .. دو ..

دق ناقوس صوتها على صماخ أذنه « دو - دو - دو - وش - وش -
وش » ..

وقال المسكين فى نفسه :

- لقد نسيت أن أشرب زجاجتى المعتادة من الصودا .. ماذا أصنع الآن ولم

أشرب الصودا ؟ سيصينى المص ووجع البطن بلا شك .. أرى عصفورا على قاعدة النافذة .

وأطبق النعاس أجفانه فحاول فتحها بكل مشقة ، ثم تنأب دون أن يفتح فمه وحملق فى وجه المرأة وخيل إليه أن صورتها قد انطمست معالمها ، وأن شخصها جعل يترجح ويتموج فى عينيه وأن شكلها قد استحال إلى هيئة مثلث وأن رأسها قد لمس سقف الغرفة .

فالتتين : كلا دعينى أرحل ..

حنة : (حيرى مولدة) لماذا ؟

فالتتين : (على انفراد) لقد اصفر لونها (إليها) لا ترغمينى على الإيضاح ، فالموت أحب إلى من أن أبوح لك بالسبب ..

حنة : (بعد فترة) كلا لن ترحل ..

ثم خيل إليه شيخ السيدة ينمو ويمتد فى كل ناحية حتى ملأ فراغ الغرفة ، وصار كله خليطاً مشوشاً لا يبين منه سوى فمها المتحرك ، ثم استحالت بخته إلى شكل زجاجة ثم جعلت تترنخ يمنة ويسرة ثم تفهقرت هى والمائدة إلى أقصى الغرفة .

فالتتين : (مطوقاً حنة بذراعيه) لقد نفخت فى روحا جديدة ، لقد بعثتى إلى الحياة من المقابر ، لقد أنعشتى كما ينعش الغيث موات الأرض ، ولكن لات حين مناص ! لقد سبق السيف العذل ! إن دائى عضال يعجز الأساة ويعبى الأطباء وما أن له من دواء !

انتفض « بافيل » فى مجلسه بخته ونظر إلى السيدة بعينين مغميتين مقروحتين موجعتين ، وشخص بصره كالذى لا يعي ولا يعقل ..

المنظر السابع عشر

البارون ومفتش البوليس وأعوانه .

فالتتين : خذونى !

حنة : إنى جاريتك وملبك يده ! خذونى معه ! إنى أحبه ! إنه لأحب إلى من روحى !

البارون : اذكرى يا حنة أنك تهدمين مجد أبيك !
وهنا نهض بافيل هائجا كالليث واختطف إحدى ثقلات الورق من فوق
المائدة وصبها على أم رأس المرأة وصاح بصوت جهنمي مستنكر :
- خذوني بدلا من حبيبها فالتين ، فإننى أولى بالقصاص منه ، إذ قتلت
المرأة ..
ولكن المحكمة برأت ساحته ..

زيت البرافين

للقصصى الروسى أنطون تشيكوف

كان بيوتر بتروفتش أرملًا منفردًا ، ولكى يؤنس من وحشته ويخف من عناء وحدته أسكن معه أخت زوجته البكر العانس (كان كل منهما يعيش على نفقته) ولشا على هذه الحال ردحا من الزمان .

وفى ذات ليلة دعى صاحبنا بيوتر إلى حفلة نفاس (سبوع) وكان رجلا تقيا صالحا ورعا لا يذوق الخمر ، ولكنه مجارة للإخوان فى تلك الليلة وسرورا بسلامة النفساء وصحة المولود شرب كأسين من الراح ، ولاحبذا الراح إنها تغرى الشارب بالاستزادة - كء البحر لا ينقع غليلا كلما ازددت عطشا .

لذلك لما انكفأ إلى بيته جوف الليل أحس ظمأ شديدا فى أحشائه وبسا فى حلقه ، وحذرا من إيقاظ أليفته وعشيرته أو إزعاجها خلع نعليه لما ولج باب المنزل وصعد السلم حافيا على مشطى قدميه كاللص حتى بلغ فراشه ، ثم أراد النوم فأباه عليه ظمؤه وغلته .

فقال فى نفسه :

- إن داشنكا (أخت زوجته) على ما أظن تخشى فى الركن الأيمن من خزانتها زجاجة من الفودكا ، فلو عمدت إلى هذه الزجاجة فأخذت منها قدحا لم تظنن إلى ذلك ولم تشعر .

وبعد قليل من التردد تغلب على مخاوفه وعمد إلى الخزانة ففتحها بمنتهى الحذر ، وتلمس الزجاجة فى الركن الأيمن فأفرغ منها قدحا ثم أعادها إلى مكانها (وصلب على صدره) والتهم القدح ، وعلى إثر ذلك ثار فى جوفه شيء كالمعجزة فأحس أن قوة خفية قذفت به من جانب الخزانة - كأنه بمبة - فصدمت به جدار الغرفة ، واستطارت أمام عينيه لمحات برق خاطفة وانقطعت أنفاسه ، وخيل

إليه كأنما قد ألقى به فى مستنقع مفعم من علق ، وأنه بدلا من الفودكا قد شرب
« ديناميتا » ينسف جسده والدار والحي برمته ، وكأن رأسه وذراعيه ورجليه
كلها يمزق ويطير فى الهواء إلى جهنم !

ولبت طريحا على أرض الغرفة ثلاث دقائق لا حراك به ولا حس ولا نفس ،
ثم نهض وساءل نفسه :

— أين أنا ؟

وكان أول ما أحس به لما عاد إلى صوابه رائحة شديدة من زيت الوقود المسمى
« البارافين »

فقال فى نفسه وملكه الرعب والجزع :

— يا لله ويا لقديسه وأوليائه ! لقد شربت من البارافين بدل الفودكا .

ولما تبين له أنه قد سم نفسه عرته قشعريرة ما لبثت أن استحالت إلى حمى ،
واستدل على أن ما شربه سم بأشياء أخرى خلاف رائحة البارافين المستفيضة فى
أرجاء الغرفة ، كاللهيب الذى كان يلذع لسانه وشفتيه ، والبارقات المستطيرة
أمامه والدقات الرنانة فى رأسه والمغص المتسلط على أمعائه .

وكذلك لما أحس قرب يومه ودنو أجله ، وانقطعت من الدنيا آماله وتمثل
له شيخ الموت لا ريب فيه ولا مناص منه — أراد أن يودع أقرب الناس إليه
وأعزهم عليه — فعمد إلى مضجع العذراء داشنكا .

ودخل عليها الغرفة وهى فى أعماق نومها ، ورفع عقيرته بالأنين ينوح بصوت
متوجع تتخلله الدموع :

« داشنكا ! داشنكا ! عزيزتى داشنكا ! »

فتقلب فى الظلام شيخ وتمتم بكلمات غير مبينة ثم تنهد .

— داشنكا ! داشنكا ! أختى داشنكا !

فارتفع صوت امرأة تقول بسرعة :

— إيه ! ماذا ؟ وماذا يا بيوتور بتروفتش ؟ ما أسرع ما رجعت ! وماذا سئى
المولود ؟ ومن عرابه ؟ وهل كان بالحفلة موسيقى ؟

- كان عرابة أندريفيينا ، وعرابته ناتاليا ، ولكنى أموت يا داشنكا ! إني أعانى .
سكرتة الموت يا داشنكا ! - وقد أكلنا هنالك فطيرا ومكرونة - آه ياداشنكا إني
فى حالة النزاع ! وقد سمو المولود أوليمييادا ، إني ... إني شربت بارافينا يا
داشنكا !

- ما أظن أنهم يقدمون البارافين هنالك للضيوف كبعض المرطبات يايوتور !
- كلا يا داشنكا ، وإنما الواقع هو أنى - ولا أكذبك يا داشنكا - أردت
أن أحسو قدحاً مما فى خزانتك من الفودكا دون استئذانك ، فانتقم لك الله منى
فصب على سوط عذابه فألقى فى يدى زجاجة البارافين بدلا من الفودكا وقد
شربت منها ... فماذا أصنع ؟

فلما سمعت داشنكا أن خزانتها قد فتحت بدون إذنها ازدادت تنبها واستيقاظا ..
ونفضت عن أعطافها غبار الكسل وثارَت من مرقدها فأشعلت شمعة ، وأقبلت
تهرول فى قميص النوم شنيعة المنظر قبيحة الشكل عجفاء رسحاء كلها جلد
وعظام حتى بلغت الخزانة .

ثم صاحبت بقسوة وغلظة وهى تفتش الخزانة :

- من أذنك أن تفتحها ؟ من أباحك أن تعيث بمكنوناتها وتعيث فيها فسادا ؟
وهب أن بها زجاجة من الفودكا فهل تحسب أنها قد وضعت ثمت من أجلك ؟
ما أشد قحتك وسماجتك وما أبرذك !

قال بيوتر وانتكف العرق البارد عن جبينه :

- مهلا يا داشنكا . تالله ما شربت فودكا ولكن بارافينا .

- ومالك والبارافين ؟ أى شىء يدعوك إلى مساس البارافين ؟ وهل كان
البارافين قد وضع فى الخزانة لأجلك وتحت تصرفك ؟ أم تحسب أن البارافين
لا يشتري بالمال وأنه يسقط من السماء كال مطر أو ينبجس فى أفنية الدور كالينابيع ؟
أندرى كم ثمن البارافين اليوم ؟ وإلى أى حد ارتفعت أسعاره ؟

فولول بيوتر وناح قائلا :

- عزيزتى داشنكا ! إنها لمسألة حياة وموت ، تذكرين الأثمان والأسعار ،
انظرى إلى بعين الرفق وهينى من لذلك رحمة !

فصاحت داشنكا بصوت مزعج وأغلقت باب الخزانة بصدمة عنيفة :

لقد شرب الخمر حتى شربت الخمر عقله ثم جاء كالمجنون يعيش فى الدار ويفسد ، ويدس أنفه فى خزانة غيره ، ياله من وغد خسيس وجان مجرم ومعتد أثيم ، ويا ويح نفسى من أولئك الأشرار والفجار ، لا أزال فريسة سطواتهم ، وضحية غدراتهم ، وهدف سهامهم فى روحاتهم وغدواتهم ، لا أدخل من شرهم ساعة واحدة لا ليلاً ولا نهاراً ، نفص الله عليهم عيشهم فى الحياة الدنيا ، وأصلاهم فى الآخرة نار جهنم ! لأغادرن هذه الدار غداً ، إني فتاة عذراء ولست أسمح لك أن تقف أمامى وأنت عار من أكثر ملابسك ، وكيف تجترىء على أن تنظر إلى وليس على بدنى سوى قميص النوم ؟

ولجت فى غلوائها تسب وتلمن ، ولما كان بيوتر يعلم أنه متى ثار شغبها وهاج غضبها فليس يسكن منه الدعوات ولا الرقى ولا الابتهالات ، كلا ولا إطلاق مدفع فى الهواء ، طوح بيده بأسا وارتنى ملابسها وأزمع الذهاب إلى بعض الأطباء ، ولكنك لن تجد الطبيب إلا منذ استغنائك عنه . فبعد أن اجتاز بيوتر سبعة شوارع وطرق أبواب خمسة أطباء بلا جدوى ، أسرع إلى صيدلية وقد حسب أنه ربما أصاب المنفعة عند الصيدلى . وبعد برهة خرج إليه رجل قصير دميم مجعد الشعر أسمر البشرة فى جلباب النوم قد رنق فى عينه التعاس وعلى وجهه من أمارات البأس والوقار والهيبة والعقل والحكمة ما يملأ القلب روعة ورعباً .

وسأل بصوت ولهجة مما ليس يعهد إلا فى متفلسفى الصيدليين وأجلائهم من طائفة إسرائيل :

- « ماذا تريد ؟ »

فقال بيوتر بصوت مبهور النفس لا يكاد ينبعث من حلقومه :

- ناشدتك الله ... سألتك بالله .. أغثنى .. أعطنى شيئاً .. لقد شربت خطأ من زيت البارافين ... إني أموت !

- لا تهج أعصابك ! وأجب أسألتى ، فإن ثورانك يمنعنى من فهم كلامك ، تقول إنك شربت بارافينا ؟ نعم ؟

فمشى الصيدلى إلى مكتبه بكل جمود وبرود وفتح كتابا وشرع يقرأ فيه باب المادة الطبية وبعد قراءة صفحتين هز إحدى كتفيه ثم الأخرى وكثر عن أنيابه وأطرق دقيقة ثم دخل الغرفة الملاصقة ، ودقت الساعة أربعاً ، ولما أشار عقربها إلى عشر دقائق بعد الأربع برز الصيدلى و فى يده كتاب آخر وانغمس ثانيا بين طياته ، وقال بلهجة المتحير :

- إن كونك مريضاً للدليل على أنه قد كان من الواجب عليك أن تعتمد إلى طبيب لا إلى صيدلى .

- ولكنى قد عمدت إلى الأطباء فلم أستطع إيقاظهم .

- وكذلك لا تعدنا - نحن معشر الصيدليين - ضمن الآدميين ، ولا تحسب أن لنا شعوراً وإحساساً ، فأنت تقلق راحتنا وتفر منا ، فى حين أن كلاب البلد وستائرها تنال قسطها من النوم والراحة ... أنت لا تفهم شيئاً ولا تحاول أن تفهم ، وفى نظرك أننا لسنا من دم ولحم و لكننا من الصخر الأصم وأعصابنا من الفولاذ .

أنصت بيوتر إلى محاضرة الصيدلى ثم تنفس الصعداء وانطلق إلى منزله . وناجى نفسه قائلاً :

- وكذلك قد كتب على أن أموت ، إنا لله وإنا إليه راجعون !

وكان فى حلقه هيب وعلى لسانه مذاق البارافين وفى أحشائه نخسات ووخزات ، وفى أذنيه دوى : يوم ... يوم ... يوم ... وفى كل لحظة كان يخيل إليه أنه جاء أجله وحان حتفه .

أسرع إلى البيت وتناول قلماً وقرطاساً فكتب « لا يسأل أحد عن مصرعى ولا يؤخذ بمقتلى إنسان ، أنا الذى جنيت هذا على نفسى » ثم أدى فريضة الصلاة وأصعد إلى عرش الله دعوات الاستغفار ، وردد وتغطى باللحاف ولبث يقظان حتى الصباح ينتظر ملك الموت ، وجعل أثناء ذلك يتخيل قبره فى بقعة خضراء يرف من حوله النور وتغرد فوقه العصافير .

وفى الصباح كان جالساً على فراشه سليماً معافى فى عقله وبدنه آناً مطمئناً أصبح ما يكون وأسر وأشد ابتهاجاً .

وقال لصاحبه داشنكا وهو يتسم :

- إن الرجل التقى الصالح الذى يؤمن بالله واليوم الآخر ليس تؤثر فيه السموم إن هو تجرعها خطأ يا أختى العزيزة ، انظرى إلى مثلاً ، لقد أشرفت على الهلاك وقمت على حافة القبر ، وعانيت سكرة الموت وألم النزع ، وبعد كل هذا تريننى أمامك صحيحاً مسلماً ، عدا لسعة فى فمى وحرقة فى حلقى ، ولكنى بخير والحمد لله .. ولماذا ؟ بفضل صلاحى واستقامتى .

قالت داشنكا وتنهدت وأخذت تفكر فى غلاء الأسعار ونفقات العيش : -
« كلا يا بيوتر ! إن عدم تأثير البارافين فى أحشائك لا يرجع إلى صلاحك واستقامتك ولكن إلى كونه من صنف ردىء مغشوش ، ولم أستطع - يعلم الله - لضيق ذات يدى أن أشتري الصنف الأجود الأنقى ، ولو اشتريت من ذاك لقطع أمعائك وأوردك حتفك ، وعلى فقرى وفاقتى ومكابدتى الأمرين فى سبيل إحرازى حاجياتى الضرورية أراك لا تنتزه ولا تتورع أن تسرق أشياء ، فياويلتى منك ومن سطواتك ! هلا تركتتى وشأنى ؟ هلا كففت عنى من حدة بأسك وشرة بطشك ؟ هلا عففت عن زهيد أمتعتى ؟ ما أشقانى وما أبأسنى وما أتعس حالى إيا الله من أولئك الجبابرة الطغاة والشياطين المردة ! .. جزاكم فى الدنيا شراً وفى الآخرة نقمة وعذاباً ! .. يا عصبة السوء واللؤم ! .. »

واستمرت على هذا المنهج ...

موقف "عرج"

للقصصى الروسى أنطون تشيكوف

قال « زركوف » من داخل المركبة يخاطب الخوذى وهو يسوق الجوادين :
- بحس الرجل أنت أيها الخوذى ، لا قلب ولا عاطفة ، إنى أعجب لك
ولأمثالك كيف تستطيع أن تقطع مرحلة العمر دون أن تستمتع بلذات الغرام
ومناغمه ! إن لك لقلبا ملطخا بالقطران ما تذوق قط حلاوة الحب ولا تفتح لوفود
متعته ومباهجه ، ولذلك لا تستطيع أن تفهم ما أحسه أنا الآن من مطارب الوجد
والصباية . فاعلم أن هذا المطر الشجاع لن يطفىء نيران أحشائي إلا إذا استطاع
رجال المطافى أن يطفئوا سراج الشمس فى كبد السماء ، هذه إحدى استعاراتي
البديعة ، ولكنك لا تفهمها . وأين منك الاستعارة والكناية والبديع وأنت عامى
سوقى ، وما أنت بشاعر ، أم تراك شاعرا ؟

- كلايا سيدى ، لست بشاعر .

- دعنا من هذا واسمع ...

وشرع زركوف يفتش فى جيبه عن كيسه ليدفع للخوذى أجرته .

- لقد اتفقنا على أن أعطيك روبيلا ، فهنا هو الروبيل ، مضافا إليه خمسة
كوبيكات لحسن أدبك وإصغائك إلى هذرى وفضولى ، وداعا ، ولا تنسنى ،
وتفضل بحمل هذه السلة وضعها على عتبة هذا المنزل برفق وحذر ! إن فيها حللة
فاخرة من حلل المراقص هدية للغانية التى هى أحب إلى من روحى !

فنزل الخوذى عن مقعده متبرما ساخطا وتنهذ متضجرا ، وحمل السلة ومشى
متخططا لا تكاد تستقر قدماه على الأرض الزلقة يخوض بركا وأوحالا ، وغمارا
وأوشالا ، حتى بلغ عتبة المنزل فألقى عليها السلة .

وعاد إل مقعده متخططا متعثرا وهو يتمتم قائلا :

- ما أقسى هذا الجوّ ، لهنى على رشفة من السلاف ، ورقدة تحت اللحاف ،
ووقانا الله نفحات هذا القر الرجاف .

ثم استحث جواده ومضى ...

وقال زركوف وجعل يتحسّن يديه يلتمس جرس الباب :

- أظننى قد استوفيت مطالب صاحبتى « ناديا » . لقد سألتنى أن أذهب إلى
خياطتها فأتيتها بملتها الجديدة ، وهاهى ، وقد طلبت صندوقاً من الحلوى وآخر
من الجينة وهاهما ، وباقه من الزهر وهاهى ، هذه سدة باب الحبيبة فاخلع نعليك
إنك بالوادی المقدس ، وحيتها مثرنما : « وعمى مساء دار نادى واسلمى » ولكن
أين الجرس ؟ .

لا يعجبين القارىء من ترنم زركوف بالأشعار ، فلقد كان فى نشوة يهز
أعطافه الطرب ، وكان قادماً على حسناء رائعة ، ونار ساطعة ، وزجاجة لامعة ،
ومائدة جامعة ، وأى سرور عمرك الله بعد هذا ؟ وربما سرك ولد لك أن
ينفحك القر ، ويأخذك الوابل الثر ، إذا وثقت أن وراءه عاجل الخير والبر .

وأخيراً عثر زركوف بالجرس وجذب زره جذبتين ، ومالبت أن سمع وقع
أقدام من دونه ، وهمس صوت نسائي يقول :

- أذاك أنت يا ديمترى ؟

- أجل هو أنا ذا أيتها الفاتنة الحسناء دانياشا (دانياشا هذه هى الخادمة) .
أسرعى بفتح الباب فقد أغرقنى المطر إغراقاً .
فهمست الخادمة بصوت مضطرب :

- ويلي ثم ويلي ، غض من صوتك ولا تضرب بنعلك الأرض ، لقد قدم
سيدى الليلة من باريز .

فلما سمع لفظة « سيدى » تقهقر خطوتين وتولاه من الرعب ما يتولى أشجع
الشجعان حين يفاجأ باحتمال مواجهة الزوج ..

وقال فى نفسه وهو ينصت إلى خفة حركات الخادمة أثناء إغلاقها الباب
وتسللها فى دهليز البيت !

- أية ورطة هذه ! وما معنى هذا كله ؟ أعود أدراجى وأقع من الغنيمة بالإياب ؟ حنانيك ربى ! ذلك ما لم أكن أتوقع !

وما لبث أن أحس بنوع من السرور والفكاهة وذلك أن رحلته من المدينة إلى دار الحبيبة تحت سرادق الظلماء ، وشايبب الأنواء بدت فى عينه وكأنها مغامرة روائية ممتعة . وقد زادها الآن عجبا وإمتاعا وما قام فى سبيلها من تلك العقبات واعترضها من هاتيك المباغئات ، وحفها من هذه الأخطار والمخاوف حتى لقد أصبحت وكأنها رواية نصفها مهزلة ونصفها مأساة ، وكأنه بطل حومتها ، وفارس حلبتها .

وقال لنفسه بصوت مسموع :

-- قصة عجيبة وأيم الله ! ما أصنع الآن ؟ أأنتنى عائدا إلى المدينة ؟

هى المطر ثرا غزيرا وأعولت الريح خلال الدوح ، على أن الأمطار والدوح كانت محجوبة عن البصر بأصفق حجاب من الظلام ، وتدقت السيول فى أخاديد الأرض ومساربها لها خريز وجرجرة كأنها تهزأ به وتسخر ، ولم يكن لعبة الدار التى كان واقفا عليها مظلة تعصمه من صوب العارض الهتان فغمر الماء جلده من دون أبراده .

- ترى أكان عمدا مجيء الزوج فى هذه الساعة نكاية بى ونكالا ؟ أخذ الله جميع الأزواج وطهر منهم أديم الأرض !

كان بدء قصة غرامه مع « ناديا » منذ شهر ، ولم يك أبصر زوجها قط وكل ما كان يعرف عنه أنه رجل فرنسى يدعى (بواسو) وأنه كان سمسارا .

تراجع زركوف عن عتبة الدار مسافة قصيرة يخوض الأوحال ويتعثر على مزلقها ثم وقف ونادى « مركبة ، مركبة ! يا حوذى ! يا حوذى » وما من سميع ولا مجيب ، فعاد إلى عتبة الدار ساخطا ضجرا يتلمس طريقه فى الظلام كالأعمى .

- تبأ لى ! لقد صرفت الحوذى بمركبته فمن لى بمركبة فى هذا المكان القفر البلقع فى مثل هذه الساعة ، وقلما توجد فيه المركبات فى رائحة النهار ورونى الضحى ! أية ورطة هذه ، وأى مضيق ومرتطم ! أظن أنه لا مناص من البقاء ههنا حتى الصباح ، ليلة شؤم وساعة نحس ، عسى أن يكون عند الله منها

المخرج . ماذا أصنع بثلث السلة وقد أوشك المطر أن يذيبها ، واحسرتى على
الحلة القشبية ، وعلى الخلاوة والجينة !

وفيما هو ينظر كيف ينجو بنفسه وبالسلة من سواكب الحيا ، إذ تذكر أنه
على كتب منه فى أحد أطراف هذا المصيف ساحة مرقص فيها مظلة لجوقة
الموسيقى .

وسأله نفسه :

- أأبذل مجهودى فألجأ إلى تلك المظلة ؟ وهل فى استطاعتى أن أحمل السلة
إلى هنالك ؟ وإنها لسلة ضخمة يتوء بحملها الجمل البازل والقيط العظيم !! كل
خوفى على الحلة البديعة ، وأما الجينة والخلاوة ففى ذمة الشيطان وعليهما العفاء !
وتناول السلة ولكنه تذكر أنه قبل بلوغه المكان المقصود يكون قد أصابها من
وأكف الزمن ما يعطبها ..

وقال ضاحكا :

- يا لها من كارثة ! ألا ناصر ومعين ! لقد تضافرت على صنوف الخن ،
وتناهبت أنواع المصائب .. ديمة واكفة ، وقررة راجفة ، ونشوة عاصفة ،
ولا بارقة أمل ولا خاطفة ، ليس أمامى سوى أن أقرع الباب ثانية فأعطى السلة
للخادمة دانياشا ثم أذهب إلى مظلة الجوقة الموسيقية فاستدرى بها إلى الصباح .
عمد زركوف إلى باب البيت فدق الجرس برفق ، وبعد دقيقة سمع مواقع
خطوات بالدهليز وأنبعث ضوء من ثقب الباب .
وصاح صوت مذكر أجش فيه لكنه أجنبية :

- من الطارق ؟

قال زركوف فى نفسه :

- الزوج وأيم الله ! لأخترعن رواية ..

ثم إنه صاح بأرفع صوته : « هل هذه دار (زلوخين) ؟ »

- عليك وعلى من أرسلك لعنة الله ، اذهب لا يبعد الله غيرك ، ليس لدينا
هنا سلوشكين ، فى سبيل الشيطان أنت وسلوشكينك .

فارتبك زركوف وألجم فوه فلم يزد على أن تنحنح ثم ارتد خائبا ، وزلقت قدماه فى بركة فامتلاً نعلاه ماء ، فاستشاط غضبا ولكنه مالبث أن ضحك ، وجعلت مخاطرته هذه تزداد على كره الدقائق لذة وإمتاعا وعجبا ، وكان يهتز طربا كلما جعل يذكر ما سوف يكون غذا من إتخافه إخوانه وخلاته بحديث هذه الرحلة الممتعة وحكايته صوت الزوج ولهجته الأجنبية ولكنته الفرنسية ، وصوت حذائه حين امتلاً بالماء ، وجعل يشهق ويذفر وهو لاصق بالثرى ، وما سيكون إزاء ذلك من ضحك سامعيه وسرورهم .

وقال فى نفسه :

- إنما يحزننى شيء واحد ، وهو خوفى على الحلة من التلف ، ولولا ذلك لكنت الآن أغط فى نومى تحت مظلة الموسيقى .

وجلس على السلة ليصونها ، ولكن رداءه ووشاحه وقلنسوته كانت أغزر قطرا وأشد على السلة خطرا من صوب الغمام .

- العياذ بالله !

وهنا بدأ زركوف يشعر بلذغات البرد ووخزاته ، فشرع ينظر إلى نفسه ويفكر فى أمر صحته وسلامته .

- إنى فى موقف لا يكاد يسلم عليه من عادية البرد إنسان ، وما كان من حق نفسى على أن أعرضها للتلف وألقى بها إلى التهلكة ، وماذا على لو أدق جرس الدار كرة أخرى ؟ ومالى خلاف ذلك من حيلة ، ولو طلع على الزوج ثانيا للفتت له قصة وأعطيته الحلة ، فإنه لا طاقة لى بالوقوف ههنا حتى الصباح ، ومهما يكن من الأمر لأدقن الجرس !

ودق الجرس بشدة ومرة فترت سكوت ثم عاود الدق ..

فصاح الصوت الغضوب ولكنه شديدة أجنبية :

- من الطارق ؟

- هل مدام يواسو تسكن هنا ؟

- ويحك ! وماذا تبغى لديها لا أبأ لك ؟

- إن خياطتها المدام (كاتيش) قد أرسلتني إليها بحلتها الجديدة ، واعدرنا يا سيدى على الإبطاء فحالة الجو غير خافية ، ولقد ألحت مدام بواسو أن تصلها الحلة قبل الصباح ، وقد والله خرجت بها قبل غروب الشمس وما عاقتني إلا المطر ، ووعثاء السفر .

فتح الباب ووقف زركوف وجها لوجه إزاء المسيو بواسو ، رجل فى الأربعين ، عادى الشكل والصورة لا روعة له ولا جلال ، ولا أثر من ميزة أو حلية ، له سحنة كسحنة العسكرى وشارب كشاربه ، ولم يكن عليه إلا قميص . واستمر زركوف فى اعتذاراته ، قال :

- يسوءنى جدا أنى أقلقت راحتكم ، ولكن مدام بواسو شددت فى أن تصل إليها الحلة قبل الصباح ، هذا وإنى أخو مدام كاتيش ، وحالة الجو شنعاء ، إحم ، إحم ، و .. و ..

قال بواسو متبرما عابسا ، وتناول السلة من زركوف :

- بلغ أختك تحيتى وثنائى ، زوجى لبث فى انتظار هذه الحلة الجديدة حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، وقد أخبرتني أنه سيجيء بها رجل من قبل الخياطة ...

- وتفضل أيضا بأن تقدم للمدام بواسو هذه الجبنة والحلاوة وباقة الأزهار التى كانت قد تركتها لدى أختى مدام كاتيش .

فتناول بواسو الجبنة والحلاوة والأزهار وجعل يشم هذه ثم هاتيك ثم تلك ، ووقف ينتظر ومرت فترة سكوت طفق زركوف أثناءها يفكر فى نكتة يجعلها ختاماً لهذه الرواية أهزلية ، ولم يفتح الله عليه بشيء . ولبث الفرنسى ينظر إليه ويسائل نفسه ليت شعرى متى يحرك هذا الرجل قدميه للانصراف ؟ وأخيراً همس زركوف كالتلوجع المتشكى :

- أواه من هذا البرد الفظيع ! وحل للركب ، ومطر كأفواه القرب ، وظلام يسد كل مسلك ومذهب ، وقد مضى الخوذى ومالى فى هذه الدجنة من مضطرب ولا مضطرب . فهلا تركتني آوى إلى الدهليز يا سيدى ريشما تقلع السماء ؟ - لا بأس يا سيدى اخلع نعليك ، واتبعنى ، لا بأس لا بأس !

وأغلق الفرنسي الباب وسار به إلى غرفة الجلوس الصغيرة المألوفة ، فرآها زركوف كآخر عهده بها لم يزد عليها سوى زجاجة نبيذ فوق المائدة وصف من الكراسى فى وسط الغرفة مفروش عليه حشية مستطيلة فى منتهى الضيق .

قال بواسو ، ووضع المصباح على المائدة :

- ما أشد البرد ههنا ، لقد وصلت من باريز بالأمس ، فكل بلدة جزت بها ألفيتها دفيئة طيبة الهواء صافية السماء إلا روسياكم هذه ، كلها عواصف وأنواء وأرواح . وذلك البعوض أباده الله ، إن له للذغة كلدغة العقرب أو هى أمض وأنكى !

وأترع بواسو قدحا من النبيذ واحتساه ..

ثم جلس على الحشية وقال :

- لم أنم ليلتى ، وكيف أنام وأنا بين مزعجين : البعوض وحمار ما برح يدق الجرس ويسأل عن مجهول اسمه سلوشكين .

ثم سكت ونكس هامته وكأنما كان ينتظر انقطاع المطر ، ورأى زركوف أنه قد يكون من محاسن الأدب أن يؤنس الرجل بشيء من الحديث فقال له :

- إنك شهدت باريز فى ظرف من أخطر ظروفها ، لقد كان « بولانجيه » يدير دفة السياسة ويصرف أعنة القدر أيام كنت هنالك .

لم يمر الرجل الفرنسي جوابا ولم تبد على وجهه شواهد الإصغاء والفهم .

واستمر زركوف فى حديثه فتكلم عن « جريفيه » و « ديروليد » و « زولا » ولكنه مالبث أن تأكد أن صاحبه لم يكن قط قد سمع بهذه الأسماء من قبل ، والواقع أنه لم يكن يعرف فى باريز سوى بضعة محال تجارية وعمته المدام « بليسيه » وكل ما خلا ذلك كان لديه مجهولا ، وانتهت تلك المحادثة السياسية الأدبية بمضايقة المسيو بواسو وإحراج صدره حتى لجأ إلى زجاجة النبيذ فاحتسى منها قدحا آخر واستلقى على الحشية الضيقة .

قال زركوف فى نفسه ، وتأمل ضيق فراش الرجل وضنك منقلبه :

- إنه لأضيق مجالا وأخطر منزلة من الصراط ، والراقد عليه كالراقد على كف عفريت .

وأغمض الفرنسي أجفانه ولبت ساكن الحركة زهاء ربع ساعة ، ثم ثار إلى قدميه فجأة وحقق في وجه ضيفه بعينين ساهيتين ، وتبين على وجهه القلق وضيق الصدر ثم تناول قدحا ثالثا .

ومهم قائلا ، وحك ذراعا بذراع وساقا بساق :

- أهلك الله هذا البعوض ، ما أخبثه وما ألامه !

ثم ذهب إلى الغرفة المجاورة ...

وسمعه زركوف يتبہ إنسانا نائما ويقول :

- لقد طرقتنا رجل أصهب يحمل إلينا حلة جديدة .

ثم عاد سريعا وأعاد الكرة على زجاجة النيذ ... وقال وهو يتشاءب :

- إن زوجتي لقادمة ، ليس يخفى على غرضك ، أنت تريد تقودا ...

قال زركوف في نفسه :

- أولى لهذه الحادثة أن تنتهى عند هذا الحد ، فما أراها تزداد على الاستمرار

إلا شرا وخطرا ، هذا وقدم « ناديا » الآن مما يثير عجبى ودهشتى ، وعلى أية حال فالواجب أن أتجاهلها تماما .

وسمع خفيف أذيال وانفراج الباب قليلا وأبصر زركوف رأسا مجعدا معروفا لديه مألوفاً في نظره ، بوجنتين وهاجتين وعينين وسنيتين .

وقالت ناديا :

- من القادم من لندن مدام كاتيش ؟

ولكنها لم تكذبصره حتى صاحت صيحة خفيفة وضحكت ودخلت عليهما وقالت :

- أذاك أنت ؟ ولم كل هذا المرح والمرج ، وما معنى هذه الرواية الهزلية ؟ ومالك قد وسخت ثيابك ولوثتها كأنك بعض صبيان المدارس ؟

فاحمر وجه زركوف من شدة الخجل والارتباك ولم يكن ينتظر مثل هذه

المفاجأة من حبيته ناديا ولا سيما أمام زوجها ، ولبت مضطربا لا يدري ماذا يقول ولا أيان ينظر .

وقالت ناديا :

- الآن فهمت معنى حيرتك واضطرابك ، لقد أوجست خيفة من المسيو بواسو ، إذ لم يسبق بينكما تعارف .. هذا زوجي جاك بواسو ، وهذا هو ستيفان اندريفتش ، لقد بلغنى أنك أحضرت حلتى الجديدة ، أشكرك من أعماق قلبي يا صاحبي القديم ، تعال ، إن النعاس يغالبني .. وأنت يا جاك اذهب إلى فراشك أيضا فما أراك إلا متعبا مكدودا بعد رحلتك الشاسعة ..

نظر جاك إلى زركوف متعجبا مندهشا ، ثم هز كتفيه ، وعمد إلى زجاجة النبيذ عابسا مكفهرا ... وهز زركوف كتفيه أيضا ومشى وراء ناديا !

ولما غادر الدار نظر إلى جانب الأفق المربد ، وإلى الطريق الوحلة القدرة ، وقال :

- قدر في قدر ! عجبت للرجل المذهب المثقف لا يزال به الشيطان حتى يؤديه إلى أخرج المواقف .

ثم أخذ يفكر فيما هو طيب وفيما هو خبيث ، وفيما هو صالح وفيما هو طالح ... ولما كان من دأب كل امرئ أوقعته الأقدار في مكروه أن يتذكر معهود لذاته ومحمود مقاماته فيحن شوقا إليها ويلذوب حسرة عليها ، فكذلك قد جعل زركوف يتذكر غرفة مطالعته ومكتبته وتحريراته التي تركها مقتضية مبتورة ويتمنى لو يتاح له عفريت ينقله إلى غرفته المألوفة كالذى نقل إلى سليمان عرش بلقيس قبل أن يرتد إليه طرفه !!

زميلان فى الشتاء

للقصى الروسى أنطون تشيكوف

فى مساء يوم من أيام يوليو كان جماعة من المصيفين النازلين بمنتزهات « هلكوف » ومعظمهم أرباب أسرات يحملون صررا وسلالات وصناديق يتوافدون أفواجا من المحطة إلى المصطاف ، وكلهم باد عليه دلائل التعب والكد والعناء والجوع ، كأن شمس النهار لا تقر بنورها الوضاح أبصارهم وكان زهر البساتين لا يثلج ببهجة غضارته صدورهم .

وكان يسير بين الجماعة « بافيل زيكين » الباشكاتب بإحدى المحاكم .. رجل كهمل طوال مقوس الظهر فى ثياب رخيصة من الكتان يتفضخ جيبته عرقا ، عليه سيما الهم والكآبة .

ونظر إليه رجل فى مثل حاله وهيئته ، عليه سراويل صفراء وقال له :

- أتأتى ههنا إلى مصيفك كل يوم من المدينة ؟

قال زيكين :

- كلا ، ليس كل يوم ، إن زوجتى وابنى مقيمان ههنا ، وأنى أجيئهما مرتين فى الأسبوع أو ثلاثا ، ولأستطيع أكثر من ذلك لضيق أوقاتى ، ولما فى كثرة المجيء من ثقل النفقة »

فقال صاحب السراويل الصفراء متنهدا :

- أجل ، إنما الصعوبة كلها فى ثقل النفقة ، النفقة يا سيدى هى كل البلاء ! ، مركبة من مقر عملك فى المدينة إلى المحطة ، ثم تذكرة السفر ، وثمانها اثنان وأربعون « كوبيك » وجريدة ومجلة تنسلى بها أثناء الرحلة .. ولا مناص من احتساء قدح من الفودكا ، مصروفات تافهة يستصغرها الإنسان ولكنها تصل فى النهاية إلى مبلغ جسيم تصفر من هول الوجوه ، وتقشعر الأبدان ، وعبء فادح

على أعناق الموظفين أمثالنا الذين هم في أشد الحاجة إلى كل دائق وسحتوت من مرتباتهم الضئيلة كما لا يخفى عليك يا سيدى ، وما أنكد عيش الموظف ! .. إذا أنفق درهما في غير وجهه بات شر ليلة يتملعل على الجمر ... نعم يا سيدى لم أنشرف بمعرفة اسمك ... أتقاضى مرتبا سنويا ، ألفى روبيل ، إني باشمهندس ، ومع ذلك أتعاطى التبغ من أردأ الأصناف لضيق ذات يدى ، ولا أستطيع توفير روبيل واحد أشتري به ماء معدنيا وصفه لى الطبيب دواء من الحصوة .

قال زيكي :

— أجل يا سيدى إنها لعيشة تعسة وحياة منغصة وهؤلاء النساء بؤسا لمن ، لا شفقة ولا رقة ولا أدب ولا حياة ولا شعور ، يكلفن الرجل بكل شىء كأنما هو على كل شىء قدير ، أو كأنما بيده مفاتيح كنوز الأرض ، ولم يكفهن كثرة مطالبهن التى لا نهاية لها ، حتى يرغبن الرجل المسكين على الذهاب بهن إلى المصايف ، لا كن ولا كانت المصايف ! .. يرحمنا الله أهذه عيشة ؟ .. كلا إنما هى أشغال شاقة ! .. إنما هى نيران الجحيم ! .. لا راحة ولاطمأنينة ولا قرار ! يعيش أحدنا مشردا حيران كأنه روح ضالة لا معاذ ولا موئل ، فأما فى المدينة فلا أثاث فى المنزل ولا فراش ولا خدم (وقد نقلت هذه كلها إلى المصطاف) لا تجد فى الصباح ما تفضل عليه ولا الخبز والخل ، وتخرج دون أن تشرب الشاي ، وبلا استحمام ، وتجىء هنا إلى المصيف فلا يعنى بك إنسان وقد خرجوا جميعا للنزهة واللهو والسرور ، ثم لن تجد أمامك إلا الغبار والحر والتراب .. تقو .. أمتزوج أنت يا سيدى ؟

قال صاحب السراويل الصفراء ، وتهد من أعماق قلبه :

— نعم يا سيدى .. ثلاثة أولاد ...

— إنها لعيشة نكداء .. ومن العجب العجائب ، أنا لا نزال على قيد الحياة .

وهنا افترق الرجلان ، كل إلى منزله ..

ولما دخل زنكين الدار وجدها قاعا صفصفا ، وألقى بها كمثل سكين الموت ، ولم يسمع سوى طنين البعوض ، حتى إذا وليج غرفة الجلوس ألقى بها ولده « بيتا » صبيا فى السادسة من عمره ، وكان جالسا إلى المائدة يتنفس بصوت عال

يمط شفته السفلى كعادة الأطفال ، مشغلا باقتطاع صورة « ولد اسباتى » من إحدى ورقات اللعب .

وقال الصبى لأبيه دون أن يتحرك أو يلتفت :

- أذاك أنت يا أبت ؟ .. كيف أنت ؟ ..

- كيف أنت يا بنى .. ؟ أين أمك .. ؟

- أمى ؟ لقد ذهبت « مع أولغا » لتؤدى تجربة (بروفة) تمثيل رواية ..

إنهما ستمثلان بعد غد فى حفلة أنس بمنزل إحدى السيدات . وسأذهب معهما ، هكذا قالتا .. أتذهب أنت أيضا معنا ؟

- ومتى ترجع أمك ؟

- لقد قالت إنها ترجع مساء ..

- وأين الخادمة ناتاليا ؟

- أخذتها أمى لتساعدها على ارتداء ثياب التمثيل ، أما كولينا « فقد ذهبت

إلى الغابة لتجيمنا بشيء من الأعشاب ، خبرنى يا أبى لماذا تحمر بطون البعوض عقب لذعها الإنسان ؟

- لا أدرى .. لأنها تمتص دماءنا .. وهكذا ليس بالمنزل أحد ؟

- لا أحد ، أنا ههنا وحدى ..

جلس زيكين على مقعد وشخص يبصره نحو النافذة ..

ثم قال بعد برهة :

- ترى من الذى سيجوز لنا طعامنا ؟

- لا طعام ههنا ، إنهم لم يطبخوا اليوم شيئا البتة ، لقد قالت أمى إنك لن

تحضر اليوم ولذلك لم تشتري شيئا ، هذا وإنها مدعوة هى و « أولغا » لتناول الطعام فى دار السيدة التى ذهبت إليها .

- جزاها الله عنى أكرم الجزاء ! .. وأنت ماذا تأكل ؟

- لقد شربت شيئا من اللبن ، خبرنى يا أبى لماذا يمتص البعوض دماءنا ؟

وأحس زيكين أن سبعا ضاريا ينشب مخالفه فى كبده ، واشتد عليه الكرب

حتى كاد قلبه ينفطر ، وأراد أن يثب من مكانه فيختطف شيئا من متاع البيت ثم يضرب به الأرض فيحطمه ثم يصرخ بأعلى صوته ويسب ويلعن ولكنه تذكر ما أوصاه الطبيب من تحاشي التهيج والاضطراب ، فكظم غيظه وبدأ يصفر ببعض الألحان الشائعة ، ثم ذهب إلى غرفته واستلقى على إحدى أرائكها .. وولج في أودية أفكاره .

مضى على ذلك ثلاث ساعات كاد الجوع أثناءها يمزق أحشائه . وأخيرا سمع وقع أقدام وهرجا ومرجا وصوت غلامه « بيتا » يصيح « أمه ! »
فنهض من مرقده وأطل من فرجة الباب فإذا زوجته « تيانوفنا » تنوّد نشاطا وتتوهج شبابا وصحة عافية كأنها الوردة الناضرة تستصحب امرأة نحيفة شقراء ورجلين مجهولين أحدهما شاب نحيل بشعر مجعد والثاني قصير حليق الوجه كالمثل .

- ناتاليا أجهزى الشاى ، لقد بلغنى أن زيكين قد أتى ، زيكين أين أنت ؟ ..
عم مساء يا زيكين !
وهرعت إليه مسرعة :

- وكذلك قد جئت يا زيكين ، إنى فى غاية السرور والفرح ... لقد قدم معى اثنان من هواة فن التمثيل ... هلم سأقدم بعضكم إلى بعض ... هذا الطويل « كرومسولوف » إنه يجيد الغناء ، والثانى القصير اسمه « سمركالوف » وهو يجيد التمثيل ، إنى فى غاية التعب مكدودة منهوكة القوى .. لقد أجرينا بروفة الرواية . وقد نجحت نجاحا باهرا ، نحن نمثل رواية « العاشق الفقير » ورواية « أنا فى انتظاره » ورواية « الأسد والشمس » وسيكون التمثيل بعد غد .
فقال زيكين :

- ولماذا أحضرت معك هذين الرجلين ؟ ..
- لقد اضطررت إلى ذلك اضطرارا لأن البروفة لم تتم ، ولا بد من استئناف العمل عقب الشاى ، نعم لا بد من تمثيل أدوارنا ومن إجراء بعض التمرينات الغنائية ... لا بد أن أغنى ألحانا معينة مع « كرومسولوف » ولكنى قد نسيت شيئا مهما جدا .. حبيبى زيكين ! .. ابعث الخادمة ناتاليا تشتري لنا سردينا . ويضا

وزيتونا وجبنة رومى ومربة يرتقال وفودكا وأشياء أخرى ، فربما أقام الضيفان إلى ميعاد العشاء ... آه ! .. ما أشد ما أعانى من التعب والكد والإعياء ! .

- ليس معنى فلوس ..

- لا تقل ذلك يا حبيبى ! .. أتريد أن تفضحننا أمام الرجلين ؟ .. أتريد أن تدمى وجنتى خجلا ؟ .. وتغلبت المرأة على الرجل فأجاب طلبها ، وسرعان ما عادت ناتاليا بالسردين والبيض والفودكا .. الخ ..

وبعد أن تناول زيكين شبعه وريه من الزاد انكفأ إلى مضجعه واستلقى على فراشه .

أما زوجته وصاحبته وضييفاها فلبثوا مدة طويلة فى معالجة التمثيل والغناء . وشرد النوم عن مقلة زيكين صوت كرومسلوف المنطلق من خيشومه بأقبح خنة ، وصرخات « سمركالوف » العبقريّة الجنونية . ثم أعقب ذلك محادثة طويلة تتخللها ضحكات « أولغا » المزعجة ، وكان « سمركالوف » يتكلم عن الفن بحماسة « جوت » وفلسفة « أرسطاليس » .

وبعد ذلك سمع رنين الصحون وصليل الصحاف إعدادا لطعام العشاء ، وسمع « زيكين » من خلال نعاسه أصوات الجماعة يحضون « سمركالوف » على إلقاء مونولوج « المرأة التى أجرت » وسمع سمركالوف بعد طول تمنع وإباء يشرع فى إلقاء المونولوج ، فانبهر على صدره ويكسى ويتعجب ، ثم يضحك ضحكة المجنون .. حتى انتفض « زيكين » فى فراشه وارتعدت فرائصه وانكمش تحت اللحاف وخبأ رأسه فى ثايبا المخدة .

وبعد ساعة من ذلك سمع صوت زوجته تخاطب الضيفين قائلة :

- أين تذهبان الآن ؟ .. المسافة إلى المدينة بعيدة جدا والظلام حالك ... لماذا لا تبيتان عندنا ؟ .. أما كرومسلوف « فينام ههنا فى غرفة الجلوس على الكنبه ، وأنت يا سمركالوف » تنام فى فراش ولدنا بيتا « .. و« بيتا » ينام فى مكتب زوجى ... لا تذهبا ، إني ألح عليكما أن تبقيا !

ولما دقت الساعة الثالثة وقد خيم السكون على أرجاء المنزل انفتح باب غرفة

زيكين ودخلت عليه زوجته فهمست قائلة :

- زيكين ... أنت نائم ؟

- لا ... لم أتم ... ولم هذا السؤال ؟ وماذا تريدني مني ؟

- اذهب إلى غرفة المكتب يا حبيبي إن أولغا ستنام ههنا في فراشك . اذهب يا حبيبي لقد أردتها على النوم في المكتب ولكنها أبت ، وقالت إنها تخاف أن تنام وحدها ، فهي ستنام معي ههنا ، انهض ، قم بسرعة ! .. لا تخجلني مع صاحبتى يا حبيبي !

فنهض زيكين وألقى ثوبه على كتفيه وأخذ مخدته تحت إبطه وتسلسل متعبا منهوك القوى حتى وصل إلى غرفة المكتب ، وجعل يتحسس طريقه إلى الكنية ، ثم أشعل كبريتا فأبصر ابنه بيتا راقدا ليس بنائم ينظر إليه بعينين مفتوحتين وقال :
- خبرنى يا أبت ، ما بال البعوض لا ينام بالليل ؟

- لأن ... لأن ... لأنى أنا وأنت لا نحب ولا نشتهي ولا لزوم لنا ولا حاجة إلينا ، وقد ضاق عنا المنزل حتى لا مرقد لنا فيه ، فقد لفظنا لفظا .
وبعد هنيهة لبس زيكين ثيابه وخرج إلى العراء ، ليستششق نفسا من الهواء ، وبينما هو يفكر فى همومه وأشجائه ، ارتفع له من منعطف الطريق شبح رجل فقال فى نفسه :

- ما أراه إلا الخفير يدور دورته .

ولكنه لما دنا من الشبح وتأمله عرف فيه زميله صاحب السراويل الصفراء فقال له :

- ما بالك لم تنم ، وما الذى أسهرك حتى الآن ؟

فقال أصفر السراويل وتنهّد :

- لم أستطع النوم ، إنى أستمتع بجمال الطبيعة ... لقد طرقتنا الليلة ضيوف كرام ، حماتى وبناتها الأربع وبنات أختها الثلاث ، لقد جئن فى قطار الليل ، فتيات فى أقصى منتهى الحسن والملاحة ، ماشعت من وسامة وجمال ، ورقة ودلال ، لقد ملأنى منظرهن فرحة وسرورا ، ولكن أواه من هذه الرطوبة ، إنها

لنحز في عظامي حزا ، وأنت أيضا خرجت تستمتع بجمال الطبيعة مثل ؟
فدمدم زيكين قائلا :

— أجل يا سيدى ، ولكن خبرنى ، هل تعرف خانا أو فندقا أو وكالة بالقرب
من مهنا ؟

فرفع أصفر السراويل طرفه إلى السماء وأمعن فى التفكير والذكرى .

تحفة فنية

للقصصى الروسى أنطون تشيكوف

دخل الغلام « ساشا سمرفوف » وحيد أمه ذات يوم على الطبيب « كوشلوكوف » فى غرفته يتأبط شيئا ملفوفا فى منديل .

فرحب به الطبيب قائلا :

- أذاك أنت يا عزيزى ؟ .. كيف حالك وكيف صحتك ؟ .. ما عندك لى من الأنباء السارة ؟

فوضع الغلام يده على صدره وقال بصوت مضطرب :

- أمى تقرئك السلام ، وتهديك عاطر تحياتها وتثنى عليك أجزل الثناء ..
إبنى وحيد أمى ، ولقد أنقذتنى لها من قبضة المنية وقد أنشبت فى مقاتلى أظفارها ،
ولسنا والله ندرى كيف نجازيك وبأى شىء نكافئك .

قال الطبيب وقد سره مقال الغلام :

- دعك من هذا ، فتالله ما أتيت بمعجزة وما صنعت إلا الواجب وما كان يصنعه أى طبيب سوى فى مركزى .

قال الغلام :

- إبنى وحيد أمى ... وإنا معشر فقراء لا نستطيع أن نوفيك حقتك من الجزاء
ومن ثم ترانا فى غاية الخجل ، ولكن أمى وأنا ... وحيد أمى ... نرجوك أشد
الرجاء أن تتقبل منا كآية على مزيد شكرنا وجزيل حمدنا .. هذا الشىء الذى
أتأبطه ... وهو تحفة من أنفوس تحف الفن وملحة من أعجب ملح الصناعة ...
شمعدان من البرونز ... آية من آيات البراعة والإبداع !

قال الطبيب وقطب حاجبيه : « ولم كل هذه المشقة والمؤونة ؟ ولماذا تتجشمون
مثل هذا العناء من أجل ؟ » .

قال الغلام :

- كلا يا سيدى لا ترفض هديتنا ، فإن فى رفضك أشد البلاء على وعلى والدتى ، ستجرح شعورنا برفضك .

ثم شرع فى فك اللغافة وقال :

- تحفة أثرية من البرونز ... لقد خلفها لنا والدى المرحوم وقد حفظناها إلى اليوم تذكارا ثمينا ، وقد كان من دأب أبى رحمه الله وبلبل ثراه أن يشتري نفائس الأثرياء ثم يبيعها لأهل الفن وهواته ... ولا نزال أنا ووالدتى - نزاول هذه التجارة .

وأبرز الغلام « ساشا » الهدية ووضعها برزانة وتؤدة على المائدة .

وكانت شمعدانا من البرونز متقن الصنعة عجيب الشكل ذا قاعدة عريضة يرتكز عليها دميّتان مؤنثتان عاريتان ، تحملان الشمعدان على أكتافهما ، وقد وقفنا وقفة يخجل القلم أن يصورها .

أطال الطبيب النظر إلى تلك التحفة ، ثم حك قفاه وتنحى حائرا مضطربا ، وقال :

- لا أنكر أنها ملحّة بدیعة ، ولكن .. ماذا أقول ، وكيف أعبر عما فى نفسى ؟ .. إنها .. إجم .. إنها ليست مما ينبغى أن يحفظ فى منازل أرباب الأسر والبنين .. إنها خارجة عن حد اللياقة منافية للحشمة والوقار ..

قال الغلام :

- ماذا تعنى بقولك هذا ؟

قال الطبيب :

- إن إبليس نفسه لو شاء يوما أن يبدع فتنة يضل بها عباد الله ما استطاع أن يضع شرا من هذا ! ... ولو بقيت هذه الدمية لدى لدنست بها أرجاء الدار ولو ثارت أركانها .. خذها واكفنى شرها .

قال الغلام وقد ساءه مقال الطبيب :

- إنك لتنظر إلى الفن نظرة منكرة أيها الطبيب وما هكذا يتأمل عشاق الفن

نفائسه وملحه ، أعد عليها نظرة وتأمل ما قد أودعت من أسرار الجمال والروعة ١ .. فتالله ما تأملها فنان ولا عاشق فن إلا ملأت عينه حسنا وفؤاده هيبه وجلالا وشغلتته عن مهام أعماله وأنسته أهله وخلاته وأذهلته عن كل شيء فى هذا العالم الأرضى الحقير السافل ، وأذكرته جنات الخلد وما بها من لذات ومباهج ! .. تأملها أيها الطبيب ، أى روعة وجلال ، وبهجة وجمال ، إنها لتوشك أن تدب فيها الحياة فتجيش وتتكلم .

قال الطبيب :

- إني أفهم كل ذلك جيدا يا بنى العزيز ، ولكنك قد تعرف أنى رب أسرة وأن أولادى لا يزالون يترددون على هذه الغرفة .

قال الغلام :

- بديهي أنك إن نظرت إليها نظرة الجمهور السخيفة كنت خليقا أن تصفها بهذه الصفات السخيفة ، ولكنى أيها المهذب أربأ بك عن منزلة الجمهور من الغباوة والسخافة وأسألك باسم الفن والجمال أن تترفع عن طبقة العامة والغوغاء. وأذكرك ما ينتاب والدتى من حرقه الكمد والجوى إن أنت رفضت هديتها ، ولا يعزبن عن بالك أيها الطبيب أنى وحيد أُمى وأنتك منقذ حياتى .. ولذلك ترانا نقدم إليك أنفس ما لدينا .. وكل ما يسوءنى أيها الطبيب أن هذه التحفة قد كان لها نظيرة عندنا ولكننا بعناها منذ حين ، وكنت أود أن أهدي إليك الزوج جميعا .

- أشكرك يا عزيزى ... بلغ أملك أزكى تحياتى ، ولكن - اذكر - ريرعاك الله - أن أولادى بنين وبنات لا يزالون يترددون على هذه الحجرة ، وأن السيدات من جميع الطبقات يأتين ههنا ... ولكن ماذا أصنع ؟ اتركها مكانها على المائدة ١ فلا فائدة فى مناقشتك وقد أعجزنى إقناعك .

قال الغلام :

- أتريد إقناعى بالباطل ؟ ضع الشمعدان ههنا بجانب المرأة فإنه أليق موضع به ، شد ما والله يحزننى أنى لم آتاك بالشمعدان الآخر مع هذا ، شكرا لك يا

سيدى ووداعا .

ولما انصرف الغلام « ساشا » أقبل الطبيب على الشمعدان يتأمله ثم حك
قفاه وقال فى نفسه :

- لا شك إنه لشىء بديع قيم، ومن الحماسة أن أرميه ولكنى لأرى سبيلا
إلى إبقائه ههنا... واحيرتى!... هذه معضلة أية معضلة ، فلمن أقدمه هدية؟
وبعد طول تفكير وتدير تذكر صديقه الحميم المحامى يوهوف ، وكان للمحامى
المذكور أفضال جزيلة عليه وأياد بيضاء.
فقال الطبيب :

- ما أصوب هذا رأى ، إن صديقى المحامى ما زال يرفض ما أعرض عليه
من الأجر جزاء خدماته العديدة ، فلأقدمن إليه هذه التحفة النفيسة هدية منى
فأكون قد وفيت من الجزاء بعض حقه ، هذا وإنه أعزب ومن المتساهلين فى أمر
الوقار والحشمة ، فسوف يسر بهذه الهدية .
وعلى ذلك ليس رداءه وبقعته وحمل الشمعدان ومضى لساعته إلى صديقه
المحامى « يوهوف » .
ولما قابله بداره قال له :

- كيف حالك يا صديقى لقد جئتكَ زائرا ... وشاكرا حسن صنعك وجميل
الأثك ... وأراك لا تقبل منى أجرا من النقد ... فلا أقل من أن تتقبل منى هذه
الهدية ... انظر إليها ، إنها لآية من آيات الفن ، خليقة والله أن تزدان بها قصور
القياصرة !

فلما أبصر « الشمعدان » كاد يطير فرحا وقال متهللا ضاحكا .

- ما أبرعها ملحمة ! لله باربيها ومنشئها ! كيف تخيل ذلك الشكل المطرب
المرقص ! وتلك الوقفة المحركة المثيرة ! ما أعجب وما أغرب ! وما أحسن وما أفتن !
أنى لك هذا الذخر النفيس والكنز الثمين ؟

وبعدما صب عليه هذا السيل الجارف من كلمات الإعجاب والطرب ،
صوب نظرة وجلة نحو باب الحرم وقال لصاحبه الطبيب :

- وبعد كل ذلك لا أرى بدا يا صديقي من أن تحمل معك هديتك ...
فلا أستطيع والله قبولها ...

فصاح الطبيب مندهشا :

- ولماذا يا صديقي ؟

قال المحامي :

- تسألني لماذا ؟ ... لأن والدتي كثيرا ما تجيء ههنا ، وكذلك لا تنس
أرباب القضايا ، بل إنني لأخجل أن يراها خدامي .

قال الطبيب :

- دعك من هذه السخافة ، أترفض مثل هذه الملحة وإنها لمن أبدع ما صور
المصورون ؟ .. أنت والله أكيس من ذلك .

قال المحامي :

- أما لو استطاع الإنسان أن يغطيها بالجيس أو يسترها بورق التين !

لم يطل الطبيب المناقشة ولكنه خلف الشمعدان عند صاحبه المحامي وانطلق
فرحا مسرورا لتخلصه من تلك الهدية المربكة ، ولما انصرف الطبيب قال المحامي
في نفسه :

- إنها لتحفة بديعة بلا أدنى شك ، ومن البلية أن يرميها الإنسان .. كما أن
الاحتفاظ بها بلية أعظم ! فليس أصوب من إهدائها إلى أحد الإخوان ... ولسوف
أذهب بها الليلة إلى « ساشكين » الممثل الكوميدي فإنه مولع بمثل هذه الأشياء .

وفي المساء حمل المحامي الشمعدان إلى دار التمثيل ودخل به على الممثل
الكوميدي « ساشكين » في غرفته فقدمه إليه ، وجعل جميع الممثلين والممثلات
وكثير غيرهم يترددون على غرفة الممثل طول الليل يتفرجون على الشمعدان
ويعجبون به ويعجبون منه ، ويملأون فراغ المكان بصيحات الطرب والضحك ،
وكلما اقتربت من باب الغرفة إحدى الممثلات ، فاستأذنت في الدخول صاح
بها الممثل من الداخل : « كلا ! كلا ! .. لا تدخل فإني عريان » معرضا
بالدميتين العاريتين .

ولما انتهى الكوميدي من تمثيل الرواية نظر إلى الشمعدان وهز كتفه ويديه وقال :

- ماذا أصنع بهذه اللعبة الفظيعة ؟ .. إنى أسكن بين أناس أشراف محترمين ولا تزال الكرائم والعقائل من ربات الحجال يزرننى ، وإن من الفضيحة أن أعرض على أبصارهن مثل هذا المنظر المخجل ... وأمالو كانت صورة فوتوغرافية تنشر وتطوى وتبرز وتحجب حسب مشيئة الإنسان !!

فقال له المزين الذى كان يساعده إذ ذاك على نضو ملابس المسرح فى غرفته الخاصة :

- أولى لك أن تبعها ، إنى أعرف قريبا من ههنا امرأة مسنة تنجر فى أمثال هذه التحف والأثريات ... فاذهب متى شئت وسل عن مدام « سميرنوف » .. فما من أحد بذلك الحى إلا يعرفها ..
وقد عمل الممثل بنصيحة مزيه ...

بعد يومين من ذلك كان الطبيب جالسا فى مكتبه كعادته ، يده على جبينه يفكر تفكيرا عميقا فى أحماض المعدة ، وإنه لكذلك إذ انفتح الباب فجأة واندفع منه الغلام « ساشا » كالقنبلة أو « كجلمود صخر حطه السيل من عل » تتلألأ على صفحة محياه ابتسامة مشرقة ويقبض السرور من جميع جوارحه .

وصاح بصوت مبهور :

- أيضا الطبيب ، إنك لن تستطيع أن تدرك مبلغ سرورنا وفرحتنا ! فمن حسن حظك أنا عثرنا على فردة الشمعدان أخت التى عندك ، وهكذا قد أصبح الزوج فى حوزتك ، إن أمى لفى أقصى غاية من الغبطة والسعادة .. إنى وحيد أمى أيها الطبيب ولقد نجيتنى لها من الموت ...

قال هذا ووضع الشمعدان أمام الطبيب على المائدة .

ففتح الطبيب فمه يحاول أن يقول شيئا ، ولكنه لم يقل شيئا ، لقد ارتج عليه فعجز عن النطق البتة !

ورقة اليانصيب

للقصصى الروسى أنطون تشيكوف

كان « إيفان ديمترى » رجلا من الطبقة الوسطى يبلغ إيراده السنوى ألف روبيل يعيش منها عيشة هنيئة مطمئنة ، وقد جلس ذات عشية خالى القلب ناعم البال إلى عشائه ، ولما فرغ منه أقبل يقرأ الجريدة .

وقالت له امرأته وهى تنظف المائدة من فتات الطعام :
- لقد نسيت أن أقرأ الجريدة اليوم ، فألق بها نظرة علك تجد كشف أوراق اليانصيب المسحوبة .

قال « إيفان ديمترى » :

- نعم ها هو الكشف ، ولكن خبرينى ، ألم يتته سحب ورقتك قبل اليوم ؟
... كلا ! إنها لم تسحب بعد .

- مارقمها ؟

- مجموعة ٩٤٩٩ - رقم ٢٦

- طيب ! سأنتظر ... ٩٤٩٩ - رقم ٢٦

كان « إيفان ديمترى » ضعيف الأمل والثقة والعقيدة فى أوراق اليانصيب ولم يكن قط ليجيب سؤال زوجته فينظر فى كشوف تلك الأوراق ، لولا أنه كان إذ ذاك فى فراغ من العمل لا يدرى ماذا يصنع وكيف يقتل الوقت ، ويدفع عن نفسه سامة الكسل وملاله ولولا أن الجريدة كانت منشورة الصفحات أمامه ، فأمر أصبعه على أنهار أرقام اليانصيب الراححة ، وإذا قد صافح بصره فجأة رقم المجموعة آف الذكر ، وهو ٩٤٩٩ ، واضحا جليا كأنما يسخر من شكله ويهزأ من سوء ظنه وارتياحه ، (هذا رقم المجموعة) ، لم يتمهل الرجل لفرط دهشة السرور حتى ينتظر أيضا رقم الورقة ذاتها فقد أذهله الفرح وطارت صدمة النبأ

العظيم بعقله ، فصاح « يا للعجب العجاب ! ٩٩٤٩١ وفي حلم أنا أم يقظة ؟ »
لم يكذب الرجل يصدق عينيه ، فأسقط الجريدة على ركبتيه ، ولم يتم مهمته
بالبحث عن رقم الورقة ذاتها ، وقد أحس إذ ذاك أن شؤبوبا (دشا) من الماء
البارد قد صب عليه صبا ، وشملت قشعريرة لها في عروقه ديب مروع مروح
أليم مستلذ .

فقال بصوت أجوف مبجوح :

— ماشا ! .. حبيتي ! .. هاك رقم ٩٤٩٩ ! ..

فتأملت المرأة وجهه المضطرب المروع المدعور ، فأيقنت أنه ليس يمزح .
فقال مستفسرة وقد أفرطت بها الدهشة وعلا وجهها الشحوب وأسقطت
غطاء المائدة على أرض الغرفة :

— ٩٤٩٩ ؟

— نعم ، نعم ، إنه مرقوم بالجريدة بلا أدنى ارتياب .

— رقم الورقة ، هو هناك أيضا ، أيضا ، أظنه هناك ... لاشك أنه هناك ،
ولكن انتظري ، انتظري قليلا ، تهلى رويدا ، دعيني أتذكر ! ... كلا ، كلا ،
لم أنظر رقم الورقة ، وعلى أية حال فإن رقم المجموعة موجود هناك ، ٩٤٩٩ ،
وعلى أية حال ، على أية حال ، أنت فاهمة ... فاهمة ...

ونظر الرجل إلى زوجته وابتسم ابتسامة عريضة بلهاء كابتسامة الرضيع عندما
تعرض على ناظره شيئا بهيج اللون زاهيا ، وكذلك ابتسمت زوجته ، لقد سرها
— كما سره — أنه اقتصر على رؤية رقم المجموعة ، ولم يحاول البحث عن رقم
الورقة ذاتها ، وسر ذلك هو أن ملاحظة الإنسان نفسه وتعليلها بالأمانى المحتملة
الحصول ، لذة يجيش لها الصدر وتخفق الأحشاء .

وقال إيفان ديمتري بعد سكتة طويلة :

— إنه رقم مجموعتنا ، فمن المحتمل جدا أن نكون قد ربخنا ، إنه احتمال
فقط ، ولكنه شيء يذكر . قالت زوجته :

— هلم وانظر رقم الورقة ذاتها .

- انتظري قليلا ! دعينا في فترة هذا الشك اللذيذ برهة ، جعلت فداك لماذا تستعجلين علينا ضياع الأمل وخيبة الرجاء ، وما في ذاك من حسرة وعناء ، وكربة وبلاء .

دعينا برهة نستروح نسيم الأمل غضا نديا ونحتسى قدح المنى هنيئا شهيا :
منى إن تكن حقاً تكن أحسن المنى

والإ فقد عشنا بها زمنا رغدا

هذه الورقة تريح خمسة وسبعين ألف روبيل ، خمسة وسبعين ألف روبيل ! أنا لا أسمى مثل هذا المبلغ ربعا ولا جائزة ، بل أسمىه الثروة العظيمة والعز والجاه العريض ، والعظمة والأبهة . أسمىه القدرة والسلطان والقوة التي لا تمرد ولا تنحصر ! .. إله السموات والأرض ، ماذا تكون الحال إذا كنا قد ربنا الورقة حقا ؟

وشرع الزوج والزوجة يضحكان ، ويحدق أحدهما في وجه الآخر صامتين وقد حيرهما وأذهلهما احتمال الفوز والغنيمة ، لم يكونا إذ ذاك يستطيعان أن يقولوا أو يتصورا ماذا كانا يصنعان بذلك المبلغ الضخم ولا ماذا يشتريان به من الأمتعة ويقتنيان من التحف والنفائس ولا أين يتوجهان به وأيان يذهبان ، بل وكل أفكارهما ومشاعرهما كانت منحصرة في رقم المبلغ ، ذلك الرقم الطويل الجرار ٥٧٠٠٠ ، أما نوع السعادة ذاتها وماهية النعيم المنتظر من المبلغ الجسيم فذلك ما لم يكونا لiestطيعا أن يصورا ل نفسيهما في عالم الخيال .

وجعل إيفان ديمتري والورقة في يده يحجب أنحاء الحجرة غاديا رائحا مقبلا مدبرا ، حتى إذا ما أفاق من تلك الصدمة المباغتة ، شرع يتخيل ويتصور ، ويرسل خياله في ميادين الأمانى والأحلام .

قال :

- لطفك اللهم وحنانك ! وماذا تكون الحال إذا كنا بالفعل قد ربنا الورقة ! لاشك سنعيش عيشة أخرى ، لن يكون ذلك إلا انقلابا في حياتنا وثورة ، بل عصرا بديعا وعهدا جديدا ، إن الورقة ورقتك أنت يا ماشا ، ولو أنها كانت ورقتي لكان أول ما أصنع هو إنفاق خمسة وعشرين ألف روبيل في اقتناء أملاك

جوهرية حقيقية ، فى شكل ضياع وعقار ، ثم عشرة آلاف فى قضاء حاجاتنا الضرورية ومطالبنا المستعجلة ... دفع الأجور وتسديد الديون ، وفرش المنزل ، أبسطة فارسية وسجاجيد عجمية ، و « شيلان كشميرى » وآنية صينية ولعب يابانية ، وهلم جرا ... والبقية - أربعون ألف روبيل - أضعها فى البنك وأخذ عليها أرباحا .

قالت امرأته :

- نعم ، نعم قبل كل شيء ، عزبة أو عمارة ! ذلك أهم شيء ، ذلك الغنى واليسر والجاه والسلطان ، فأما ما تذكر من أمر الشيلان الكشميرى والملاعق الصينية والعرائس اليابانية - فهذا - سلم الله عقلك يجرى وحده ، من تلقاء ذاته .

وهبطت على أحد المقاعد تشهق من شدة الاضطراب .

قال الرجل :

- أجل عزبة ، أجل ، فى إقليم القرم مثلا وسط بساتينه اليابانة ومروجه الخضراء ، وإن تكن عمارة .. أقول إن كنت تؤثرين أن تكون عمارة ..

- دعك من العمارة ... العزبة أجل وأفخم ... فأول مزاياها أنها توفر علينا نفقات استعجار « فيلا » بأحد المصايف ، أضف إلى ذلك أن ريعها يجرى هنيئا مربيا ، لا يقل من بركته ما تستلزمه العمارات من الصيانة والترميمات وما يفقد من أجور العمارات جزاء خلوها من السكان وتخفيض أجور المنازل والدور ، وكم للعمارات خلاف ذلك من آفة قد برأ الله منها العزب وأربابها .

وتسارعت الصور والخيالات على خاطر الرجل ، من كل صورة بهجة وخيال بديع ، وفى جميع هذه الصور والخيالات كان يرى نفسه مهنا ممتعا ، مملوء البطن بالكستلية والبوفيك ، وبالأوز والبط والدجاج ، وبالكنافة والقطائف ، وبالعصيدة وسد الحنك ، ثم يرى نفسه رافلا فى أبهى الحلل والمطارف ، المزركشة بالقصب ، وبالترتر وبالتلى ، مزدانا بشتى الزخارف ، الكرافاتات (ثمن الواحد خمسون زويلا ، مما لم يره قط إلا معروضا فى الفاترينات) وساعة من الذهب من فئة الألف روبيل مما لا يليسه إلا البرنسات والدوقات والبارونات ، بسلسلة ذهبية

أَتَقْلُ من « رشمة » حصان ، ودبوس من الماس للكرافته ، وعلبة لفوتوغرافه بالسلسلة ، وخواتم من زمرد وماس وفيروزج وياقوت ، آمنة مطمئنا مسلما في يده معافى مزاجه وبنيته ، دافعا بل حران ! ثم يرى نفسه بعد تناول الشورية المثلجة (حساء الصيف عند الأمراء) يضطجع لدى باب مصطفىه على الرمل الساخن بحفاة جدول فياض ، أو بالحديقة في ظلال الياسمين ... ثم يرى ابنته وابنه الصغيرين يذبان على الرمل من حوله يحفران الثرى أو يقنصان الفراش وأبا قردان ، ويرى نفسه يزر جفنيه يلاعب رأسه النعاس ، وباله من كل هم فارغ ، وذهنه من كل فكر خلاء ، إلا فكرة واحدة ، وهو أن يقدم استقائه للتو واللحظة إلى أولى الأمر فلا ينظر أبدا الدهر في وجوه الموظفين والرؤساء - ثم يرى نفسه قد مل القعود فينهض إلى الحقل أو إلى الغابة فيجمع أضغاثا من الجرجير والكرنب والكرفس والقرنبيط ، أو يرقب الفلاحين يصطادون الأسماك في الشباك ، حتى إذا غابت الشمس تناول صابونا وبشكيرا وذهب إلى « كايين » الحمام حيث يتجرد من ثيابه على هيئة منه وعلى مهل ، ثم يحك صدره العريان بأضافره ثم ينغمس في الجدول ولا يلبث أن يبصر تحت جلدة الماء المسردة المرقشة صغار السمك تتوثب وتتسزى ، وأعشاب الماء الخضراء تهز رؤوسها وقارا ، وما بعد الحمام - أمتك الله - إلا الشاي بالقشطة ، والسحلب باللبن ، والخبز « المقمر » بالزبدة ، والبسطة والبسكوت الخ ... وبالليل النزهة في الجنان ، أو زيارة الجيران .

- نعم .. نعم ، ما ألد أن يملك الإنسان ضيعة ! هكذا قال الرجل في أحلامه يخاطب زوجته .

- نعم .. نعم ، ما ألد الضيعة ، وهكذا قالت له زوجته في أحلامها التي كانت تماثل أحلامه حذوك القلدة بالقلدة .

ثم إن « إيفان ديمتری شرع بعد ذلك يصور لنفسه الخريف وأنداءه ، ومزنه وأتواءه ، ثم الشتاء وزمهريره ، وغيمه وصبيره ، ووكف ثلوجه وضريه ، وعصف إعصاره وهوبه ، وكسوف نهاره وفرط شحوبه ، وظلماته ، وحلكاته ، ومزلقه ، وزحلقه ، وضيق مذاهبه ، وكثرة معاطبه ، وخرج مسالكه ، وقحم مهالكه ،

وانقباض الصدور فيه والأنفس ، وكدر المزاج ، وتولد الحس ، وتقلص البدن وانكماشه ، وظلمة الروح وإيحاشه ، وسامة المرء فيه وقلة إنباسه ، وسجته بين جدران بيته واحتباسه ، وقال فى نفسه « هنالك فى الشتاء المظلم الموحش تظهر فائدة الخمسة و سبعين ألف روبيل ، فبفضلها يفر المرء من كلب الشتاء ، إلى الحار الدفء من الأنحاء » .

ثم التفت إلى زوجته فقال :

- سأرحل فى الشتاء إلى بعض المشاتى بلا شك ، يا مارتا ؟

وأقبل يتخيل أى لذة هنالك فى الرحيل شتاء إلى الأقطار الجنوبية الدافئة ، كساحل فرنسا على بحر الروم (الريفيرا) أو أرخبيل اليونان أو قبرص أو أفريقيش أو الهند أو أرض الفراعنة .

وقالت امرأته :

- وأنا أيضا سأرحل بلا شك إلى الخارج ، ولكن ابحث لنا عن رقم الورقة .

قال إيفان ديمترى :

- مهلا ، مهلا ، انتظرى قليلا .

ثم شرع يطوف فى أرجاء الحجرة جيئة وذهابا ، وقال فى نفسه : « وماذا تكون الحال إذا أصرت امرأته على مصاحبته فى تلك الرحلة الشتوية ، أما إنه لأمفر له من استصحابها ، وفى ذلك البلية والمصيبة ، لانزاع فى أن السياحة لذيدة ولكن ليس مع الزوجة - تلك الرقيب اليقظ الشديد والديديان المنقص ، ومن حق السياحة أن لا تكون إلا مع الخليعات الماجنات من النساء ذوات الظرف والأنس واللهو والدعابة ، نهازات فرص النعيم ، ومختلسات فلتات الحظ ، أما مع ربات البيوت وحاملات الهموم من النساء ، أولئك اللاتى لا يزلن يكدرن عليك صفو السياحة بذكرهن الأولاد وحوائجهم وعللهم وأمراضهم ، والبيت وذخيرته وخزينته ، وكلما أخرجن من جيهن روبيلا للنفقة اضطربن وارتعشن ورجفت أيديهن بالروبل شحا ولؤما كأنهن يجدن بأرواحهن ، ثم يتنهذن حسرة وتكاد تدمع أعينهن - فكلا وألف كلا ! الموت ولا السياحة مع أمثال أولئك ! ثم إن إيفان ديمترى تخيل زوجته أثناء السياحة المهومة جالسة معه فى

قطار السكة الحديدية وسط طائفة عديدة من الصرر والأكياس والقفف والزكائب، تشكو رجاء القطار ، ونفقات الأسفار ، وتخيل ما هو مرغم أن يكابده في كل محطة من الجرى إلى « البوفيه » لجلب الماء الساخن والساندوتش لزوجه ، وهو لا يحب الساندوتش ، وتوق نفسه إلى اللحم والسمك والنيذ ومائدة حافلة، ولكن زوجته أشح وأبخل من أن تنيله ذلك . وقال فى نفسه ونظر إلى زوجته :

« سبكى والله وتنتحب وتنصب مناحة ومأتما على كل روييل يفلت من يدها المغلوله ولاجرم ، فورقة اليا نصيب ورقتها ، والغنيمة غنيمتها ، والثروة ثروتها ، ومالى عندها حق ولا دين ولا ميراث ، وكل امرىء فى ماله طليق ، ولكن بعدا لها وسحقا ، ماذا - أخزأها الله تبغى من السفر ؟ ترى أتفهم معنى السياحة أو تذوق ملاذها ومباهجها ؟ .. كلا ، هى أغبى من ذلك واكتف ذهنا وأسقم ذوقا ، وسيان عندها الحل والارتحال والمقام والتجوال ، ولكنها تريد مضايقتى ولا تجد فى غير ذلك لها لذة ، وأكبر ظنى أنها ستحبسنى فى كل مكان تحله أثناء السياحة وتجلسنى أمامها تنظر إلى وأنظر إليها وعلى الدنيا السلام ، وكذلك أنظر من سياحتى الهنيئة فى سجن متنقل ، هى سجانة وديدبانة ، وهكذا السياحات وهكذا الأسفار ، وهكذا التعيم والمتاع واللذة ! .. يحسبنى الناس قد سحت فى أقطار الأرض ، وما كانت سياحتى إلا فى أقطار وجهها ، وحبذا وجهها . وهنا لأول وهلة خيل إليه أن امرأته قد كبرت وذهب كل أثر من جمالها وأصبحت ككأى امرأة عادية ليس بها أدنى مسحة من ملاحه ، وخيل إليه أيضا أنها تقوح منها رائحة المطبخ والقلايات والبرم ، بينما هو لا يزال ، شابا فتيا ، أيدا قويا ، يصح له أن يتزوج الساعة من أجمل عذراء .

وقال فى نفسه :

— هذا كله حديث خرافة ، ولكن ... لماذا تريد هذه المرأة أن ترحل إلى الأقطار الأجنبية وأى فائدة لها فى ذلك ، على أنها لا بد راحلة وإن كانت البلاد كلها لديها سواء ، وسيان عندها روما وبلاد الحبشة ، ولا فرق فى نظرها بين نابلز والقطب الشمالى ، كل همها أن تقف عقبة كؤودا فى وجهى ، وسأكون عالمة عليها ، وكأنى بها والله وقد عقدت على المبلغ الجسيم عقب حيازته ألف

عقدة وعقدة ، وأقامت من دونه ألف خندق ومتراس ، ومائة ألف مغلاق وترباس ... ثم لتقذفني من حالى ولتنبذنى نبذة النواة ، وتقيلن على أهلها وأقاربها فتغدقن عليهم الخيرات والحسنات إغداقا ، وأحرم أنا السحتوت والدائق .

وهنا شرع إيفان ديمترى يتذكر أهل زوجته وأقاربها ، إخوتها وأخواتها وعماتها وخالاتها وأعمامها وأخوالها ، وقال فى نفسه « الويل ثم الويل من عصابة السوء تلك وزمرة الشر ، كأتى بهم لا يكاد يطرق مسامعهم نبأ الغنيمة حتى يهرعوا إلى زوجتى يقبلون الأعتاب ، ويستلمون حلقات الأبواب ، ويتمسحون بالأذيال والأذنان ، ويتمرغون فى التراب ، ويلتمسون الصدقات والزكاة ، باكين معولين ، وهنالك المداينة والملق والابتسامة الكاذبة واللسان المذق ، بعداً لهم وبؤساً ، وتعسا لهم ونكسا ! ثم تخيل هيئة أولئك الأقارب وسحتتهم ، وتمثلت له وجوههم سمجة قبيحة وطلعاتهم كطلعة الحمام كريهة بغیضة .

فقال فى نفسه :

- تبا لهم من حشرات ضئيلة !

وهنا تخيل إليه لأول مرة أن وجه زوجته سمج قبيح أيضا ، وأن طلعتها كريهة بغیضة ، فجاش الغضب فى صدره عليها وقال فى نفسه حقدا وحنقا :

- هذه المرأة لا تفهم معنى المال ولا تفقه فوائده وثمراته ، ومن ثم ضنها به وشحها ، وأحسب أنها إن ربحت الغنيمة ، لا تعدو أن تخدعنى عنها ببضعة روبيلات ثم تستوثق من سائرها بالأقفال والأغلاق .

ونظر إلى زوجته ، نظرة خلوا من الابتسام مشحونة بالغيضاء والغضب ، وأدركت المرأة معنى هذه النظرة ، وكان يخالغ جنانها من الأفكار والخطرات مثلما كان يخالغ جنانه ، وتحلم من أحلام اليقظة مثلما كان يحلم ، فكانت هواجسها وأحلامها تمثل لها زوجها وهو يحاول أن يغصبها أرباحها ويسلبها غنائمها ، ويقاثلها على كل دينار ودرهم .

فنظرت إليه نظرة لو ترجمت بالكلام لكان مؤداها : « ثيقت أيتها الرجل من أضغاث أحلامك ، ألا إن من أعظم اللذات أن تشيد قصور الخيالات على حساب غيرك ! كلا ! ما كنت لتخدعنى عن أموالى ! فأنأ أحصف من ذلك وأكيس !

صبح من سكرتك ، وأفق من غشيتك ! » وفهم الرجل معاني نظراتها ، وجاش لغضب ثانيا في صدره واتقد في ناظريه ، ولكي يتدبرها بالقصاص ويعجل عليها بالعذاب والنقمة ، أسرع بالنظر في كشف الأرقام الراجعة ، فقرأ بصوت ملؤه الشماتة والتشفى :

« مجموعة ٩٤٩٩ ، ونمرة ٤٦ ، وليس ٢٦ »

وهنا ذهب عنه البغض والأمل جميعا ! وخيل إليه وإلى زوجته أن غرفتهما قد أظلمت في الحال وضائق ، وانخفض سقفها واسودت جدرانها ، وأن الطعام الذي تناولا به أنفا يلتهب في أمعائهما ، ويصعد إلى حلقهما ، وأن العيش مر المذاق ، والحياة مصيبة .

وهنا ساءت أخلاقه ، وشرست طباعه وبدأ يتسخط على كل شيء بلا علة ولا موجب ، فنظر إلى بعض فئات المائدة مبعثرا على أرض الحجرة وصاح :

- هذا والله ما لا يطاق بحال ! فأينما يسير الإنسان تطأ قدماه فئات الزاد وكسر الخبز وأشواك السمك ، العياذ بالله ! أحرام عليكم تنظيف حجرات المنزل ؟ .. وهل قضى الله علينا أن نعيش ونموت بين الأدران والأقدار ؟ .. أما إنه لا مقام لمثل في مثل هذا البيت ! مالى سوى الخروج من حيلة ! فلا أخرجن والله فأشنت نفسي على أول شجرة أصادفها !

زوبعة منزلية

للقصصى الروسى أنطون تشيكوف

كان « شريف » - مزارعا متوسط الحال - واقفا فى زاوية بحجرة المائدة يغسل يديه على الحوض تأهبا لتناول الطعام ، وعلى وجهه أمارات التضجر والتبرم ، وقال :

- ما أقبح هذا الغيم والضباب ! تالله ما هو بغيم ، إن هو إلا نعمة من الله وعذاب ! صب اللهم علينا سجال لعناتك فإننا أهل ذلك ، وأسوأ من ذلك ! العياذ بالله ، لقد عاد المطر !

واستمر يهمهم ، ينث كمين حنقه ، وأفراد أسرته جالسون على المائدة ، ينتظرونه قبل البدء بالغداء ، كان هناك زوجته « فيدوسيا » وابنه الطالب « بيوتر » وكبرى بناته « فرفرة » وثلاثة أطفال سمر ، سمان ، فطس الأنوف ، شعث ، غير ، بشعر جعد متلبد ، وكان أولئك الأطفال فى قلق دائم وحركة مستمرة يتعلمون على مقاعدهم تشهيا للطعام ونهما ، بينما الكبار على أتم ما يكون من الوقار والرزانة وقلة الاهتمام ، كأنهم لا يبالون أكلوا ، أم صاموا .

وكان رب البيت « شريف » أراد أن يطيل عذابهم ، ويستفد صبرهم وجلدهم ، فجعل يتباطأ ويتلأأ ، ولم يجلس إلى المائدة إلا بعد أن غسل يديه وذراعيه إلى المرفقين إحدى عشرة مرة ونشفهما مثل هذا العدد من المرات ، وتلا دعاء المائدة - الله يعلم كم مرة ! - ثم تمشى على أدنى مهل إلى الخوان ... كأنما يساق إلى جهنم .

وجعل الابن « بيوتر » أثناء الغداء يخالس أمه النظرات ، وأمسك عن الطعام مرارا وتمنح كأنما يحاول الكلام ، ولكنه كان ينظر إلى أبيه فيعدل عن قصده ويستأنف الغداء ، وأخيرا بعد الثريد ، سلك حلقة ، ونصب قامته وقال :

- ينبغي لي أن أسافر الليلة على قطار المساء ، بل لقد كان ينبغي أن أسافر قبل ذلك ، لقد أضعت أسبوعين هباء منثورا ، وقد تعلم أن المحاضرات تبتدىء فى أول سبتمبر .

فأجابه أبوه قائلا :

- وما بالك لم تسافر ! ومن الذى منعك من ذلك ، ولماذا - إذن - لا تزال تملكأ ههنا وتبльд ؟ اشحن متاعك وارحل لتوك وساعتك ، مع السلامة ! فترة سكوت ...

قالت الأم بصوت غصيص :

- يرحل بلا دراهم ؟ .. لا بد من تزويده بشيء من المال .

قال الأب :

- بلا شك ، بلا شك ! .. لا رحلة بلا مال ، خذ ما تريد فى الحال . فتنفس الغلام تنفيسا لكرته وتقريبا لغمته ، ونظر إلى أمه مستروحا نسيم الأمل ، واستخرج المزارع « شريف » كيسه من جيبه ولبس منظاره وقال :

- كم تريد ؟

فقال : أجرة القطار إلى موسكو أحد عشر روبلا واثنان وأربعون كوبيكا .

و ..

لم يمهله أبوه أن يستوفى طلباته ، فعاجله قائلا :

- المال .. المال ! دائما المال ! .. فى كل آن ولحظة ، لا تسمع عن شيء

سوى المال المال ! .. هات .. هات ! .. هات .. هات ...

وجعل يتنهد ، ويتنهد ، لقد كان كلما جرى ذكر المال يتنهد ، لقد كان

يتنهد حتى لدى استلامه الدنانير والدراهم .

فقال متنهدا :

- هاك اثنى عشر روبلا ، ادفع منها أجرة القطار ، وتمتع بالباقي تنفقه فيما

شئت من لذائذ الطعام والشراب أثناء السفر .

قال الغلام ، وتبسم أوجع ابتسامة :

- شكرا لله ، نعم سأمتنع بالملايم الباقية بما لا عين رأت ولا أذن سمعت .
ثم أطرق برهة يخالس أمه النظرات الخفية ، وأخيرا واجه أباه فقال :
- إنك تسلمنى إلى قضاء الله ..

وقضاء الإله أحوط لنا من من الأمهات والآباء
إنك تتركنى وارترافى إلى الأقدار ، وماذا أصنع إذا استعصت الأقدار فى
البداية واحتبست الأرزاق ، وأنت تعلم أن الدروس الخصوصية التى منها أعيش
فى موسكو ربما أبطأت فى أوائل العام ، وهى - بعد - شىء لا يجىء إلا بالسعى
الحثيث وشق الأنفس ، فهلا أعطيتنى خمسة عشر روبلا لميتى ومطعمى ، ريثما
يجىء فرج الله سبحانه وتعالى ؟

فأطرق الرجل مليا ، ثم أرسل زفرة طويلة وقال :
- اقضها بعشرة روبلات بدلا من الخمسة عشر ، وها هى ، خذ ...
ونقده عشرة ...

فتناولها الطالب بمزيد الشكر ... لقد كان ينبغي أن يسأل أباه أكثر من ذلك ،
لما يلزمه من ثياب وكتب ومحاضرات ودروس ، ولكنه قرأ فى وجه أبيه آية
الضجر والتأفف ، فرأى من الحكمة والصواب أن لا يضاعف بالمسألة آلامه .
ولكن أمه ، وكانت كسائر الأمهات ، يعوزها القنطة والدهاء والحكمة ، لم
تستطع أن تملك نفسها أو تصبر بعد هذا ، فقالت :

- ينبغي لك يا شريف أن تزيد ستة روبلات ثمن حذاء ، ألا ترى -
أصلحك الله - أصابعه بارزة من نعليه ؟ كيف يذهب إلى موسكو بمثل هذه
الحال من الرثاثة ؟

قال الرجل :

- أعطيه حذاءي القديم ، إنه لا يزال جيدا ...
قالت الأم :

- ولا بد له من سربال ، انظر إلى سرباله ، إن من شر الفضيحة والعار أن
يسعى بين إخوانه فى مثل هذه الأسمال والأطمار !

لم تكذب تفوه بهذه الألفاظ حتى ثارت فى آفاق الغرفة زويدة ارتجف لها
أفراد الأسرة هلعاً وفزعاً ..

وذلك أن ربة « شريف » القصيرة الضخمة احمرت فى الحال كالجزرة ،
ثم ارتفعت الحمرة إلى أذنيه فصدغيه ، ثم عمت سائر وجهه ، ثم اضطرب فى
مقعده وتقلب ، ونزع ياقة قميصه تفادياً من الاختناق ، لقد كان يصارع مارء
الغيط وجنى الحنق ! وتلت ذلك سكينه كسكنة الموت ، وحس الأطفال أنفاسهم
هبة ورهباً ، وكأن الأم « فيدوسيا » لم تطفن إلى ما كان ينتاب زوجها فتمادت
قائلة :

- أى عار وفضيحة أن تترك ولدك وقره عينك بين زملائه وأنداده عبرة
وأحدوثة ؟

وما فاهت بهذه الكلمات حتى وثب « شريف » من مجلسه بغتة وبأقصى
مالديه من حول وقوة وقذف بكيسه الضخم على المائدة ، فأطار ثلاثة أرغفة
وسمكتين وبيضة ، واشتعل على صفحة وجهه وهج حريق وقوده الحقد والحنق
والبخل والشره .

ثم صاح صيحة شيطانية جهنمية :

- انهبونى ! اسلبونى ! جردونى ! عرونى ! اسحقونى ! امحقونى ! امتصوا
آخر نقطة من دمى .. اعتصروا آخر صباة من حياتى ! خذوا روحى ! اختطفوا
حشاشتى ! قطعوا أمعائى ! اقصفوا رقبتى !

وهنا صعد الدم إلى وجه الغلام الطالب ، ووقفت اللقمة فى حلقه ، فأمسك
عن الطعام وأطرق ، وانكمشت الأم « فيدوسيا » فى نفسها ، وقبعت فى جلدها ،
وتتمست بكلمات معجمة ، وعلا وجهها المهزول ، المشبه وجه العصفور آية
الربع والجزع ، والأطفال الثلاثة وأختهم « فررة » - آنسة فى الخامسة عشرة
بوجه أصفر غير مستلمح - كلهم ألقوا الملاعق وظلوا صامتين .

واشتد هياج الرجل وحمى وطيس غضبه وقذف من قوارص التول بكل عوراء
فاحشة ، ثم اندفع إلى المائدة وشرع يتفض أوراق البنكنوت المكتظ يترها فى
كل ناحية ، ويصيح وهو يتفض انتفاضاً :

- خذوها ! انهيوها ! التهموها جميعا ! .. لقد ملأتم بطونكم على مائدتي طعاما وشرابا ، وما كفاكم هذا حتى تريدوا أن تذهبوا أيضا بأموالي ، وأراني في نظركم كمية مهملة وحرضا هالكا ، وأراني حجرا أصم وجمادا ما يبي إلى الدرهم والدينار من حاجة ! .. فخذوا ثروتى برمتها ، وأنفقوها في جديد الأحذية والملابس وفي الميت والمطعم والدرس والمحاضرة ! (يعرض في كلماته الأخيرة بطلبات ابنه « بيوتر ») .

فاصفر وجه الغلام الطالب ووثب إلى قدميه فصاح مبهور الأنفاس ترتجف أوصاله :

- حسبك وكفاك يا أبى ! حسبك ! حسبك ! وقف عند هذا الحد ! ولتعلمن

بعد ...

فصرخ الوالد صرخة منكرة أطارت المنظار من فوق أنفه فسقط في صحن البطاطس :

- اخرس ! فض الله فاك وقطع لسانك ! .. أتجرؤ على يا وغد

فقاطعه الغلام صائحا :

- حسبك يا والدى ، واكفف عني غرب لسانك ، فلن أطيع بعد اليوم سقطاته وفلتاته ، وحسبى منك ما احتملته إلى الآن ! .. لقد شاءت إرادتى والحمد لله أن أصدع عن عنقى ربة عتوك وطغيانك ، وأنطلق من أغلال جورك وجبروتك ! لقد كنت أعمى فأبصرت ، وأخرس فنطقت ، وجامدا فحركت ، وميتا فعيشت ! فصاح الوالد وضرب الأرض بقدمه :

- اخرس ، عليك لعنة الله ونقمته ! .. تالله لأرينك عاقبة تمردك وعصيانك ، ولتخرسن والله ثم لتتصنن إلى مقاتلى وأنفك راغم ! لقد كنت فى مثل سنك كعسا لبقا حاذقا بصيرا بأساليب الارتزاق ووجوه المكسب ، أعرف من أين تؤكل الكتف ، ولم أك مثلك نكسا ضعيفا قعددا كهاما ، عاجز التدبير والحيلة ، أتعرف يا خبيث أى نفقات تكلفنى ؟ .. تالله لأنبذك بالياب ، ولأجعلن قبرك بطون الذئاب ، وحواصل الجارحات من رخمة وعقاب !

فتدخلت الأم فيدوسيا تدفع عن ولدها بصوت متقطع مبهور :

- مهلا ! مهلا ! حنانيك إنه لحملك ودمك !

فصاح بها الرجل وقد اغرورقت عيناه من غلواء الغيظ والحنق :

- اخرسى ! اخرسى ! تالله ما أفسده غيرك ، أنت أنت أصل هذا الشر والبلاء ! أما ترين فرط سقوطه فى مهواة الضلال وهبوطه ! .. لا يعرئ لنا ذمة ولا يحفظ عهدا ، ولا يؤدى فريضة الصلاة ، ولا يكسب لنفسه درهما ، لطفك اللهم ورحماتك ! ماذا أصنع مع هذه الأسرة ، لقد نفدت حيلتى وعيل صبرى ، وأنا فرد واحد بينهم ، وهم عصبة ! غوثك اللهم ومددك ، أجرنى منهم ، أعنى بقوة من لدنك عليهم ! .. وأكبر ظنى أنى سأطردهم من دارى جميعا يوما ما !
وهنا نظرت الفتاة « فرفة » فأغره فاها ، إلى أمها ثم قلبت عينها الشاخصتين تلقاء النافذة ، ثم عرتها صفرة كصفرة الموت ، وصرخت صرخة عالية ، وأغشى عليها .

ولما رأى الوالد ذلك صاح صيحة شديدة ، وسب المكان والزمان ، وخرج يعدو إلى فناء البيت ...

هكذا كانت تنتهى الزواجع فى دار « شريف » عادة ، ولكن زوبعة ذلك اليوم لم تنته كالعادة بفرار رب البيت إلى الخارج ، وذلك أن الغلام بيوتر أبى فى تلك المرة احتمال الضيم والهوان ، فاقترب من أمه وهو يرتعد ارتعادا شاحب الوجه متأجج المقاتين ، فصاح بأرفع صوته :

- إن لكللمات ذلك الرجل فى فؤادى وخزا كوخز الإبر وحز المواسى ! وقد أصبحت ومالى بكيتها المضاض طاقة ! سأرحل عنكم إلى فضاء الله الواسع الفسيح :

وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متحول

خذلوا مالكم الخسيس البغيض ، فما بى إليه من حاجة ، خذلوه ... فالجوع والعرى أحب إلى من لقمة بالمن منغصة ، وكسوة بالتعير مسمومة ، ومالى لا أتشبه بمن قيل فيهم :

أبوا أن يذوقوا العيش والذم واقع عليهم فماتوا ميتة لم تدم

خذلوا دراهمكم لا يورك لكم فيها !

فانزوت الأم مذعورة في ركن المكان ومدت ذراعها كأنما تحاول أن تدفع
بهما خطرا مهددا ، وكأن المائل أمامها ليس ولدها وإنما هو خيال مزعج !

وولولت تندب :

- وأنا ماذا جنيت ؟ وما ذنبي ؟

وغادر الغلام الدار يهيم على وجهه ، في القفار والفيافي ، وحديثه نفسه وهو
يجوب الطرقات الموحلة المملوءة بالبرك والغدران ، أن يركب ساقيه إلى موسكو
مهما شط مزارها ، فيدخلها على حاله تلك ، مخرق النعلين ، عارى الرأس خاوى
الوفاض ، وقال في نفسه : « ومتى مضت ليلتان أو ثلاث ولم أعد ، أو جس أبي
خيفة وهاجت بلابله ، فيلحقني على الطريق ويتهل إلى ويتضرع كي أرجع إلى
البيت أو آخذ من المال ما أحببت ، ولكنني أتلقي توسلاته وابتهالاته بمنتهى الأنفة
والإباء ، والعزة والكبرياء .. وأقطع بيني وبينه المفاوضات ، وأمضى على سنتي ،
ومن يدري ، فلعلني سأهلك جوعا وعطشا على الثلوج ، ثم يعثر على جثتي ،
وهناك في جميع الصحف السيارة يقرأ أهل الأرض جميعا أن الرجل النذل
الخشيس « شرياف » أسلم ابنه وفلذه كبده إلى العرى والجوع فسات رحمه الله
ضحية لؤم ذلك الرجل الساقط وفريسة بخله وقسوته » .

وواصل مسيره ، يفكر في الموت ومخاوفه ، ويفكر في فجعية أهله به
وحدادهم عليه ، وفي حرقة أبيه ولوعته ، ونيران أحشائه ، وطوفان مدامعه ، ثم
أزعجته تلك الصور الشنيعة ، فأسدل عليها الستار ، ثم عاد فكشفه عن أجمل
الصور والمناظر فصور مستقبله بريشة الخيال الساحرة وألوان المنى الزاهية الزاهرة ،
فتخيل أنه بينما يضرب في شعاب الغاب إذ يرتفع له شبح بناء مشيد فيقصد
فإذا قصر برنس أو غراندوق أو يارون ، فيستسقى أهله شربة ماء ، ويرويه مكدودا
منهوكا جواب أقطار ، ونضو أسفار ، فيرحونه فيكرمون مثواه ، وتراه ابنة
صاحب القصر ، وتكون من أجمل الغانيات فتعشقه ، وما بعد ذلك - بلغك
الله منك - إلا الحظ والأنس والتعيم ، وصفوة متاع الحياة !

كل ذلك وهو موغل في أحشاء الآجام ، قد ركب رأسه لا يلوى على شيء ،
ولا يدري أيان يذهب به ويساق .

وبينما هو ، فى أحضان ابنة البرنس أو البارون ، تحيه بالورد والأقحوان
وتششف أذنيه بأعذب الألحان ، وتفديه بالروح والأهل والجيران ، إذ أخذته
السماء بوابل هتان ، فكر راجعا إلى بيت أبيه ، وقد أفاق من أحلام وسنان .
وفى أثناء عودته عقد النية على مكاشفة أبيه بمكنونات صدره مهما كلفه
ذلك .

ولما دخل الدار وجد أخته فرفرة على سريرها من وراء الكلة تشكو الصداع
وتتأوه ، وعلى رأسها أمها أسيفة كاسفة البال ترقع ثيابا ، وألقى أباه يحجب أنحاء
الحجرة جيئة وذهابا ، مقطب الحاجبين مكفهر الجبين ، تدل هيئته وسحته
ومشيته على ما كان يقاسيه من وخز الضمير ، ولذعة الندم .
وقال لغلامه « بيوتر » :

— أظنك عدلت عن نية السفر الليلة .

فرق فؤاد الابن لأبيه ورثى له حين رآه منكسرا خاشعا حزينا ، ولكنه كتم
تلك العاطفة وقال بلهجة قاسية :

— إنى ما زلت أحترمك يا أبت ، وما كان يخطر لى على بال أن أغلظ لك
القول يوما ما ، ولكن أنت ألجأتنى إلى ذلك بما قد جرححت إحساسى وأوغرت
صدرى ، ولا تنس ما كان منك اليوم ، لقد عدوت فى الأذى والإساءة كل حد ،
وجاوزت كل مقدار .

أطل الوالد من النافذة ولم يجر جوابا ...

وحك الغلام جبينه كأنما يزن ألفاظه ، قال :

— لا يكاد يمر إفطار ولا غداء ولا عشاء إلا وتقيم لنا عليه مأتما ومناحة ،
إن خبزك لينشب غصة مبرحة فى حلوقنا ، ولا شيء أمر ولا أمض ولا أفرح
ولا أبرح من طعام تلجلجه الأفواه ولا تسيغه الحلوق ، وإنك وإن تكن أبى ورب
الأسرة ، ما أحسب أن الله جل وعلا قد أباح لك أن تغالى فى إذلالنا وإيلامنا
كل هذه المغالاة ، تسود عيشنا وتنغص حياتنا ، بلا أدنى موجب ولا علة ، لقد
والله أذقت والدتى لباس الذل والهوان ، وأوهنت عظمها ، وأذبت لحمها وشحمها ،
وتركتها فى بيتها رقيقة مستبعدة بل أذل وأهون ... وأما أنا فقد ...

فقاطعه أبوه قائلا :

— ليس من شأنك أن تعلمنى ، وما جعلك الله قيما على ولا وصيا .

قال الغلام :

— بل من شأنى أن أعلمك وأبصرك من واجباتك ما لم تبصر ، اصنع معى ما تشاء ، واقض فى ما أنت قاض ، أما والدتى المسكينة فاكفف عنها بواذر أذاك وشرك ، ولا تمسها بسوء ولا تعذبها ..

وهنا ختقته العبرات فعدا مسرعا إلى حجرته ، فأكب على وسادة فراشه وانتحب انتحبا ، ولما انقشعت عنه عاصفة البكاء استلقى على ظهره إلى منتصف الليل فى شبه ذهول وخمود ، ثم نزع ثيابه وحاول النوم ولكنه لم ينام ، وجعل وهو كذلك يسمع وقع أقدام أبيه يَجُول فى غرف الدار كالروح الشرير المعذب ، يواصل أناته فى الظلام وزفراته ، ولم ينام تلك الليلة أحد من أهل المنزل ، وكان حديثهم قليلا ، نادرا ، وهمسا ووسواسا ، وأقبلت أمه مرتين فأطلت فى وجهه من وراء الكلة وصلبت عليه وتمتمت بشيء من الدعاء ، وكانت شاحبة الوجه ، موجعة حزينة . وفى الساعة الخامسة صباحا ودعهم جميعا ، وهاج الحنان والإشفاق لوعته فيكى ، ولما اجتاز بباب غرفة أبيه نظر فإذا الرجل لا يزال فى كامل ثيابه لم يتنضها للنوم ، ولم ينام ، وكان واقفا عند النافذة ينقر على زجاجها . وقال الابن :

— وداعا يا أبته ! إنى راحل !

— وداعا يا بنى ، النقود على مائدة الطعام ...

قال الوالد ذلك دون أن يلتفت إلى ولده ...

وما هى إلا دقائق حتى كان الطالب ييوتر على طريقه إلى موسكو .

الغرام

للقصصى الروسى أنطون تشيكوف

أتممت الدراسة العالية فى الآداب والعلوم بالجامعة ولم يشأ الله أن أعيش عيشة العالم والأديب بالمدينة ، ولكن شاءت الأقدار أن أضيق ريعان الصبا وزهرة الشباب فى الريف وأن أعيش عيشة قروية كريها محروما من حياة العلم والأدب ومتعها ولذاتها بين نخبة العلماء والأدباء بالمدينة ، وذلك أنه لما توفى أبى عقب مغادرتى الجامعة ، كانت الضيقة التى أورثنيها مقللة بالديون ، فرأيت أنه لا بد لى - إن كنت مؤثر الحزم والحكمة - أن أسهر على هذه الضيقة وعلى حسن استمارها حتى أرفع عنها من الدين ما آدها وأثقلها وكاد يذهب بها ، فأقمت بالريف وبذلت جهدى وحضرت همتى فى سبيل ما إليه قصدت ، فأصبحت عيشتى من أجل ذلك ريفية بحة خالية من كل ما يسر العالم ويلذ الأديب ، وتناهت على ذلك الأعوام ، وكأنما لا منفذ لى من ظلمات هذه الحياة القفرة الموحشة إلا الممات .

وفى خلال ذلك عينت قاضى شرف بالمحكمة الجواله وبالمؤتمر ، وكان هذا المنصب الجديد يضطرني إلى الذهاب أحيانا إلى المدينة فكان فى ذلك تفريج لهماى وتنفيس لكربتى .

وفى المدينة اكتسبت أصدقاء جددا من زملائى فى القضاء أخص من بينهم بالذكر « لوجانوفتش » وكيل المحكمة المتجولة ، وكان حلو العشرة خللا ، وقال لى ذات مرة : « هل لك فى تناول الغداء عندى اليوم ؟ » ..

لم أنتظر منه ذلك لأن علاقة ما بيننا لم تكن من المثانة بمكان ، ولم تعد صلة الوظيفة الرسمية ولم يسبق لى دخول داره من قبل .

ذهبت معه إلى داره ، وهنالك رمانى القدر المتاح بقاء زوجته « أتوتا

أليكسيفينا » وكانت فى ذلك الحين صغيرة جدا لا تتجاوز الثانية والعشرين من عمرها ، وابنها البكر لا يتعدى شهره السادس ولست أدرى - يعلم الله - ما الذى افتتنى وسبأنى وخلق لى من ملاح هذه المرأة ، لقد كانت مليحة حسناء ، عروبا ودودا ، سمحة سجيحة ، لبقة ذكية ، ساحرة جذابة ، لم أر لها قط شيها ولا نظيرا ، ولأول وهلة أحسست كأنما قد سبق بين روحى وروحها تعارف منذ أقدم القدم فى عالم الأرواح ، قبل أن يخلق الله عالم الأشباح .

وجعل الزوج والزوجة يبالغان فى حفاوتى وإكرامى وإتحافى بمطاليب الطعام والشراب ، وقد قام لى - ونحن على المائدة - ألف شاهد ودليل على أنهما كانا على أتم ما يكون من الوفاق والوثام والتآلف والتصافى . وبعد الغداء ، عزفا ما شاءا على « البيانو » ، ولما أرحى الليل سدوله استأذنت منهما وانصرفتا إلى مثواى ، وكان ذلك فى غرة الربيع .

وبعد ذلك قضيت عامة الصيف فى ضيعتى بالريف ، وتكاثرت على الأعمال العجافة الثقيلة فلم يكن ثمت مجال للتفكير فى المدينة وشئوننا غير أن ذكرى تلك المرأة الرشيقة الحسنة ظلت فى خاطرى ، لم أكن - علم الله - أفكر فيها ، ولكن كان يخيّل إلى كأن ظلها الشفاف وشبحها المستير قد خيما على قلبى .

وفى أواخر الخريف كان بإحدى دور التمثيل بالمدينة رواية خيرية ، ودعانى وكيل المحكمة لمشاهدة تلك الرواية ، فذهبت ودخلت لوجه ، وإذا زوجته « أتوتا أليكسيفينا » جالسة إلى جنب زوجها ، وما هو إلا أن رأيتها حتى عاودتنى تلك الصبابة القديمة - تلك الهزة والأريحية - تلك النشوة المخدرة ، المفترة للأوصال والمفاصل ، نشوة الحب والجمال ، والوله والدلال ، وأدارت على هاتان العينان السحوران كأس الغرام مترعة دهقا ، وعادتنى ذلك الإحساس الخفى العجيب ، إحساس تعارف الروحين وتعاطف الوجدانين وأنى وإياها قد كنا ملكين طاهرين نسبح فى الملكوت الأعلى ، ونمرح حول شجرة المنتهى فى جنة المأوى ، قبل أن يخلق الله آدم وحواء ، وجلسنا إلى جانبها ساعة من الزمان .

ولما ذهبنا من بعد ذلك إلى المقصف لتناول شىء من المرطبات قالت لى :

- لقد نخفت وضويت ، فما خطبك ، أكنت عريلا ؟

- نعم بالرومانزم فى كفى ، لقد كان يحرمى الرقاد إبان الأنواء والأمطار .

- أراك مكسبا حزينا ، وما كذلك كنت أيام الربيع حين زرتنا .

تقول ابنة العمرى ما لك بعدما أراك حديثا ناعم اليال أفرعا
فقلت لها طول الأسى إذ سألتنى ولوعة حزن تترك الوجه أسفعا
فلو أن ما ألقى أصاب متالعا أو الركن من سلمى إذن لتضععضا
وامترسلت فقالت :

- لقد كنت حين لقيتنا أول مرة ناعم اليال جم البشر والطلاقة ، مفراحا
طروبا مراحا فياض الفكاهة سكب اللسان ، خلاص الحديث حتى لقد والله أثرت
فى أثرا بطيما زواله ، ولا أدرى لأية علة ما زلت ترد على خاطرى وتردد على
ذاكرتى ، ولما كنت أنهيا الليلة للذهاب إلى دار التمثيل هتف بى هاتف من
أعماق قلبى أنى سألتك هناك ، وما كذبنى الهاتف !

ثم ضحكت ...

وكررت قولها ...

- ولكنك محزون الفؤاد مكثب ، وهذا يكسوك فى نظرى سيما الكبر والهرم .
وفى اليوم التالى تغديت فى دار وكيل المحكمة « لوجانوفتش » بينه وبين
زوجته ، ثم ذهبنا إلى محلتهم القروية ، التى كانت لهما مصطافا ومشتى ، لكى
تعد بها معدات الشتاء القادم ، ثم عدنا إلى المدينة ، وفى منتصف الليل تناولت
معهما الشاى بين معالم السعادة المنزلية ، التى كان من أنصع عناوينها موقد الصلاء .
يتلأأ فى سنا شعاعه الواج بريق الأنس والصفاء ، والأم الصغيرة ، فى أثناء
ذلك تتفقد طفلها الرضيع ، تروح إلى مهده الصغير وتغدو .

وجعلت بعد ذلك كلما قدمت المدينة لا أخلى تلك الأسرة الكريمة من
زيارتى ، وألفونى وألفتهم ، وتوثقت بيننا عرى الوداد ، وتأكدت روابط الصداقة ،
وكنت أدخل عليهم بلا استئذان كأنى فرد من أفراد الأسرة .

فكنت إذا طرقت دارهم سمعت من أقصى حجراتها نغمة ذلك الصوت العذب
الرخيم الذى يمتزج بأجزاء نفسى رقة ولطافة ويدب ديب الغناء فى جوارحى ،
وهى تسائل الخادمة فى فتور ولين :

- من الطارق ؟

وتقول الخادمة :

- إنه « بافيل قسطنطين » . فتخرج إلى « أتبوتا أليكسيفينا » وعلى وجهها آية الشوق واللهف وتقول :

- ويلي منك يا بافيل ! ما بالك قد هجرتنا كل هذا المجران ! هل حدث حادث ؟ ...

وفي خلال ذلك كانت عيناها الفاترتان ، وبدها الرخصة اللدنة ، التي كانت تضعها بمنتهى الاستسلام فى يدى ، ولباسها المنزل الشفاف ، وشعرها المرسل المهدل ، وصوتها الحلو الرخيم ، وخطوها الخفيف الرشيق ، وابتناسمتها العذبة الساحرة ، كل هذه الآيات الرائعات كانت ترسل فى كياني تلك الهزة المعهودة وتبعث فى نفسى ذلك الشعور المبهم العجيب ، الخفى الجديد ، المدهش الخطير المهيّب .

وكنا نجلس الساعات العديدة نتجاذب أطراف الحديث ، ثم يتلو ذلك الصمت الطويل ، وكلانا فى غمرات فكره ساح ، وأحيانا تعزف لى على البيانو بأشجى الأنغام والألحان ، وإن كان لديها حوائج تريد قضاءها من الخارج انطلقت ، وتركتنى أتصرف فى أرجاء البيت كالو كان بيتى وبيت أجدادى ، وتعود فألقاها على عتبة الدار فأتناول منها ما جاءت به من متاع أو بضاعة ، فأحملها فرحا بها مسرورا حادبا عليها عطوفا ، كأنى أحمل منها طفلا لى عزيزا على ، قرة عين وفلذة كبد !

وكانت « أتبوتا أليكسيفينا » ترق لى وترثى لخالى إذ تجدنى مع وفرة نصيبى من العلوم والآداب والتربية العالية ، أضيع عمرى هدرًا بين أجلاف الريف فى الحقول والمزارع ، أكد وأكدح ، ولا يبدو على أدنى أثر لذلك من مال أو يسار ، لا درهم ولا دينار ، وكانت تقرأ على هيئة آية الفقر ناصعة مبينة ، وتشعر أنى فى هم ناصب وكرب دائم ، وأنى ما كنت أتحدث وأضحك وأمزح إلا لأكتم زفرات البث الذى كان يملأ جوانحى ، وعبرات البث التى كانت تشرئب أن تكف من أجفانى ، وكان يشتد كربها إذا آنست على أمارات الأسى لضائقة مالية

أو شبهها ، فكانت إذ ذاك تأخذ بمرفق زوجها فتنتحى به زاوية من المكان ، ثم يتساران برهة ، ويعمد إلى الزوج بوجه أسيف فيقول لى :

- إن كنت فى حاجة إلى المال الساعة ، يا بافيل فسلنا نقرضك ما تبغى ؟
ثم يصيغ الخجل وجهه إلى أذنيه :

أو ربما عاد إلى بعد طول تهامس مع زوجته وهو مضرج الوجنتين ملتهب الوجه بحمرة الخجل فيقول :

- إنى وزوجتى نرجوك أن تقبل منا هذه الهدية ...

ويضع فى يدى مشبكا من الذهب ، أو علبة سجائر من الفضة ، أو مصباحا من النحاس ، وأهديهم أنا ، مقابل ذلك ، فراخا وبطا وزيدا وبيضا من حاصلات الريف ، وأذكر بهذه المناسبة أنهما كانا من الأغنياء الموسرين ، فهما لا يباليان أن اقترض منهما ما أشاء ، ولكن من أعجب العجائب أنى مع فرط جرأتى يومئذ على اقتراض النقود كلما سنحت الفرصة ، لم أكن لأجترىء بذلك على تلك الأسرة ولو أشرف بى العوز على الهلاك ، وما علة ذلك ؟ لأدرى !

ونال منى الحزن وشغنى الجوى ، وكانت لا تفارقنى ذكراها ، أذكرها فى البيت وفى الحقل وفى الخلاء :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثلى لى لىلى بسكل مكان

وحاولت جهدى أن أتفهم ذلك اللغز الخفى وهو تزوج فتاة حسناء فتاة من رجل كهل خال من كل ميزة تعجب ، وحلية تسر وتطرب ، فترزق منه من البنين ما يزيد صلتها به متانة وتوكيدا ، حاولت جهدى أن أتفهم لماذا أوقع القدر هذه الحسنة فى حوزة ذلك الرجل ولم يوقعها فى حوزتى أنا ، ولماذا صادفته أولا ، ولم تصادفنى أنا ، ولأى حكمة إلهية أزلية وقعت تلك الغلظة الفاحشة فى حياتها وحياتى ؟

وكلما ذهبت إلى المدينة عرفت من عينيها أنها كانت تنتظرنى بفارغ صبر ، وكانت تقول لى فعلا إن شئنا فى أعماق نفسها كان ينبعها بوشك مقدمى ، وكنا نفيض فى الحديث تارة ، ونسكت تارة ، ومع هذا كله ، لم نك نجرؤ أن نيكاشف الحب ، ونعلن الصباة ، بل كان كلانا يكتف جراحه عن صاحبه ،

ونخشى كل ما نخاله على الغرام دليلا ، وباهوى نعاما ، وكان حبيها قد ملك مشاعري وتغلغل فى عظامي ، ولكنى كنت أسائل نفسى إلى أية غاية يسوقنا هذا الحب ، لو أطلقنا له العنان ولم نكبح جماحه ؟ ..

وقلت فى نفسى : للموت أهون على من أن أشهر من غرامى هذا سيف نعمة على رقاب هذه الأسرة وأصب منه على زوجها وأولادها سوط عذاب ، وصاعقة دمار تهدم أركان هذه الأسرة الآمنة المطمئنة ، أفيكون ذلك من الشرف ؟ وهبنى أخذتها ومضيت ، فإلى أين ؟ وأيان أذهب بها ، وكيف ؟ لقد كان يستقيم لى ذلك ويصح ، لو كنت رجلا آخر أعيش عيشة أخرى ، لو كنت زعيما سياسيا خطيرا أو عالما جليلا ، أو شاعرا فحلا أو مصورا مشهورا ، إذن لنقلتها من عيشة مبغضة كريهة إلى أخرى بهجة لذيدة ، فأما أن أحولها عن حياة سخيفة عقيمة إلى أسخف منها وأعقم ، فذلك هو الحمق والجنون بعينه ، وهبنى فعلت ذلك ، فهل يدوم لنا صفاؤنا ؟ وماذا تكون حالها إن مرضت أو مت ، وماذا نصنع إن فترت بيننا علاقات الصباية وعفى الزمان على رسوم الحب بيننا وأطلاله ؟ وكأنما كان يخالج ضميرها مثلما كان يخالج ضميرى ، فكانت هى أيضا تفكر فى زوجها وأولادها وفى أمها التى كانت تعد ذلك الزوج ابنا لها ولم تجد لها من حيلة إزاء ذلك الهوى الكمين والهيم المبرح سوى خططين ، إما الخداع والكذب ، وإما الإقرار بالحقيقة ، وكلا الخططين أليم وخيم المغيبة . وكانت فوق ذلك تخاف أن انضمامها إلى ربما أشقائى وأبأسنى ، ونقص من حياتى عيشة ما برحت المحن والكوارث تنغصها ، وزاد فى أرزاء حياة هى بالأرزاء مملوءة .

وفى أثناء ذلك ، كانت الأعوام تنصرم وكانت أتبوتا قد رزقت أربعة من البنين ، وكنت إذا طرقت الدار المحبوبة ، تلقانى الخدم بالابتسام والأطفال بالهتاف ، صائحين أن عمهم « بافيل » قد جاء ، ثم يرمون على ويطوقون عنقى بأذرعهم البضة الصغيرة وإنهم ليفيضون فرحة وسرورا .

لم يدروا - عافاهم الله - ما كان يتأبني من الألم ، بل كانوا يحسبوننى مثلهم مسرورا سعيدا ، وكنت ربما استصحبته « أتبوتا أليكسييفنا » إلى دار التمثيل حيث

كنا نجلس متلاصقين على مقاعد « الفوتيل » يتماس كتفانا . وكنت آخذ المنظار من يدها بلا استئذان ولا كلام ، وأشعر إذ ذاك أنني أقرب الناس إليها ، وأنها ملك لى ، وأنى وإياها روحان فى جسد ، وأن أحدهما لا يستطيع البقاء من دون صاحبه ، ولكن العجب العجيب أننا كنا متى غادرنا دار التمثيل عقب انتهائه ، حيا أحدهما الآخر تحية الوداع وافرقتنا كما لو كنا غريبين قد التقينا للمرة الأولى والأخيرة !

الله يعلم ماذا كان يرجف به عنا أهل المدينة ، على أنهم فى مزاعمهم كاذبون ! ولما تمادت الحال بالسيدة أنثوتا أليكسيفينا واستفحل الأمر أصبحت لا تطيق طول المكث بالدار فجعلت تكثر من زيارة أمها وأختها وبدأت تشكو مرض الانقباض وضيق الصدر وتفهم أن حياتها قد تسممت وفسدت وأن على كبدها حرقه غليل لا يملك الماء دفعه ، وأن روحها تشرئب وتطمح إلى المحال ، ومالا ينال ، وأحيانا كانت لا تحب أن تبصر زوجها ولا أولادها ، وتفاقم عليها الشر حتى أصبحت فى عداد مرضى « النورستانيا » ..

وكذلك لزمنا الصمت وما زلنا صامتين ، وكانت فى حضرة الضيوف الأجانب تظهر نحوى نوعا غريبا من الضجربى والتبرم ، وتخالفتنى فى كل ما أقول وتعالى على خصوصى فى حومة المناظرة والمناضلة ، وإن أبديت رأيا سفهته ساخرة متعكمة فتقول :

- إنى أهشك على أصالة رأيك ، لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب ! .. وإن نسيت أن آخذ معى « منظار الأوبرا » عند ذهابنا إلى دار التمثيل ، قالت لى معنفة :

- ما زلت أعرف فيك التقصير والإهمال ..

ومن حسن الحظ أو نكده ، أنه ليس فى هذه الحياة من شىء إلا وله نهاية ، وكل حادث سيزول عاجلا أو آجلا ، وكذلك أتاح الله لنا ساعة الفراق الذى لا لقاء من بعده ، وذلك أن « لوجانوفتش » زوج السيدة تقرر نقله رئيس محكمة فى الأقاليم الغربية ، فاضطروا إلى مبيع كل ما لديهم من فراش وأثاث ومتاع وخيل ، وفى جملة ذلك محلتهم التى كانت مشى لهم ومصطافا ، وضرب آخر أغسطس موعدا لارتحال « أنثوتا أليكسيفينا » إلى بلاد القرم استشفاء من داء

« النيروستانيا » وأرجىء سفر الزوج بسائر أفراد الأسرة إلى مقر منصبه الجديد إلى ما بعد ذلك بقليل .

ودهبنا جما غفيرا إلى المحطة لتوديع « أتبوتا أليكسيفينا » ولما فرغت من تبادل تحية الوداع مع زوجها وأولادها ولم يبق على الجرس الثالث إلا دقيقة ، أسرعنا إلى غرفة القطار التي كانت منفردة فيها ، أحمل إليها صرة كانت أهملتها ، ولما التقت ألباطنا خائنا الصبر وانحلت عقدة تجلدنا فأهويت عليها أحتضنها وأطوق بذراعي جيدها وأسندت هي وجهها إلى صدرى وفاض دمعها مدرارا ، وأقبلت ألتئم وجهها وكتفيتها ويديها المبللة بالدموع . لله ما كان أبأسنا وأشقانا ، وما كان أمضها ساعة وأنكاه ، وهنالك بحث لها بحبي المفرط المبرح ، وغليل مهجتي ، وحرقة كبدي ، وتبين لي ، والوجد يوقد على أحشائي جحيمة المستعر ، أن التزامى خطوة الصمت والكتمان وطول إحجامي عن مكاشفة هذه الحبيبة المخلصة الوفية بكامن غرامي ، لم يك إلا حماقة منى وغباوة وسفها وضلالة ، وأنى لم أجن بعمائتي هذه إلا على نفسى وعلى تلك المسكينة ، أحب الناس إلى وأخصهم عندي . إذ حرمت نفسى وحرمتها معى صفوة العيش وطيب الحياة ومتعة الدنيا . وأدخلت نفسى وإياها طائعا مختارا سجن الهم والعناء والكرب والشقاء ، وآفاق الحرية والنعيم أمامى منفسحة فيحاء مشرفة العجنيات ، عيقة النسمات ، حالية الجنان شهية الأنعام والألحان .

وختمت وجنتيها وجبينها وشفتيها بآخر قبلة ، وصافحتها ، ثم افترقنا إلى الأبد ٢ .. وكان القطار قد تحرك ، فلجأت إلى الغرفة المجاورة وكانت خالية فانطرحت على مقعد بها ، ولبثت إلى أن بلغ القطار المحطة التالية أسح الدموع سحا ، ثم عدت أدراجى أتعس الناس طرا ! ..

زوجة الصيدلى

للقصصى الروسى أنطون شيكوف

كانت بلدة ب - الصغيرة المؤلفة من ثلاثة شوارع ضيقة متعرجة - فى هدأة نوم عميق ، تسود السكينة التامة فى هوائها الراكد ، وتخيم على جوها الصامت ، ولم يك يسمع ثمت سوى نباح كلب مبجوح من أقصى المسافات ، كانت ساعة السحر .

لقد كان أهل البلدة جميعا فى هجمة هادئة ، إلا زوجة الصيدلى مورديك الذى كان له بتلك الناحية حانوت يبيع فيه الأدوية والعقاقير .

وكانت هذه الزوجة الصغيرة قد استلقت على الفراش تحاول النوم ثلاث مرات ولكنها لم تتم ، ولم تدر لماذا ، وإنها لتكابد من الملل والسأم والضعف أقصاه ، بل لقد اشتد بها الضجر والكرب حتى أوشكت أن تجهش بالبكاء ، ولم تدر لماذا ... وأحست بصدرها غصة تتصاعد إلى حلقها ، وكان على بعد خطوات من خلفها يرقد زوجها « مورديك » يغط فى أحلى غطيط وأرخمه ، ويشخر أشجى شخير وأنغمه ، وقد ركب على قصبة أنفه برغوت شره يلدغه ، ولكنه لم يشعر ، بل كان يتنسم فى منامه ، إذ كان يحلم أن جميع أهل البلدة قد أصابهم سعال ، وأنهم يتسارعون إليه أفواجا ، يشترون منه « أقراص القطران » .. لقد كان يستحيل إذ ذاك إبقاؤه .. كلا ولا يوحز الإبر ولا ينخس المهاميز .. كلا ولا بالقنابل ولا بالمداقع !

وكانت الصيدلية بأحد أطراف البلدة ، فكانت زوجة الصيدلى ترى أقاصى الحقول والمزارع ، وكانت تبصر الأفق الشرقى يتبدل من سواد الليل اصفرارا ، ثم تخضب حواشيه حمرة قانية ، كأنما يشب فيه حريق مضرم ، ثم أطل وجه القمر مستديرا كبيرا من خلال الشجر .

وسمع وطء أقدام فى سكتة الليل ورنين مهاميز ، ثم أصوات أناس . فقالت زوجة الصيدلى فى نفسها :

- هؤلاء بلا شك ضباط البوليس ، عائدون من مكتب المأمور إلى ثكناتهم . وبعد هنيهة ارتفع لها شبحا ضابطون فى الزى العسكرى ، أحدهما ضخيم طويل ، والثانى أنحف وأقصر ، وكانا يسيران الهوينا ويتحدثان بصوت عال ، ولما اقتربا من الصيدلية ، سارا على أدنى مهل ، يجران رجلا إثر أخرى وصعدا البصر إلى نافذة المكان .

وقال الرجل النحيف :

- إنى لأشتم رائحة صيدلية ، وذلك هو الواقع ، الآن تذكرت لقد طرقت هذا الخانوت منذ أسبوع فاشترت منه شربة زيت خروج ، وأذكر أن الصيدلى صاحبه رجل قبيح الوجه ذو طلعة شنعاء ، وفك كفك الحمار .

فقال الرجل الضخم :

- الصيدلى نائم والحمد لله ، وأحسب أن زوجته نائمة كذلك ، ما أجملها يا صديقى ، لكانها والله قطعة من الفالودج ، تبرق بريقا ، وتهتز اهتزازا .

قال النحيف :

- لقد رأيتهما ، وشد ما استملحتها ، قل لى يا دكتور ، ترى من الجائر أنها تحب ذلك الصيدلى ، فك الحمار ؟

فقال الرجل السمين :

- ذلك محال يا صديقى «أوبتيوفوز» ، وما أحسب أن هذا النحيف الصيدلى يعرف قيمة هذه الحسناء ، وما كان لغبى مثله أن يفتن إلى ما ضمنت صورتها البديعة من آيات الجمال ، وكأننى به لا يكاد يميز بينها وبين زجاجة من حامض الكربوليك .

قال الضابط :

- اسمع يا حضرة الدكتور ، ما رأيك فى تعريجة على هذه الصيدلية وشراء

شيء من سلعها ، فلعلنا - إن فعلنا - ملاقون الغادة الحسناء ففائزون منها بنظرة
تشفى الغليل ؟ ..

قال الدكتور :

- ما هذا الجنون ؟ أفى مثل هذه الساعة من الليل ؟

- وماذا يكون ؟ ما أرى فى ذاك من حرج ، إن الصيدليات ملزمة أن تفتح
أبوابها لكل طارق ، ولو كان فى الليل ، هلم بنا ندخل ...

- إن شئت .

سمعت زوجة الصيدلى من خلف الستارة دقة على الباب ، فصوبت نظرة
سريعة إلى زوجها ، وكان لا يزال يغط ويتشم فى نومه ثم ارتدت ثوبا وشبشا ،
وجرت إلى الدكان .

وتراعى لها خلف زجاج الباب شبهان ، ورفعت ذبالة المصباح وهرعت إلى
الباب لتفتحه ... وفى تلك اللحظة لم تشعر بضيق ولا ملل ولا سامة ولا ضجر ،
ولا بحاجة شديدة إلى البكاء والانتحاب ، وإن أحست فى قلبها بخفقان شديد ،
ودخل الدكتور الضخم والضابط النحيف ، وكان الأول شحيما لحيفا ، أسمر
اللون ذا لحية وحفة ، ثقيل الحركة ، وكان الضابط حليق الذقن مورد الوجه
مؤنت الهيئة ، بضاً ، رشيق الحركة .

وقالت زوجة الصيدلى ، وغطت بثوبها ناهديها ونحرها :

- ماذا تبغيان ؟

فقال الدكتور :

- أعطينا .. أ .. أ .. أقراص نحتاج بأربعة بنسات ..

فعمدت الحسناء بمنتهى التباطؤ والتلكؤ إلى بعض الرفوف فتناولت من فوقه
زجاجة وشرعت تزن أقراص النعناع ، وجعل الرجلان يحدان النظر إلى ظهرها ،
وزر الدكتور السمين عينيه على نحو ما يفعل القط المألوف ، أما الضابط فكان
على أتم ما يكون من الرزاة والوقار . وقال الدكتور :

- هذه أول مرة رأيت سيدة تباع العقاقير فى صيدلية ..

قالت زوجة الصيدلى ، واختلست النظر من مؤخر عينها إلى الضابط الأحمر
اليدى :

- لا غرابة فى ذلك ، إن زوجى لا يتخذ فى حانوته صبيا يساعده ، فأنا
صبية المساعد .

قال الدكتور :

- ونعم المساعد ، وهنئا لمن كان له صبى مثلك . ولكن خبرينى ، أما تخافين
أن تمسى هذه السموم ؟

وتقدمت الحسنة إلى الدكتور فناولته أقراص النعناع فى كيس مختوم ،
وأعقب ذلك فترة سكوت ، تبادل الرجلان خلالها النظرات ثم تقدما خطوة نحو
الباب ، واستأنفا تبادل النظرات ثانيا . وقال الدكتور :

- أعطينا قليلا من الصودا ، بثلاثة بنسات فقط ...

فرفعت الحسنة يدها إلى الرف بأقصى متهى البطء والفتور والتراخى .

وقال الضابط بصوت خافت وهو يحرك أصابعه :

- أما لديك فى هذا الدكان من شىء .. شىء منعش .. أريد أن أقول ..
شىء لذيذ .. ماء سيلزار مثلا .. ؟

فقال المرأة :

- بلى ، وعندى ذلك أيضا .

- براقو ! .. أحضرينا زجاجة !

فاختفت الحسنة من خلال باب فى حجرة خلفية مظلمة .

وقال الدكتور وغمز بعينه :

- وأيم الله إنها لتفاحة ! كلا والله ، ولن تجد لها ضريبة ولا نظيرة فى أنضر
بساتين الأندلس و « مديرا » ، مارأيك ؟ أما تسمع شخير صاحبك ؟ . ذلك
هو جناب الصيدلى يحلم أحلامه الهنيئة .

وعادت الحسنة من خزانة المشروبات موردة الوجنتين تحمل زجاجة ماء
سيلزار ، فقضت ختامها وصفت الكؤوس .

وقال الضابط يخاطبها وقد أسقطت البريمة على أرض المكان فسمع لاصطدامها
صليل :

- رويدك ، لئلا ينتبه زوجك من منامه ..

- وماذا علينا لو انتبه ؟

- إنه يشخر ألد شخير ، ما أحسب إلا أنه يحلم بك ... فى صحتك !

قال الدكتور ، وقد أصابه الفواق (الزغطة) عقب الكأس الأولى :

- شر مخلوقات الله الأزواج ، فأولى لهم ألا يزالوا نائمين .

وسرعان ما فرغت الزجاجاة ، وقال الدكتور :

- واه ! واه ! على زجاجة من نبيذ مالجا ... لماذا لا يباع النبيذ فى الصيدلية

كما تباع الأدوية ؟

- أجل وعندنا ذاك أيضا ...

- هات زجاجة .

وجلس الرجلان على البنك ، ونزعا قلنسوتييهما وشرعا يشربان الراح . وقال

الدكتور :

- النبيذ ردىء جدا ، ولكنه على وجه هذه الحساء ألد عندى من المن

والسلوى ! ما .. ما .. أملحك يا غادة ! أنت ألد عندى من ال .. ال ..

السنبو .. بو .. بو .. بوسك ! إني لأكلك بالضمير وأشربك ، وإني لأنهش

بأسنان الخيال تفاحة خدك !

فتوهجت المرأة خجلا ووجلا ، وكست وجهها سيما الجد والوقار وقالت :

- حسبك وكفى !

قال الدكتور ونظر إليها نظرة خبيثة من تحت حاجبيه :

- دعك من هذا الرياء يا كاهنة ، لكأن عينيك تقذفان بقتابل « هوتزر » بم !

بم ! بم .. إني لأرفع إلى سدتك العلية أخلص التهاني وأركع تحت قدميك

اللطيفتين خاشعا ذليلا ! لقد انتصرت وانهزمتنا ، وظفرت واندحرنا :

لأتعذلونى وإياها على ضرعى وزهوها ، فكلا الأمرين ديدان

إني مُلِكت ، فلي بالرق مسكنة وتملكت ، فلها بالملك طغيان
وإذ ذاك نفضت الحسناء عن أعطافها ثوب الوقار ، واستأنست إلى الرجلين
واسترسلت معهما في ميادين الطرب والسرور ، وأخذت في أفانين الضحك
والفكاهة ، بل لقد شربت معهما - بعد إلحاح - كأسين من النبيذ ، وقالت :
- ماذا عليكم - معشر الضباط - لو أكثرتم من زيارتنا ، ما أشد وحشتي
بهذا المكان وما أَمْض أَلَى ! لقد أوشكت أن أموت سامة وضجرا !

قال الدكتور :

- ولا عجب ، لأنّ والله الدرة اليتيمة قذف بها في مزبلة ! كان لك الله
في وحشتك وكربتك .. وبعد فلقد آن لنا أن نذهب ، إني مسرور بهذا التعارف ،
كم حسابك ؟

فرفعت زوجة الصيدلى ناظر إليها إلى السقف وحركت شفثيها في صمت .
ثم قالت :

- اثنا عشر روبلا وثمانية وأربعون كوبيكا .

ودفع لها الدكتور المبلغ ، وبعد كثير من عبث الكلام وفضوله وكثير من
الضغظات على كف الحسناء والقرصات واللثامات ، خرج الرجلان من الدكان
في منتهى البطء والتواني يكثران من التوقف والتلفت كأنهما قد نسيا شيئا يحاولان
إدراكه .

وعادت المرأة مسرعة إلى حجرة الرقاد ، وأطلت من النافذة ، فأبصرت الرجلين
يتمشيان على أدنى مهل ، حتى إذا صارا على نحو عشرين خطوة من الحانوت
وقفا ، وأخذا يتهامسان ... فيم يتهامسان ؟ شد ما خفق فؤادها ، ولم تدر
لماذا ؟ .. لقد خفق فؤادها ، كما لو كان في أيدي هذين الرجلين المتهمسين ،
مصير أمرها ومستقبل حياتها !!

وبعد خمس دقائق مضى الدكتور في سبيله ، ورجع الضابط إلى الحانوت
فمر به دفتين وجعل يقف ببابه ثم يخطو خطوات قليلة ويعود .. وأخيرا دق
الجرس ...

فانتبه زوج المرأة بغتة وصاح بصوت بشع منكر :

- من الطارق ؟

ثم وثب إلى قدميه وارتدى ثوبه ، وهرع إلى الدكان يتخبط نعاسا وصاح :

- ماذا تريد ؟

فقال الضابط :

- أقراص نعناع بأربعة بنسات ...

وطفق الصيدلى ينخر ويعطس ويتشاءب وينعس أثناء مشيه ، وتصطدم ركبته بالمقاعد والبنك .. حتى وصل إلى الرف .

وبعد دقيقتين ، أبصرت المرأة الضابط خارجا من الدكان ، ثم رآته بعد بضعة خطوات يقذف كيس النعناع على ظهر الطريق ، وعند المنعطف استقبله الدكتور صاحبه ، فبادلا كلمتين ثم اختفيا فى ضباب الصباح ، وتنهدت المرأة ، وهى تنظر بعين الغضب والحنق إلى زوجها عائدا إلى فراشه .. وقالت والدموع ذوارف تجرى على الخدين والجلباب :

- ما أشقانى وما أتعسنى ، وما أنكد حظى وما أمر عيشى ! ولا أحد يعلم ، ولا أحد يدرى ...

المربية

للقصصى الروسى أنطون تشيكوف

كانت « ماشنكا » فتاة صغيرة خريجة إحدى المدارس العالية تشغل وظيفة مربية فى بعض الأسر الثرية ، ولما عادت ذات يوم من النزهة إلى دار الأسرة المذكورة ، ألفتها فى ضجة وفى هرج ومرج ، وصادت الوصائف والخدمات فى الردهة مضطربات شاحبات وإحداهن تبكى وتنحب ، ثم أبصرت سيد الدار « نيقولا سرجيش » - وهو رجل قصير مترهل الوجه أصلع الرأس - خارجا يعدو من باب غرفتها محمرا الوجه ، منتفض الأوصال ، ومر بها دون أن يراها ، ورفع ذراعيه كالمستجير من كارثة أصابته وصاح :

- ما أظفح هذا ! ما أشنع وما أبشع !

ودخلت « ماشنكا » غرفتها ، فألفت سيدة الدار تجرى بها تفتيشا دقيقا ، لقد أبصرت تلك السيدة « فيدوسيا » الضخمة القبيحة الشكل الكثيفة الحاجبين الخضراء الشارب ، الحمراء اليدين ، الشبيهة بالطباخات هيفة وسحنة ، وآدابا وأخلاقا ، واقفة ، عارية الرأس ، إلى المائدة ترد فى صندوق « ماشنكا » ما كانت أخرجت منه من أدواتها : بكر خيط وإبر وكستبانات ، وخرقا ، وقصاقيص ، وركامة ودنتلة ، وأشرطة وأوراق ، وكأنها فوجئت بمقدم « ماشنكا » فأصابتها حيرة وارتباك وشيء من الحياء والخجل وقالت للفنانة المربية :

- معذرة ، معذرة ! - لقد قلبت الصندوق غير عامدة ، إذ اشتبك به كفى .. قالت ذلك وخرجت مسرعة :

أجالت « ماشنكا » بصرها فى أرجاء حجرتها وحرار فكرها فى ذلك الأمر العجيب ، فهزت كتفيها ، واقشعر جسدتها جرجا ، ولماذا ، وعن ماذا كانت السيدة فيدوسيا تفتش فى صندوقها ، وإذا كان حقا ما زعمت من أن كمها

اشتبك اتفاقا بالصندوق ، فلماذا انطلق زوجها من باب الغرفة آنفا ، أحمر الوجه مضطربا يضح ويشكو ؟ ولماذا أحد أدراج المنضدة بارز عن موضعه قليلا ؟ ولماذا العلبة المشتعلة على وفريها ومدخرها من الدراهم وطوايع البريد مفتوحة ؟ ولماذا كل شيء بالغرفة عليه آثار عملية تفتيش حديثة العهد ؟ .. فلماذا كل هذا ؟ .. لماذا ؟ .. ماذا حدث وماذا جرى ؟ أليست هذه كلها شواهد على أنها زجت فى تهمة خبيثة ؟ وهنا أصفر وجهها ، وسقطت على سلة البياضات ، خائرة القوى .

ودخلت عليها إحدى الخادومات فى تلك اللحظة فخاطبتها ماشنكا « قائلة :

- خبريني يا « ليزا » أعلمين ما الذى حدا بهم إلى تفتيش حجرتى ؟

- لقد فقدت السيدة مشطا من الذهب مرصعا بالجواهر ، قيمته ثلاثة آلاف روبل .

- ولكن لماذا يفتشون حجرتى ؟

- إنهم لم يتركوا موضعا إلا بحثوه ، ولا أحدا إلا فتشوه ، لقد فحصوا حجرتى أنا أيضا ، لقد جردونا جميعا من ثيابنا وفتشونا عرا ، وشهد الله يا سيدتى أنى منذ دخلت هذه الدار ما دنوت قط من حجرتها الخاصة ، فكيف بلمس أمشاطها المرصعة ؟ وهذا ما سوف أقوله فى البوليس إن اقتضت الحال ذلك .

كل هذه البيانات لم تقنع المسكينة « ماشنكا » فكررت سالف سؤالها :

- ولكن ما الذى حملهم على التفتيش ههنا ؟

- قلت لك إن أحد أمشاطها المرصعة قد ضاع ، وأنها لم تدع شبرا ولا فترا فى طول البيت وعرضه إلا أوسعته بحثا وتنقيا بنفسها ، حتى البواب الهرم المضعف « ميخائيل » لم تدعه حتى فتشته أيضا ، هذه والله مخزاة ، بل مأساة ! إنها تعيش فى البيت فسادا كالبلوّة الضارية ، وزوجها بإزائها مستكين خاضع ، مضروب على يديه ، مغلوب على أمره ، قصاره أنه يقرع السن ندما ، ويقوقىء كالإجابة المعورة ، ولكن هونى عليك ، وسكنى من روعك ، فإنه لا بأس عليك ولاضير ، إنهم لم يجدوا لديك شيئا .

قالت ماشنكا وأوشكت تمخض غيظا وحنقا :

- ولكن هذه إهانة عظمى يا صديقتى ليزا ، هذه نكبة ومصيبة ! هذه قصوى غاية السفالة والخسة والدناءة ! .. بأى حق يتهموننى ويفتشون مكانى ؟ ..
- أذكرى يا سيدتى أنك وسط قوم أجانب ، فأنت وإن كنت من أسرة شريفة ، لا تزالين على أية حال ... لا تؤاخذينى ... خادمة ... ولست كما لو كنت بين أملك وأبيك .

فانطرحت ماشنكا على فراشها وأجهشت بالنحيب تبيكى بكاء مرا ، لم تلق فى حياتها ، منذ كانت ، محنة أشد من هذه ولا نكبة أفدح ... رحماك اللهم ولطفلك ! أبعد التربية العالية والتهذيب وبعد ما شهد لها الملاء بطيب الأصل والفرع ، وشرف الأحساب والأنساب تلصق بها تهمة السرقة ؟ ويجرى عليها من التفتيش ما لا يجرى إلا على أخط الرعاع والسوقة ؟ ومن يدري ما عساه ينزل بها من المكروه بعد ذلك ؟ لقد ازدحمت الهواجس المزعجة والوساوس الكاربة على مخيلتها ، لقد أوجست أن يقبضوا عليها ، ويعروها فيفتشوها ، ثم يرسلوها خلال الطرقات والشوارع فى حرس من الجند فيقذفوا بها فى سجن ضيق مظلم ، كالذى حبست فيه من قبلها ماري « ملكة اسكوتلندة » و « ماري أنطوانيت » ملكة فرنسا والأميرة « ناراكانوف » الروسية ، ثم حملن منه جميعا إلى المشتقة - أو المفصلة - وما من حام ولا واق ، وما من عون ولا ناصر .

وتذكرت « ماشنكا » أنها كانت قد خبأت فى البياضات ، تحت ملاءات الفرش وأكياس المخدات حفتين أو ثلاثا من الحلوى : مشبك ، وبقلاوة ، وشكولاتة ، وهريسة ، كانت قد حملتها فى جيوبها من مائدة الغداء ، جريا على عاداتها المتأصلة فيها منذ كانت بالمدرسة تلميذة ، فلما تذكرت ذلك وأن سيدة الدار لا بد أن تكون - أثناء تفتيشها الصندوق - قد أبصرت تلك النفائس المكنوزة وأبرزتها لأبصار المتفرجين من وصائف البيت وخادmates ، أصابها من مضض الخجل وغضاضة الخزي ما أصابها ، فانفطر قلبها حزنا ، وذابت كبدها أسى وشجنا وألح على فؤادها الحققان وسرى منه إلى أحشائها وأمعائها وسائر جوارحها وأوصالها ، حتى كاد أن يغشى عليها . ونادتها الخادمة :
- هلمى إلى مائدة الغداء ...

- أذهب أم لا ؟ ..

ورجلت شعرها ومسحت آثار الدموع من محياها ، ومضت إلى غرفة الطعام ، فألفت الأسرة حول الخوان ... سيدة الدار في الصدر وعلى الجانبين الضيوف والأولاد ، وكان السكون مخيما على الجميع كأن على رؤوسهم الطير ، وكأنهم في جنازة .

وافتحت السيدة الكلام ، فالتفت إلى خادم المائدة وسألته قائلة :

- ماذا عندك من الألوان الآن ؟

فأجاب الخادم :

- سملك مقل :

فبادر زوجها « نيقولا سرجتش » وقد لحقته حيرة واضطراب ، قائلا :

--لامواخذة يا حبيبتي ، أنا الذى أوصيت بهذا الصنف ، إننى مولع بالسمك المقل كما تعلمين ، وعلى أية حال ، فإن كنت لا تشتهيته فليست بأكله فليردوه وليأتوا بما شئت من الألوان بدله ، لقد كانت منى هفوة فسامعيني ...

وكانت السيدة فيدوسيا لا تحب من الألوان إلا ما تكون هى نفسها قد أمرت به ، فغز عليها ذلك وساءها حتى اغرورقت عيناها :

فتدخل طيب الأسرة ماميكوف فقال لها بصوت معسول تشفعه ابتسامة معسولة :

- لا بأس عليك سيدتى لا تأسى ولا تحزنى ، فحسبنا ما نحن فيه من قلق وكدر ، واطرحى الهموم ، وانسى مسألة المشط ، فكل ما فى الدنيا من أنشطة فدء لأدنى شعرة من ضفائرك الغالية ، واذكرى أن صحتك أنفس بكثير من ثلاثة آلاف روبل :

فأجابت السيدة وتحدرت على وجنتها دمة كبيرة :

- ليس أسفى على الثلاثة الآلاف ، ولكن على الحادثة ذاتها ، أنا لا أطيق بقاء اللصوص فى منزلى ، لا يهمنى المال ، ولكن الغدر والخيانة ونكران الجميل تسوءنى وتؤلمنى .

فأطرق الكل ينظرون فى صحوهم ، ولكن ماشكا خيل إليها أنهم إليها ينظرون ، فنشبت فى حلقها غصة ، وشرعت تبكى ، وقد وضعت منديلها على شفيتها . وقالت بصوت خافت :

- لا أستطيع البقاء لحظة أخرى ، عن إذنكم إن بى صداعا ، إنى ذاهبة .
ثم نهضت من مكانها وانطلقت بسرعة تتعثر حيرة واضطرابا .

عند ذلك عبس سيد الدار نيقولا وقال :

- هذا والله ما لا يطاق البتة ! أكان يليق بنا تفتيش غرفة الفتاة ؟ أية حاجة كانت نحدونا إلى اقرار ذلك المنكر ! ..

فأجابت زوجته فيدوسيا :

- لا أزعم أنها سرقت المشط ، ولكن هل تستطيع أن تحتل عنها مسؤولية ذلك ؟ الحق يقال إنى ضعيفة الثقة بأولئك الشحاذات الأديبات العالمات .

- والحق يقال إنها كانت منا خطيئة عظيمة ، معذرة يا حبيبتي فيدوسيا ، ولكنى أقول إنه لم يكن لك أدنى حق قانونى فى تفتيش غرفتها .

- دعنى من قوانينك وشرائعك ! وكل ما أعرف هو أنى فقدت مشطى ولا بد أن أجد مشطى ! ..

وأنزلت الشوكة على الصحن بصدمة هائلة زلزلت أركان المائدة ، واستطار شرر الغضب فى مقلتيها : « الفتة إلى وأنصت إلى ما أقول . لا شأن لك ولا دخل فى أدنى شئ من هذا ، وكل ما عليك هو أن تأكل طعامك فى سكوت ، ثم لا تتدخل فيما لا يعينك ! »

فنكس المسكين نيقولا عينيه وغض من بصره ، وتنفس الصعداء ، وخشع واستكان كأذل ما يكون العبد الذليل .

وفى هذه الأثناء كانت ماشكا قد بلغت غرفتها فقذفت بنفسها على الفراش ، لم تشعر إذ ذاك بما كان يتملكها قبل من الخوف والخبجل ، وإنما شعرت برغبة شديدة فى الذهاب إلى تلك المرأة القاسية الجافية ، البليدة الغبية ، ثم تبصق فى وجهها وتلطمها لطمة تتر صف أسنانها . وكذلك لبثت منطرحة على فراشها

ترسل زفراتها الحارة فى ثايا وسادتها ، وجعلت تمنى لو يمكنها الله فى الحال من أن تذهب فتشترى أغلى مشط فى سوق الصاغة ثم تقذف به فى وجه تلك المرأة الوقحة ، وتمنى لو ينزل الله البؤس والفاقة بتلك الشريرة الساقطة فتمشى فى الشوارع شحاذة تتسول ، ثم تصادفها ماشنكا ، فتذكرها بما كان منها من هذه المساءة والمهانة وتكافئها على ذلك بإعطائها حسنة ، وثوبا قديما ورغيفا .
واها ! واها ! وأما لو من الله عليها بثروة طائلة ! إذن لاشرت مركبة فخمة ، ومرت عليها بضوءاء « وكركة » تحت نوافذ هذا البيت حتى تقتل هذه المرأة الفاجرة حسدا وغما !

ولكن هذه كلها كانت أحلاما ، أما الواقع فإنه لم يكن أمامها من حيلة إلا مغادرة المنزل فى الحال ، فوثبت من فراشها ، وشرعت فى جمع أمتعتها وأدواتها .

- أسمحين لى بالدخول ؟ .. كذلك قال رب البيت نيقولا سرجتش وكان بباب الحجره واقفا ، وكرر سؤاله بصوت خاشع ونغمة حزينة .

- أسمحين لى ؟ ..

- ادخل ...

فدخل ووقف مطرقا محزونا قرب الباب وكانت عيناه نديتين وأنفه الأحمر الصغير يلمع وكان من عادته شرب البيرة عقب الغداء وقد تبين ذلك فى مشيته وفى يديه المسترخيتين الواهتين .

وقال وأشار إلى السلة :

- ما هذا ؟

- إني أجمع أمتعتى معذرة يا سيدى ، إني لا أطيق البقاء فى دارك .

- إني أفهم ما تقولين .. ولكنك مخطئة .. لماذا تذهبين ، لقد فتشوا غرفتك ، ولكن أى ضرر عليك فى ذلك ؟ ... إنه لا منقصة فيه لقدرك ولا غضاضة .

سكتت الفتاة واستمرت على جمع أدواتها وجعل نيقولا ينتف شاربيه وعثنونه ، يفكر ماذا يقول لها وكيف يعتذر ثم استأنف الكلام فى اضطراب ولجاجة ...

- قد يكون لك بعض العذر ، ولكن يحسن بك أن تذكرى ما تقاسيه زوجتى من مرض الأعصاب ، فتصفحي عن زلتها ...
لم تنطق الفتاة بكلمة واسترسل نيقولا فقال :
- إن كان قد ساءك ما جنت زوجتى ، فإنى أعتذر إليك ، إنى أسألك العفو والمغفرة .

لم تعجب ماشنكا ، واستحثت همتها فى جمع أدواتها ، وما قيمة اعتذار هذا الرجل المستضعف المحتقر فى داره ، الدليل الخاضع المهين ، الذى لا قدر له ولا خطر حتى لدى الخدم ؟
وتماذى فى مقاله ...

- إحم ! ... أراك لا تحيين ، أليس بكيفيك اعتذارى إذن فإنى أعتذر إليك عن زوجتى ، إنى أستمحلك العفو باسم زوجتى ، لقد أذنبت إليك وارتكبت فى حقك منكرا ، وإنى باعتبارى رجلا شريفا أعترف لك بذلك .
ثم جال بالغرفة جولة وتنفس الصعداء وقال :

- أراك تريد أن لا يزال هذا الجرح يدمى تحت جوانحي ، وتلك الجذوة تشتعل فى كبدى ... وأن لا أبرح من لدع الضمير فى ألم مضاض وحرقة كاوية .
قالت ما شنكا :

- قد أعلم أنه لا جناح عليك فيما جرى ، وأنتك منه برىء فلماذا تعذب نفسك ؟

قالت له ذلك ودمعها بين متحير ومتحدر ...

فأجاب الرجل قائلا :

- إنى على أية حال أبتهل إليك ضارعا أن لا تفارقينا ...

ولكن ماشنكا هزت رأسها إباء ورفضاً ...

ووقف الرجل لدى النافذة ، وجعل ينقر على زجاجها بأنامله وقال :

- إن عنادك هذا يكاد يقتلنى ، أتريد أن أخر راكما إليك ، أم ماذا ؟ ..

تقولين إن كرامتك قد خدشت ، أنت وحدك ذات كرامة ، وأنا لا كرامة لى

ولا عزة ولا شعور ! إنك تملقن الدنيا صياحا إن مست كرامتك ، ثم أراك تدوسين كرامتي بنعليك ولا تبالين ، أفأنت ذات شعور ، وأنا صخرة صماء ! أم تريدن أن أعترف إليك بما لا أعترف به إلا إلى القسيس ساعة الوفاة ! .. أما وقد آيت إلا ذاك فاسمعي أحدثك ، وأصغى أعترف إليك ...

لم تحر الفتاة جوابا ... وقال نيقولا سرجتش :

- أنا الذى سرفت المشط ... أيكفيك هذا ؟ أيسرك هذا ويرضيك ؟ أجل ، أنا ... أنا الذى أخذته ، ولكن إياك أن تبوحى بهذا السر لإنسان أيا كان ، إني أثق بمروءتك وشفرك ، آيت عليك بالذى خلقتك فسواك لا أفشيت هذا السر ولا بحث به لأحد ! ...

فدهشت ماشنكا لذلك وارتاعت ، وما زادها هذا الاعتراف العجيب إلا إسراعا فى جمع أدواتها ، فأقبلت تلتقطها من ههنا وههنا وتختطفها وتنزعها وتلفها تطويها بلا تؤدة ولا أناة ولا عناية كيفما كان ، وتقذف بها أيا كان ، فى السلة أو فى الصندوق أو فى الحقيبة .

واستمر نيقولا سرجتش فى اعترافه ، قال :

- ولا عجب ولا غرابة فيما آتيت من اختلاس ذلك المشط ، وما هو بالأمر البديع ولا المستنكر ، وإنما هو مالا يزال يحدث كل يوم فى كل دار ومنزل ، والأمر وما فيه ، أنى أريد الدراهم وهى تأبأها على ، وتمنعها عنى ، على أن المال مال أبى ، والعقار عقار أبى ، والضياع ضياع أبى ، وليس لها فى هذه الثروة الواسعة شىء البتة ، وإنما كل شىء ملكى بحق الميراث شرعا وقانونا ، أجل كل شىء ملكى ، وهذا المشط الذى سرفته اليوم هو أيضا ملكى ، وكان ملكا لأمى من قبل ، ولكنها أخذته كما أخذت كل شىء سواه ، لقد ابتلعت كل شىء وابتلعته فيما ابتلعت ، وماذا أصنع ؟ أخاصمها إلى الحكام ، وأذهب معها إلى القضاء ؟ ذلك مالا أستطيعه بحال ، لذلك أرجوك أن تضربى صفحا عما كان ، وعفا الله عما سلف . أرجوك ، وأبتهل إليك وأتضرع أن لا تفارقينا ، خيرينى ، أتيقن معنا ؟

قال ماشنكا :

- كلا ! وعرتها رعدة شديدة - كلا وألف كلا ! .. دعنى وشأنى ، أرجوك ، أرجوك ! ..

فقال نيقولا متنهدا :

- الأمر لله بارك الله فيك وعليك ، وأصحبك السلامة فى حلك وترحالك وكذلك قد آيتت إلا رحيلاً ، إني أفهم ... إني أفهم ، لا حيلة لك سوى هذا ، وأراك من ذلك الصنف الذى يأبى الضيم ولا يحتمل الهوان ... هنيئاً لك لقد فزت ونجوت ... أما أنا فقد كتب على أن أظل ههنا فى نار الجحيم حتى أموت فأقبر ، ويلى ... ثم ويلى ! ...

وهنا سمع نداء زوجته من غرفة الجلوس تصيح :

- نيقولا ! نيقولا ! ليزا .. نادى سيدك ...

وكان نيقولا قد جلس على مقعد يستريح من طول الوقوف ، فنهض فى الحال ، وأسرع نحو الباب ، ثم التفت إلى ماشنكا وقال :

- وكذلك قد آيتت إلا الذهاب ، ليتك تبقيين معنا ، لقد كنت خير سمير لى ومؤنس وكنت أقصر ليل الشتاء بحلاوة حديثك وأدفع غاشية الملل والسامة بجميل عشرتك . ويلى ، ثم ويلى ، ليتك تبقيين ههنا ، ولكن ذهبت ، لم يبق فى هذه الدار وجه آدمى ، بل تكون بمريض من الوحوش الضاريات أشبه منها بمساكن البشر ، ما أمر العيش ههنا ، وما أبشع الحياة ؟

وكذلك فارق الرجل الفتاة موجه القلب دافع العين ، ومضى إلى زوجته ... وبعد نصف ساعة غادرت الفتاة الدار إلى الأبد ...

أحبك

للقصصى الروسى أنطون تشيكوف

كنت واقفا والفتاة « نادنكا » - وهى متعلقة بذراعى - على قمة تل عال يمتد من تحت أقدامنا إلى الحضيض منحدره ، مغشى بطبقة من الثلج يتجلى منها قرص الشمس على مثل المرأة المصقولة ، وإلى جانبنا مزقة (مركبة للانزلاق فوق الثلج) مبطنة بالقطيفة الحمراء ، وكنا فى نهار مشرق فى كبد الشتاء .

قلت لها : هلم ننحدر إلى الحضيض يا « نادنكا » مرة واحدة ليس إلا ! لا تخافى فلن يصيبنا شيء .

ولكن الفتاة كانت تخاف الهبوط ، لقد بدا لها ذلك المنحدر المتشلى مخوفا هائلا خطرا المزلّة ، كأنه المهواة السحيقة القائمة الأعماق ، لقد خانتها قواها ، وجبست أنفاسها وهى تشرف من ذروته الشاهقة إلى الحضيض الأوهده ، لقد خيل إليها أن اندفاعها فى تلك الهاوية سيقذف بها إما إلى الموت أو إلى الجنون ! وقلت لها : إنى أرجوك مبتهلا ألا تخافى ! واربى بنفسك أن يقال منخوبة الفؤاد ترعابة .

واستسلمت الفتاة أخيرا ، ولكن على مضض ، وإن قامتها الهيفاء لتتنفض فى قبضة الروح كالقناة فى يد الفارس ، وأجلستها على المزلّة صفراء ترتعد وطوقتها بذراعى ، وقذفت بها وبنفسى فى أعماق الهاوية ...

وهوت بنا المزلّة كالشهاب المنقض والسهم المارق ، تشق جلايب الهواء والريخ تضرب وجهينا بسياطها اللذاعة وتقصف من حولنا وتزجر كأنما تحاول انتزاع رأسينا من بين أكتافنا وكان يشق علينا التنفس لفرط ضغط الريح ، وكأنما الشيطان الرجيم نفسه قد أنشب فينا أظافره يطيح بنا صارخا إلى جهنم ، وكأننا أصبحنا من الهلاك المحتم قاب قوسين أو أدنى .

وفى وسط هذه العاصفة النائرة قلت للفتاة بصوت خافت :

- نادنكا ... إني أحبك !

وهنا بدأت سرعة المركبة تقل شيئا فشيئا ، ودفعتها العيفة العسافة تترامى ، وزئير الريج وصرير العجلات يتناقص هوله وشناعته ، وهان علينا التنفس ، وما لبثنا أن بلغنا الحضيض ، والفتاة بحال أقرب إلى الموت منها إلى الحياة ... وحملتها من المزلقة فأفرشتها أديم الثرى . ورمقتى بعينين نجلاوين خالط السحر فيهما الوله ، وما زج الرعب الحور ، وقالت :

- ما كنت لأعيد الكرة ولو أن لى ما بين الخاققين ، لقد كدت والله أن أهلك .

وبعد هنيهة أفاقت ونظرت إلى كالمستفسرة وكأن أحاطها الفاترة المريضة تسألني هل نطق فمى حقا بتلك اللفظة الساحرة « إني أحبك » أم كان ذلك خيالا أثارتة ضجة الريج فى مصورتها ووهما ؟ ..

وإزاء عينيها المتسائلتين ألزمت نفسى الصمت والإطراق أدمن النظر إلى قفازتى .

وأخذت بذراعى ولبثنا برهة طويلة نسير إلى جانب التل المتلجج ، وكان ذلك للغز العويس الخفى قد حيرها ، وشغلها وأقلقها ... أحقا صدرت منى تلك الكلمة « إني أحبك » أم لم تصدر ؟ .. نعم أو لا ... نعم أو لا ؟ على تلك اللفظة الموجزة تعلقت كرامتها وعزتها وشرفها وحياتها ... تلك لعمرك مسألة خطيرة ... بل أخطر مسائل الحياة ... واستمرت « نادنكا » تديم نحوى كرة الطرف بنظرة حيرى موهة ملؤها الحزن والإشفاق والرجاء واليأس والقلق ، وجعلت لا تبالي بما كنت ألقى عليها من عادى الكلام ولا تحفل وتذهل عن رد الجواب مرارا ، وكلها تطلع إلى أن تسمع منى بيانا وشرحا عما بدر منى إليها من تلك الكلمة الهائلة ، فى سبيل الله ما كان يتناها إذ ذاك من قلق البال والبلبال ، وما توزع قلبها من الهواجس وتقسّم فؤادها من الوسوس وأثر ذلك من تضارب العواطف على صفحة عيائها الجميل الأغر الفاتن ! لقد كانت فى كفاح نفسانى ومعترك وجدانى ، تريد أن تسألنى سؤالا ، ولا تدرى كيف تصوغه ، وقد أعوزها

اللفظ وضاع منها الكلام واعتاص المنطق ، وكان يخامر روحها من السرور
ماراعها وبهرها وأزعجها وأكربها ..

وأخيرا قالت لى دون أن تنظر إلى :

- أتدرى ما خطر لى الآن ؟

قلت لها : ماذا ؟

- نعيد الكرة ، ننحدر على التل ثانية ...

صعدنا التل على سلاله المعدة لذلك ، وأجلست « نادنكا » على المزلقة صفراء
ترتجف ، وطحننا فى المهواة المخوفة الهائلة ثانية ، وعاودت الريح زفيرها والعجلات
صريرها ، ولما بلغت العاصفة أشنعها أعدت كلمتى السالفة بصوت خافت :

- نادنكا ... إني أحبك !

حتى إذا استقرت المزلقة بالحضيض نظرت الفتاة فى وجهى نظرة طويلة ،
وأصغت إلى صوتى ولم يكن به أدنى أثر من الشعور والعاطفة ، وكان يبدو على
شخصها الغض الرقيق وعلى كل جارحة منه بل على ذيل رداها ونطاقها وقناعها
أوضح آيات الاضطراب والقلق والحيرة ، وكأنما قد نقش على صفحة وجهها
بأسطر من لُهب « ما معنى هذا وما فحواه ؟ .. ومن ذا الذى فاه بهذه ؟ الكلمة ،
أهو الذى قالها أم خيل إلى ؟ »

لشد ما ساءها ذلك الشك والارتباب ، وآلمها ذلك الغموض والإبهام ، لقد
أعرضت عن حديثى وأمسكت عن إجابتى ، ثم عيست واغرورقت بالدموع
عينها .

قلت لها :

- أما يحسن بنا أن نعود إلى البيت ؟

فقلت وتورد وجهها خجلا :

- أنا .. أنا أحب هذا الانحدار على الثلج .. هل لك فى انحدارة أخرى ؟

تقول إنها تحب الانحدار فوق الثلج ، على أنها ما كادت تستقر بالمزلقة حتى
عراها من الرجفة والاصفرار ما عراها من قبل ، وسلبها الرعب أنفاسها .

وهوينا للمرة الثالثة ، ورأيتها تحدد النظر فى وجهى ترقب شفتى ، هل
تتحركان بلفظ ، ولكنى غطيت فمى بمندبيل ، وأخذت أسعل ، ولما توسطنا
المسافة تمكنت من النطق بالكلمة المعهودة :

- نادنكا ... إنى أحبك !

مسيكة نادنكا ، لقد بقى ذلك اللغز لغزا ، لقد استحال عليها حله ،
فاستسلمت لقضاء الله وصمتت ، ثم أطرقت تفكر ، وشيعتها إلى دارها ، وحاولت
أن تسير الهوينا تراخى من خطواتها ما استطاعت وترقب منى أن أفوه بالكلمة
الخطيرة مرة أخرى ، وإنى لأنظر إلى روحها تكابد العذاب الأنكل ، وكأنها
تناجى نفسها قائلة :

- مستبعد من الريح أن تكون الريح هى الناطقة بتلك الكلمة ، وليس يودى
أن تكون الريح هى التى بها نطق ، وأخشى أنه لم يفه بها ولم يلفظ .

وفى غداة الغد جاءتني منها هذه الرقعة :

« إن كنت منحدرًا اليوم فوافنى - ن »

ومنذ ذاك واصلنا الانحدار كل يوم وفى كل مرة كنت أهمس إليها بتلك
الكلمة :

- نادنكا ... إنى أحبك !

لم تلبث الفتاة أن ولعت بسماع تلك الكلمة ولع البعض بالكحول والأفيون
والمورفين ، فأصبح لا تطيق الحياة من دونها ، لا أنكر أن رعبها من تلك الحركة
لم ينقصه التكرار مثقال ذرة ، ولكن هذا الرعب كان يضيف عنصرا عجيبا من
اللذة والعذوبة إلى تلك اللفظة الغرامية التى ما برحت لغزا غامضا وسرا خفيا ،
يتنحى روح الفتاة باللوعة والحرقه ، واستمرت توجه التهمة إلى اثنين : أنا والريح ..
لقد أعبى عليها أن تعرف أى الاثنين كان يصارحها الحب ويطارحها الهوى ،
على أنه لم يعد يهمها ذلك ، ولا جرم فنحن لا يهمنا من أى كأس نشرب ، مادام
الشراب مسكرا .

واتفق ذات يوم أنى ذهبت منفردا إلى التل المثلج فاختلطت بالزحام . وإذا بالفتاة تعمد إلى السلم ، وقد ملكها الرعب لانفرادها ، لقد استحال وجهها كالثلج بياضا ، وكانت ترعد وتتنفض ، ثم صعدت فى السلم ، وكأنما تصعد إلى المشتقة ، ولكنها مضت قدما ، لا تلتفت وراءها وكأنما قد عقدت نيتها وأبرمت عزمها ، وأصرت على أن تستطلع خيعة الأمر فتترلق على جانب التل منفردة لتستبين هل تطرق سمعها تلك اللفظة المستعذبة المستلذة فى غيبتها ، لقد رأيتها صفراء شاحبة مفترة الشفتين رهبة وفزعا ، ثم رأيتها تمتطى المزلقة وتغمض أجفانها وتودع الحياة الدنيا إلى الأبد ، ثم تقذف بنفسها فى الهاوية ، وصرت العجالات وجلجلت ... ولست أدري هل سمعت الفتاة فى انحدارها تلك اللفظة المعسولة ولا أستطيع أن أدري ، وكل ما أعرف هو أنها نهضت من المزلقة عندما استقرت مكدودة منهوكة القوى ، تدلك شواهد الشك والحيرة المرتسمة بوجهها على أنها لا تدري هل طرقت أذنها تلك الكلمة الخطيرة أم لم تطرق .

... ولعل فرط هلعها أثناء الانحدار قد سلبها حاسة السمع ، وتميز الأصوات وملكة الفهم والإدراك .

وأخيرا جاء الربيع بدفئه وإشراقه وذاب الثلج فانقشع ، وانصرف الناس عن تلك اللعبة ، ولم يبق فى هذه الدنيا العريضة مكان تؤمل الفتاة المسكينة أن تسمع منه تلك الكلمة الموسيقية .

... ولم يبق من أحد يقوها ، إذ لم تكن ثمت ريج ، وكنت أنا قد أزمعت إلى « بطرسبرج » رحلة لعلها بلا رجعة .

واتفق قبل رحلتى بيومين أنى كنت جالسا إبان الشفق الأخير فى البستان الواقع وراء ساحة دار الفتاة ، منفصلا عنها بسياج من الأعشاب المتكاثفة الملتفة ، فذهبت إلى ذلك السياج ولبت برهة طويلة أنظر من خلال شقوقه ، وإذا بالفتاة قد خرجت من انحدرها إلى الساحة وصعدت تلقاء السماء تنظر لطفى أسيفة ... وريج الشمال تهب على وجهها الأصفر المحزون ، تذكرها بتلك الريح التى كانت تصرخ حولنا على تلك الثلج حينما كانت تسمع تلك اللفظ لفتانة .

... لشد ما أحرزتها تلك الذكرى ، فزادت فى صفرة وجهها وشحوبه ، وأجرت على خدها الأسيل دمعة فريدة ... ورأيت الصبية المسكينة تمد ذراعيها إلى الريح خاشعة ، مبتهلة ضارعة ، كأنها تسأل الريح أن تجود عليها بتلك اللفظة المشتهاة مرة أخرى .

... وانتظرت أنا هبوب الريح ، حتى إذا تحركت لفظت بالكلمة المعهودة فى خفوت فحملتها إليها الريح :
- نادنكا ... إني أحبك !

رحماك اللهم وحنانك ! ما كان أشد وقع تلك الكلمة على الفتاة وتأثيرها ، لقد صاحت صيحة عالية ، وبرقت أساريرها وتهلل بحياها وأومض ثغرها وتألقت حسنا وتوهجت جمالا واشترأت منشورة الذراعين لتعانق الريح .

* * *

وعلى أثر ذلك ذهبت لآخذ الأهبة للسفر ...
لقد مضى على ذلك العهد حقب وأزمان ، وصاحبتى نادنكا اليوم ربة أسرة وأم بنين ..

... لقد زوجت - مكرهة أو مختارة - من رجل موظف ، باشكاتب ، أولدها خمسة صبية ، ولكنها لم تنس ما كان من لعبة الثلج ، ولا ما كانت تسر إليها به الريح من ذلك اللفظ الشجى الرخيم ، ولعل هذه الذكرى لا تزال عندها أمتع حسنات الدهر ، وأطيب ثمرات الزمان .. والآن وقد كبرت واكتهلت ، وأخذت من الحنكة والتجربة بالقسط الجزيل والسهم الوافر ، لست أدري ولا أستطيع أن أدري ما الذى حملنى على أن أنطق للفتاة بتلك الكلمة !! اللهم إلا أن يكون طيش الشباب ونزقه . !!

البؤس

للقصصى الروسى أنطون تشيكوف

« سيدى وولى نعمتى المجلل » ... بهذه العبارة افتتح موظف صغير « نيفرازيموڤ » رسالة تهنئة بعيد النيروز ، كان يتوى إرسالها إلى رئيس المصلحة ، أعاده الله وأمثاله أبد الآبدين عليكم وعلى أنجالكم بالخير العميم فى ظلال الرفاهية والصفاء ...

وكان المصباح الذى يكتب فى ضوءه ، يتضاءل شعاعه ويتكاثر دخانه وتقوح رائحته ، وقد كاد ينفد زيته ، وعلى أرجاء المائدة صرصار شارد يتوثب ويتنزى ، وبواب المصلحة « بارامون » ينظف حذاءه الجديد بالفرقة المجاورة ويصقله ، وبه من شدة الطرب وفرط نشاط الفرح ما ترك الفرشة يرن صوتها ويدوى صداها فى كافة حجرات المكان .

قال الشاب الفقير « نيفرازيموڤ » ، ورفع نظيره إلى سقف الغرفة القذر متحيراً :

- ماذا أكتب فى تهنئة المجرم الأثيم (يعنى رئيسه) بعد ذلك ، ويل له وألف ويل !

وأبصر بالسقف دائرة مظلمة - ظل المصباح - ومن تحت ذلك الظل الجدار قلداً ملوثاً ، وبدت له الحجرة تخيم على أرجائها الوحشة والكآبة والبؤس والنحس ، فامتلاً قلبه أسفاً على نفسه - وعلى زميله الوحيد فى وحشته وكربه - الصرصار ...

وناجى نفسه قائلاً :

سأبرح هذه الغرفة متى انتهت ساعات النوبتجية ، ولكن زميلى المسكين يستمر نوبتجياً ههنا طول مدة حياته الصرصارية .

ثم تئاءب وتمطى وقال : لقد ضاقت على الأرض بما رحبت ، وسئمت الحياة ! أأذهب أنا أيضا فأنظف حذائي ؟

ثم تئاءب ثانية وتمطى ، ومضى مسترخى الأوصال متخاذل الأعضاء ، حتى وقف على البواب « بارامون » وكان قد فرغ من تنظيف حذائه .
وقال البواب للكاتب :

— لقد بدأ دق النواقيس ! ألا تسمع ؟

ولم يعد الحقيقة ، لقد انثال عليهما رنين النواقيس من نوافذ المكان مشفوعا بنفحات من هواء الربيع الطلق ، وامتزج ذلك الرنين بصرير العجلات وصليل المركبات ، ومن فوق هذه وتلك ارتفعت ضحكات الجماهير .

وقال « نيفرازيموف » متهدا وأطل على الشارع ينظر أشباح الرجال تتسابق تحت ضياء مصابيح الزينة :

— ما أكثر هذه الجموع والأفواج ، إنهم مسرعون إلى الكنيسة ، لقد ملأ إخواننا وزملاؤنا بطونهم من طيبات المطاعم والمشارب ، وهم الآن يجوسون خلال الشوارع طربى سكارى ترغ الراح أعطافهم وتخالط رؤوسهم ، وما أشد سرورهم الساعة وما أعلى صياحهم وضحكهم .. وأنا من دونهم التعس الشقى المنحوس ، أجلس وحدى منفردا فى هذا المكان المظلم المشؤوم كالسجين فى حبسه .. وفى مثل هذه الليلة الطيبة المباركة التى جعلها الله عيدا للأمر والسوقة والثرى والشحاذ ، وهذه حالتى كل عام ! .. تفو ! ..

فأجابه البواب قائلا :

— لا أحد يرغمك على هذا ، أنت تفعله بمحض اختيارك ، وليس دور النوبتجية عليك الليلة ، ولكنك قد استؤجرت بالدراهم لتبقى ههنا بدل الذى استأجرك ، إنك طماع جشع !

— فض الله فاك ! ليس الطمع وإنما الحاجة ألجأتنى إلى ذلك ، وما أخذت والله إلا روبلين اثنين ، ثمن منديل أو جورب .. إنما هى الحاجة والبؤس والفاقة ... روبلان ليس إلا ... حرمت من أجلهما لذة الحرية والاستمتاع بهذا العيد السعيد ،

واللهو والمرح وشهى الطعام والشراب .. وسمت نفسى الكرب وسوء العذاب ،
وحرمتها لذة الجلوس إلى زق النبيذ والكئوس وفتاة :

هى أشهى إلى من سنة النوم وأحلى من مفرحات الأمانى
أغازلها وأجمشها بين النحر والثرائب ، وأشعر - أنى فى الفتیان ، وبدیع
هذا الزمان .. لا یبعد الله غیرى ، لقد طاش سهمى ، وغار نجمى ، ولم یوقنى
الله إلا إلى الخیة والخسران ! ... انظر إلى هذه الفاجرة تشق بها سيارتها الجموع
كأنها بلقیس على عرشها ، وأنا ههنا مدفون فى هذا الجحر المظلم أقتل نفسى
حسرة وغما !

- لن تأخذ من الدنيا إلا حظك ، قل لن یصیننا إلا ما كتب الله لنا ، والدنيا
سجال يوم لك ويوم عليك ، لا تقنط من رحمة الله ، سیجیک يومك فتركب
أنت أيضا سيارتك يوم تنال من درجات الرقى ما تطمح إليه .

- أنا ! .. كلا یا أخى .. لن أبلغ ذاك ولو اجتهدت حتى فرقت ... تلك
المناصب والدرجات موقوفة على أهلها من ذوى الشهادات والكفاءات .. وأنا
لست فى العیر ولا فى النفر ، وحسب أولیاء الأمور أن یبقوا على فلا یرفتونى :
ولست بسائل الأعراب شیئا حمدت الله إذ لم يأكلونى

- لم تصب فى مقالک هذا ، ألم تر إلى رئیسنا المدير ، کیف قد بلغ هذا
المنصب بلا شهادات ولا كفاءات .. وهو على الرغم من ذلك ...

- ولكن رئیسنا المدير قد وفق إلى سرقة مائة ألف قبل تمكنه من بلوغ هذا
المنصب ، هذا ولقد منحه الله من أساليب المكر والدهاء وسعة التدبیر والحيلة
خلاف حسن الشكل والمنظر والجهارة والفخامة ما أنا منه براء ، وأنا أعرف أن
شکلى وهیئتى وأخلاقى لا أستطیع أن تقربنى من النجاح قید أنملة ، هذا إلى
بشاعة اسمى ، قبحه الله من اسم « نيفرازيموف » مثل هذا الاسم كفيل والله أن
یصعد بحامله إلى المشنقة ، والأسماء - أصلحك الله - منها نعمة ومنها نقمة ..
فلا تخدعنى یا صاحبى ، أنا یائس من کل خیر ، هذه قسمتى لا مفر منها ولا موئل ،
اللهم إلا الانتحار ..

ثم انثنى عن النافذة وطلق یجول فى الحجرات محزوناً کئيباً ، واشتدت

جلجلة النواقيس وعلا رنينها .. لم يكن به حاجة إلى سماع تلك الأنغام لقد كانت تهيج أحزانه ، وتثير أشجانه ، ولقد كان كلما ازداد رنينها ارتفاعا ازدادت الحجرات فى عينه ظلاما ، والجدران سودا ، والمصباح دخانا ، والدنيا بأسرها حرجا وضيقا ...

وقال « نيفرازيموف » فى نفسه :

— أترك المكتب وأمضى ؟ ويفعل الله ما يشاء !

ولكنه تأمل فوجد أن الفرار على هذه الصورة لن يعود عليه بأذى ثمرة .. وماذا يجدى عليه الخروج من المكتب والتجول عبثا بلا قصد فى الشوارع وليس معه درهم واحد ، ثم الذهاب بعد ذلك إلى داره ، وإنها لأقصر من المكتب وأشد وحشة وشؤما ... وهب أنه أستطاع أن يقضى العيد فى غبطة ومسرة ، فماذا بعد ذلك ؟ لا شيء ! .. لا شيء سوى الكد بلا راحة والشقاء بلا نعمة ، والعناء بلا ثمرة ، واليأس بلا أمل ، والفقر والبلاء الدائم !

وقف « نيفرازيموف » مسلوب الحركة وسط المكتب مطرقا يفكر ، وجعل يتلهف على حياة أطيب مما هو فيه وألين ، تلهفا تتوقد جمراته على كبده ، وتقدح فى أحشائه ، لقد جعل يتمنى — بجذع الأنف — لو يجد نفسه بغتة فى الشوارع بين تلك الجموع المزدهجة فيمتزج بها ويضرب بسهم فى مسرات ذاك العيد الذى من أجله تدق هذى النواقيس وترتفع تلك الضوضاء والضجة ، لقد تلهف على عهد الطفولة ومناعمها .. وعلى حلقة الأسرة حول موقد الصلاء ، وعلى تلك الوجوه الناضرة المشرقة ، وعلى المائدة الحافلة ، والضياء والدفء .. ثم أقبل يفكر فى تلك الفاجرة التى مرت تحت عينه آنفا على سيارتها الفاخرة ، وفى الكسوة الجديدة التى أبصر الباشكايت يرفل فيها آنفا ويختال ، وفى السلسلة الذهبية التى ازدان بها صدر السكرتير إذ يمر من تحت النافذة .. وتمادى يفكر .. ثم يفكر .. يفكر فى العيش الرغد والرخاء والخفض .. فى فراش دفىء ، وطعام مریء ، وشراب هنئء ، .. فى حذاء جديد ، غير مرقع .. وفى رداء ليس فيه خروق ... لقد ظل يفكر فى كل هذه الأشياء لأنه كان منها مجردا ! ..

ثم قال فى نفسه :

- أسرق ! أكون لصا ! وهبنى رضيت ذلك لنفسى ، فكيف أبداً ؟ لا أرانى فى هذا الفن ماهرا ، ويخيل إلى أن السرقة من أصعب الصناعات والفنون ، وعلى فرض أن الحظ ساعدنى وسرقت شيئا ، فأين أخفيه وأستره ؟ .. لقد سمعت عن بعض اللصوص أنهم يهربون بمسروقاتهم إلى أمريكا ، فعلى فرض أنى أردت أن أحذو حذو هؤلاء ، فكيف أذهب مثلهم إلى أمريكا ، ولست - أعرف أين هى .. يمين الله لا أنا لا أدرى - ولا المنجم يدري - أين أمريكا هذه ! أفأذهب فى الشوارع أسأل الناس أين تكون تلك المسماة أمريكا ؟ . وهل أنا واثق أنهم يتبؤوننى إن سألتهم ؟ إن أمريكا هذه ليس يعرف طريقها إلا من تعلم فى المدارس .. فيظهر لى أن التعليم ضرورى حتى لمن أراد أن يكون لصا .. !

خفتت أصوات النواقيس ، ولم يصل إلى مسمع الفتى سوى مضمحل ضوضاء المركبات من أقصى مدى ، وسعال البواب « بارامون » فى حجرتة ، وازداد به كربه وغمه حتى بلغت الروح التراقى ، ودقت الساعة اثنتى عشرة .

- ماذا أصنع ؟ أكتب تقريرا سريا عن الجمعيات السياسية وأرفعه إلى رؤساء الحكومة .. لقد صنع ذلك « بروشكين » وكان كاتبها حقيرا مثلى فقال به منصبا كبيرا .

وجلس « نيفرازيموف » إلى مكتبه وظل يفكر ، وكان الزيت قد نضب فى المصباح ، فتكاثف دخانه ، وأذن أن ينطفئ ، وكان الصرصار الشارد لا يزال يرتكض على المكتب ويتنزى ، وقد أعياه أن يجد مستقرا .

- أجل ، إن إرسال التقارير السرية ليس من المستحيلات ، ولا يزال الناس يأتونه ... ولكن كيف يبدأ الإنسان ... وماذا يكتب ؟ وقد سمعت أن كتابة أمثال هذه التقارير تحتاج إلى مهارة ودقة ، وإلى مزيد الحذر والاحتراس والحيلة ، .. وأن أقل هفوة قد توقع الكاتب فيما لا تحمد عقباه ، وربما أوردته حتفه .. وأنا - أى مهارة عندى ؟ وأين أنا ... من الحصافة والدهاء ... ضلة لى ! .. إن أنا إلا غيبى أحق !

وبينا هو يكد قريحته يتلمس مخرجا مما هو فيه من أزمة كربه الحازبة ، وقعت عينه على الصرصار يتوثب أمامه على المكتب .

- لك الويل يا زميل اليوس ، ويا خدن النحاس والشقاء ، أما آن لك أن
تفارقنى ، فلا بد لك من أن تعين على من الدهر ونكباته ؟ لأرينك كيف تكون
عاقبة الركض والوثوب على مكتبى ، يا أخا الشيطان !
ثم لطم الصرصار أثناء توثبه لطمه ألقته على ظهره ، وأخذ بإحدى أرجله
فألقاه فى المصباح ، فتأجج لهب واضطرب ...
وكذلك سرى عن « نيفرازيموف » ونفس الله كربته !

بولينكا

للقصصى الروسى أنطون تشيكوف

الساعة الواحدة بعد الظهر ، فى دكانة من دكاكين الأقمشة « نوفوتيه دى بارى » كانت « بولينكا » آنسة بيضاء هيفاء ، واقفة تتلفت كأنما تنشد ضالة ، وبولينكا هذه ابنة خياطة ، رئيسة « ورشة » خياطة .

أسرع إلى الآنسة بولينكا غلام أسمر اللون فسألها قائلاً :

- ماذا تريدين يا سيدتى ؟

- نيقولا نيموفتش أحد موظفى هذا المحل ، إن معاملتى معه دائماً ..

وفى هذه الأثناء ، كان « نيقولا نيموفتش » وهو شاب رشيق أسمر ، حسن الزى أبيض الملبس ، ذو مشبك لماع فى بمباغه ، وشعر مجعد ، قد أفسح للآنسة مكاناً على البنك الذى أمامه واشتراب بعثقه ينظر إليها مبتسماً :

وصاح بصوت رخيم عطوف :

- أسعد الله يومك ، يا بولينكا ، ماذا عسى تريدين أن أصنع لك يا عزيزتى ؟

فعمدت إليه بولينكا قائلة :

- أسعد الله أوقاتك يا نيقولا ... لقد غدت إليك ثانياً ... أرنى ما عندك من الركامة من فضلك .

- الركامة ؟ ولأى شىء تريدونها ؟

- لتطريز جونيلة .. لتطريز حلة كاملة فى الواقع ..

- بكل ارتياح ...

ثم وضع نيقولا أصنافاً عدة من الركامة أمام بولينكا ، فتتظر الفتاة إلى الأصناف نظرة دلال فاترة ، وتبدأ المساومة فيها .

ويقول نيقولا :

- لا تشددى ، أترين أن روبلا فى المتر من هذا الصنف كثير ؟ هذا صنف فرنسى ، حرير صرف ... عندنا صنف أدنى ... أغلظ وأثقل من الحرير ، بنصف روبل فقط ، إنه أخط كثيرا من الصنف الأول بلا أدنى شك .

قالت بولينكا :

- أريد أيضا قلنسوة بأربطة حريرية ... ثم اغتنت فوق الركامة ، ولأمر ما تنهدت من أعماق قلبها « وهل عندك أيضا مناطق من أعلى صنف » ؟
- نعم ...

ترداد بولينكا انحاء فوق الركامة وتنهدا ، وتقول بمسئهى اللين والركة :

- ولماذا تركنا بسرعة فى يوم الخميس يا نيقولا ؟

- آه 1 ... إننى أعجب أشد العجب كيف فطنت إلى ذلك ، مع ما كان وقعد من فرط اشتغالك بذلك التلميذ أو الطالب (كما تسمونه) .. وشدة إقبالك عليه ... عجبا عجبا ... لقد خيل إلى إذ ذاك أنه لو شبت النار فى الغرفة أو خسفها الزلزال ، لما أحسست لفرط انشغالك بذلك الغلام ...

يتوهج وجه الفتاة خجلا وتظل واجمة ، ويفلق البياع صناديق السلع بأنامل مرتعشة ، ويظل يرصها ويرصفها واحدا فوق الآخر ، لغير ما سبب البتة ، وتتلو ذلك فترة سكوت .

وتقول بولينكا ، وترفع عينيها بهيئة المذنبه الأثيمة ، نحو البياع .

- أريد أيضا تنتة صدر ...

- من أى صنف ؟ تنتة الخرز هي آخر مودة ..

- وكم ثمنها ؟

- السوداء بنصف روبل ، والملونة برويلين ونصف ، « ثم يخفض البياع صوته ، ويقول من طبقة « الأراضى » ... اسمعى يا بولينكا لن أغشى داركم منذ اليوم ...

- ولماذا ؟ ..

- لماذا ؟ .. الأمر فى غاية الوضوح والبساطة ، وكان يجب عليك أن تفتنى إليه من تلقاء ذاتك . لماذا أعذب نفسى بنفسى ؟ لماذا . . أبحث عن حتفى بظلفى ؟ أفتحسبين أنه يسرنى أن أرى ذلك التلميذ يتسلط على فؤادك ، ويملك زمام هواك ؟ إننى أبصر كل شىء وأفهم كل شىء ، وأراه منذ الخريف الأبيض ما يزال يختلف إلى داركم ويتردد ، وأراك تخرجين معه كل يوم للزفة ، وإذا جلست إليه لا تزالين تديمين إليه النظر كأنه ليس من البشر بل من الملائكة ، أنت تعشقينه ولا ترين له فى سائر الناس ندا ولا مثيلا ، وعلى ذلك فلا ثمره فى الجدل معك والمناقشة والسكوت خير وأولى .

تظل الفتاة « بولينكا » مطرقة واجمة ، تنقر على البنك بإصبعها ، فى ارتباك وحيرة ...

ويقول البياح :

- إننى أرى الحقيقة بعينى رأسى واضحة جليلة ، ففيم أزورك وأغشى داركم ، ولا نأقتى فيها ولا جملى ... أجيئك ، لتبذبنى فى زوايا الإهمال وتقبل قلبا وقالباً على ذاك التلميذ ، أتحسبين أنه قد ضربت على الدالة والمسكنة ، فلا بقية عندى من عزة ولا إباء ولا كرامة ، دعينا من هذا وخيرينى ماذا تطلين من الأصناف ؟ - لقد كلفتنى أمى أن أشتري عدة أصناف ، ولكنى نسيتها جميعا ، أريد أيضا شيئا من الريش ..

- أى صنف ؟ ...

- أجود صنف وأحدثه ...

- أحدث الأصناف الآن ، وآخر مودة ، هو ريش الطيور الحقيقى ... فإن شئت أحدث لون فذاك الأحمر ، وهو لون رمانى تشوبه صفرة .. إن فرط غرامك بذلك التلميذ قد تركتسى فى أشد الحيرة ، وتالله لأدري كيف تكون العاقبة ، على أنى أعلم أنها لن تكون إلا وبيلة وخيمة . أنت تعشقين الغلام ، والله وحده يعلم إلى أى محنة هذا الغرام يسوقك ..

وفى أثناء كلامه هذا ظهرت على وجهه حوالى عينيه بقع حمراء من شدة

هياج أعصابه ، وكانت يمناه تضغط بشدة على ما فى قبضتها من الريش فتسحقه سحقاً ، واسترسل فى الكلام ، قال :

— أخطر لك ببال أنه سيتزوجك ، أبذلك تخدعك أحاديث المنى الكاذبة ؟ أبذلك توسوس إليك النفس الأمارة بالسوء ؟ هذه وريك أضاليل أوهام ، وأضغاث أحلام ، وأولى لك أن تطرحيها . انتهى من رقدتك ، وأبقى من غشيتك ...

إنى أرى فريق الطلبة قد حرموا على أنفسهم الزواج ، أتحسبن أن أغراضه من ناحيتك شريفة ؟ ضلة لك ، ما أشد غرورك ! أما علمت — أنار الله بصيرتك — أن أولئك الطلبة لا يعدوننا — نحن فئة العمال والصناع آدميين مثلهم ، بل يروننا كصنف من الحيوانات والبهاائم وهم لا يزورون أمثالنا من الخياطين والباعة إلا ليسخروا من جهلنا ، وليشربوا الراح على مائدتنا ، إنهم لا يجراؤون على شرب المسكرات فى بيوتهم وبيوت أهل طبقتهم ومن فوقهم ... هم يخشون العذل والملال والطعن والهجاء من تلك الطبقات ، فأما نحن أهل الطبقة الدنيا ، فلا يحسبون لنا حساباً ، ولا يبالون مثقال ذرة بما نتحدث به عنهم ، نحن فى نظرهم كمية مهملة ، فهم فى مجلسنا لا يحجمون على ارتكاب أية سخافة ... فلا يستبعد منهم أن يقفوا أمامنا على رؤوسهم ... لاشك ، لاشك ... أى صنف من هذا الريش تبتغين : الأحمر أم الأزرق ؟ وإذا كنت تريه الآن يتردد عليك ويتعلق بأذيالك ، فسوف نرى كيف تكون العاقبة ، إنه متى صار محامياً أو طبيباً ذكرك بالخير على أقذاح الشراب ، ويقول لندمانه « لقد كان لى حيناً ما عصفورة حلوة ظريفة ، فبالت شعرى أين تكون ، وأيان طارت ! .. بل لكأنى به يقول الآن لأصحابه مفتخراً متبجحاً « لله درى ، لقد اقتنصت أرنبية صغيرة ، ابنة خياطة ، وإنها والله لتكاد تموت من حبي صباة » .

تجلس بولينكا ، وترنو من مقلة ساهية تلقاء أكداش الصناديق البيضاء ، وتقول متنهدة :

— كلا ، لن آخذ أى صنف من أصناف الريش ... إنى أخاف أن أخطئ الغرض المقصود ، فأولى لأمى أن تحضر ههنا فتختار بنفسها ما تشاء ... ولكنى

ريد ستة أمتار من القطيفة ، وعشرين زرا صدفا ، ثم تكون مثقبة ، ليكون أثبت لها فى الخياطة وأمتن ..

يلف لها نيقولا القطيفة والأزرار فى ورقة ، وترنو هى إليه بعين مذبذبة أثيمة ، وكأنها تتوقع منه أن يسترسل فى حديثه ، ولكنه يظل مطرقا صامتا ، تعبت أنامله بالمرتر الخشب الذى يقيس به البضاعة .

وبعد فترة سكوت تسمح الفتاة شفيتها المصفرتين بمنديلها وتقول :

- لقد كدت أنسى شيئا هاما ... أزرارا حللة صيبانية ..

- من أى صنف ؟

- نريد أن نزعرف بها حللة لابن سرة القرى

- متى كنت تريدنها لأحد أبناء الريف فعليك بالألوان الزاهية : هاك مجموعة متنوعة من الأزرار ، أحمر ، أزرق ، خوخي ، بنفسجى ، وأحسنها السماوى المذهب ، إنه براق متألئ ، إن المهذيين ذوى الأذواق السليمة يؤثرون الأسود المظفى المذهب الخافه . ولكنى لا أفهم قصدك لا أستطيع أن أفهم ما الذى تنتظرينه من هذا الشاب ؟ وماذا تتوقعين أن تكون خاتمة هذه المغازلات والخلوات ، والغنوات فى البكور والأصائل والروحاح ؟ ماذا ترجين من تلك الخلطة التى لا يراد بها خير ، ولا تؤدى إلى غنم ولا سلامة .

فانحنت بولينكا فوق الأزرار ، وهمت قائلة :

- أنا والله لا أدرى ... لا أدرى ماذا طرأ على وماذا أصابنى وماذا دهانى ؟

فى هذه اللحظة أقبل رجل ضخمن من موظفى المحل ، مبرم الشارين يندفع فى مسلك ضيق من وراء « نيقولا » فرحمه بمنكبهِ وعصره إلى البنك وكاد يسحقه ، حتى تأوه نيقولا ، والتفت الرجل الضخم إلى ورائه مشرق الوجه براق الأسرة يخاطب سيدة تسير خلفه ، قال :

- تقدمى إلى هذا القسم يا سيدتى ، هنا مكان الملابس ، عندنا ثلاثة أصناف

من « الجرسى » : سادة ، وبالمخز ، ومطرز ، أيها تريدين ؟

وفي الوقت ذاته ، مرت بجانب الفتاة بولينكا سيدة ضخمة مبدنة ، فأجابت الرجل بصوت عميق رنان ، قالت :

- أريد الصنف المطرز ، من فضلك ...

فانحنى نيقولا فوق الأنسة بولينكا ، وعلى وجهه ابتسامة مستكرهة وهمس إليها قائلا :

- تظاهري بأنك منهمكة في تأمل الأصناف ... وأأسفاه ! ما أشد اصفرار وجهك وشحوبه ! أمرضة أنت يا بولينكا ، أم ماذا أصابك ؟ لشد ما تغيرت ، أيقنى أنه سيهجر عاجلا أو آجلا ، سيتخلى عنك ويتفض منك يده ، كما يفض تراب الميت ، فإن صحت أحلامك وتزوجك فلن يكون ذلك عن شوق إليك ، بل طمع في مالك ، سينفق مهرك في فراش داره وأثاثها وزخرفها ، ثم يوليک احتقاره وازدراءه ، ويظهر الاشمزاز منك والضجر والتبرم أمام الملاء ، ثم يحجبك عن أبصار أصحابه وزواره بعلقة أنك غير متعلمة ولا مثقفة ، ولست من خريجات المدارس ، وسيجعل اسمك بين أهله وخلاته « العروس الجيس زوجتي » وما أبعد مسافة الخلاف والتفاوت بينك وبين الطبقة التي يتقلب فيها طبيب أو محام ، ما أنت منهم ولا هم منك ، مهما تظرفرت لهم وتجملت ، ومهما بالغت في إكرامهم والاحتفاء بهم ، فستبقين في نظرهم وعقيدتهم « ابنة الخياطة الجاهلة العامة » ... في هذه اللحظة يصيح امرؤ من أقصى المحل ناديا :

- نيقولا تيموفتش ! عندي هنا سيدة تريد ثلاث ياردات شريط مطرز بالمعدن ، هل عندنا منه ؟

فيلتفت نيقولا في ناحية المنادى ويتصنع الابتسام ويصيح :

- أجل ، عندنا ... شريط بطراز من المعدن ، وصنف بالحرير ، وصنف بالتلي .

وتقول بولينكا :

- لقد نسيت شيئا هاما ، لقد كلفتني « أولغا » أن أشتري لها ثلاث مناطق ...

ويقول لها نيقولا والحزن يلتهب في وجهه وصوته :

- وامصيتهاه يا بولينكا ! ما بال عينيك بالدموع مغرقان ؟ فيم البكاء يا بولينكا ؟ هلمى أحججك عن الأبصار فى قسم المناطق ، احبسى مدامك ، ستفضحيننا يا بولينكا !

ويسرع بالفتاة وهو يتكلف ابتسامة مختصة ، ويتصنع الخفة والطلاقة فى حركاته ، إلى قسم المناطق ، وهنالك يخفيها عن أعين الجمهور وراء هرم شامخ من اللعب والصناديق ...

- أى صنف من المناطق تريدن ... ؟ يقول ذلك بأعلى صوته ، وبعدها مباشرة يهمس إليها : امسحى دموعك !

- أريد .. أريد .. أريد مقاس ثمانية وأربعين سنتيمترا ... ولكن أولغا أوصتنى أن يكون مبطنا بالعا ... بالعاج الحر ... يا نيقولا ... إن لى إليك لحديثا طويلا ... تعال اليوم يا نيقولا !

- لك لى حديث طويل ؟ فى أى شىء ؟ وعن أى شىء ؟ ما بيننا منذ اليوم ما يستدعى الحديث ، لا طويله ولا قصيره ..

- إنك من بين سائر الأنام من تعنى بى وتحفل ، ومن عليه أعتمد وأعول ، وليس لى غيرك من صديق أثبت شجنى ، وأشكوه لوعتى وحزنى .

- بطانة هذه المناطق ليست من اليراع ولا من الصلب ، بل من العاج الحر .. أى شىء بيننا يحتاج إلى المحاورة والمناقشة ، أما إنه لا ثمرة فى الحديث البتة ، ستخرجين معه اليوم أيضا للنزهة ؟

- نعم ، س ... سأخرج معه اليوم ...

- إذن فما ثمرة الكلام ؟ ليس يجدى عليك الكلام شيئا .. أنت تحبينه أليس ذلك الواقع ؟

فهمست بولينكا مترددة الدموع من عينيها ضخاما غلاظا :

- نعم أحبه !

فhez نيقولا كتفه مضطربا واشتد اصفرار وجهه وهمهم قائلا :

- ماذا عسانا نقول بعد ذلك ؟ لا فائدة فى الكلام ، امسحى دموعك ، هذا كل ما فى الأمر ، أنا ... أنا ... أنا لا أطلب إليك شيئا .

فى هذه اللحظة يظهر رجل من موظفى المحل معروق هزيل ، يهرول نحو هرم الصناديق المخفية وراءه الفتاة . ومعه زبون وهو يقول لزبونه :

- سأريك صنفا من الحمالات مرنا مطاطا ، لا يعوق دورة الدم ، وهو مزود بأزكى الشهادات الطبية ...

عند ذلك يقبل نيقولا على الأنسة فيغطيها بنفسه ، وإخفاء لاضطرابها واضطرابه يتكلف ابتسامة كاذبة ويخاطبها بأجهر صوته قائلا :

- عندنا صنفان من « التنتة » يا مدام ، قطن وحرير ... فأما صنف « الشرقى » و« الإنكليزى » و« الفنسيان » و« الكروشييه » و« الترثون » فهذه كلها من القطن .. وأما « الروكو » و« السوتاش » و« الكمبراى » فهذه من الحرير ... اعملى معروف وامسحى ... اعملى معروف !

ولما رأى أن دموعها لا تزال تتفجر ، استرسل فى صياحه بصوت أعلى وأجهر :

- الصنف الاسبانيولى ، والاسلامبولى والمسكوفى و« الروكو » و« السوتاش » و« الكمبراى » .. الشرابات .. الفنلات ، بكر خيط ، حرير ، قطن ، كتان ...

الحب

للقصصى الروسى أنطون تشيكوف

« الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، ألا حينذا هذا السحر من ليل إبريل الناعم الغض مطلا على من خلال النوافذ تناجينى كواكبه بألحاظها الفاترة الساجية .. لا أستطيع النوم .. لقد جاز بى السرور كل غاية !

إن جثمانى كله من فرعى إلى قدمى ليجيش بنوع من الشعور غامض غريب مبهم ، لا أستطيع الآن فحصه وتمحيصه ، ومالى ولتمحيصه وفحصه ؟ حسى الآن أن ألتذ به وأستمع ، وقبح الله البحث والتحليل وأصحابه ! .. وهل يستطيع البحث والتحليل امرؤ يرى نفسه مطاحا فى أعماق الفضاء كالكوكب المنقض ؟ ... وهل يستطيع البحث والتحليل من يبلغه فجأة أنه ربح مليوناً ؟ » .

بهذه الكلمات أو شبهها افتتحت رسالتى الغرامية إلى « ساشا » آنسة فى التاسعة عشرة من عمرها ، كنت قد همت بها صباية ووجدا ، .. لقد بدأت الرسالة خمس مرات ، وخمس مرات شطبتها ومزقتها وأعدت تحريرها ، وأنفقت فيها من الزمن مقدار ما كنت أمضيه فى تأليف كتاب أنقد ثمنه سلقا ، ولم أضع فيها كل ذلك الزمن ابتغاء إجابة أو إتقان أو تميق أو زخرفة أو تهذيب ، ولكن لأجعل عملية التحرير هذه بلا نهاية ، فرط تلذذ بها واستعذاب ... وأى لذة - رعاك الله - هى أحل وأعذب من جلوسك فى غرفتك الهادئة تناجى أمانيك وأحلامك ، وليل الربيع الصافى الأديم المشرق الديقاجة يطل عليك من خلال نافذتك ؟ .. فى سقى الله ذاك العهد ، ويارعى الله تلك الليلة ! لقد كنت ألح بين السطور وجها جميلا ، وصورة فاتنة .. ونخيل إلى كأنما يجلس معى على المائدة ويحرر مثلى رسائل غرامية أطياف ملائكية لا تقل عنى مسرة وسعادة و« عبطا » وبلاهة . وجعلت أكتب باستمرار ، وأنظر إلى يدى ييجيش فى عروقها شعور مستلذ من أثر لمسة كفها ، وكلما التفت ورائى أبصرت خيال

بإطار من الفل والياسمين ، .. لقد كانت « ساشا » شيعتى بنظراتها العذبة من خلال ذلك الشباك بعد تحية الوداع ... ولما لمحت من بين الفل والياسمين عينيها النجلادين ، أوحى إلى بغنة أنى فى لجة الغرام راسب ، وتمثلت قول القاتل :
اليوم جازى بى الهوى مقدارَه فى أهله وعلمت أنى مغرم
لقد قضى الأمر ، وما على بعد الآن إلا المفاوضة .

إن من أمتع اللذات أن تطوى رسالة غرام بعد الفراغ من تحريرها ، فتختتمها ثم تلبس رداءك وقلنسوتك على مهل فتذهب بكنزك الثمين إلى صندوق البريد ، .. لقد نصوبت مواكب السحر فغابت ، وامتد مكانها على الأفق الشرقى خط أبيض ، نقطه هنا وهناك قطع السحاب ، ومن هذا الخط انبثق الفجر فغمر الآفاق بتباشيره ، والبلدة نائمة ... عجالات المياه قد انطلقت ، وقد سمع من مصنع بعيد بأقصى البلد صفير البوق يوقظ العمال .

فى ظهيرة اليوم التالى جاءتنى خادمة « ساشا » من سيدتها بالرد الآتى :

يسرنى أن تزورنا اليوم ، أنا فى انتظارك ، المخلصة « س » ...

هذا الرد - على قصره وقلة ألفاظه - كان بالأغلاط المضحكة والنحوية مملوءاً ، ولكن هذه الأغلاط زادته فى عيني طلاوة ، وفى مهجتى لذة وحلاوة ، ورأيت فى خطها الأعوج الأعرج وما يبدو عليه من معنى الحياء والخفر والهيبة ، مشابه من مشيتها المثبثة ومن هيئة رفعها حاجبيها لدى ضحكها ، ومن حركة شفيتها .. ولكن محتويات الرسالة لم تسرنى ... أولاً ، إن الرسائل الغرامية لا يجاب عليها بمثل هذا الرد اليابس الجاف ، ثانياً ، هى تدعونى إلى زيارة دارها ، ولست أدري ما الذى يجبرنى أن أزورها فى منزلها ، حيث أصبح تحت رحمة أمها الضخمة السمينية وأخويها وأقاربها الفقراء ، أنتظر بفارغ الصبر قيامهم عنا وتركى وإياها وحدنا ... وربما كبسوا على أنفاسنا طول مدة بقائى لديهم فحرمونا لذة الخلوة ... وكذلك كانوا يصنعون ، ضلة لهم ما أغياهم وما أعمى بصائرهم .. كأنهم يحسبون أنى مولع بهم مغرم ، وأنى لا أطيق فراقهم لحظة ! .. وبناء على ذلك استحملت الخادمة رسالة إلى « ساشا » أسألها فيها أن تضرب للقاءنا موعداً ، وتكون المقابلة فى مكان مستتر بإحدى المتنزهات أو الغابات ... وقبلت الفتاة

اقتراحى ... لقد قرعت الوتر الحساس ، على حد قولهم ، وفيما بين الساعتين الرابعة والخامسة بعد الظهر دخلت المتنزه ، فعمدت إلى أقصى أركانها وأخفاها ، وهناك ألفت « ساشا » تنتظرنى ، وعليها سيماء الحذر والاحتراس ، وقد بالغت فى الاستتار والتكتم ، وعلى وجهها خمار أبيض ، فمجاراة لها ومحاكاة ، زحفت إليها على مشطى قدمى ، وجعلت حديثى إليها همسا ... وأعجب ما فى الأمر أن اهتمامها لم يكن منحصرا فى شخصى ، ولكنه كان موزعا بين شتى أركان هذا الموقف ومختلف تفاصيله التى لم أكن أنا إلا واحدا منها ... لم تستغرق شخصيتى من حواسها وبالحا أكثر مما استغرقت غرابة الموقف وروعته ، وخفاؤه ورهبته ، وأعماق الأجمة القائمة ، وظلال الدوح المظلمة ، والسكينة المخيمة ، والوحشة المهيبة وملحقات ذلك الموقف من نجوى وشكوى ، وحنينى وأنىنى ، وإيمانى ووعدى ، ومواقفى وعهودى ... وأكبر ظنى أنها لم تكن تعشقتنى أنا ، وإنما كانت تعشق العشق ذاته ، ولو فى تلك الساعة وجد أمامها أى امرئ غيرى لما نقص ذلك من سرورها وطربها مثقال ذرة .. هذا ما كان يخیل إلى والله أعلم ! وانطلقت الآنسة « ساشا » من البستان إلى منزلى ، وأشهد الله أن خطوة الأعزب بمعشوقته فى مأواه تهيج من طربه ما تهيجه الخمر والموسيقى ..

... وفى تلك الخطوة اللذيذة يتحدث العاشق عادة فى أمر المستقبل .. وما يصدر عنه مثل هذا الحديث من الثقة بالنفس والغرور بالأمنية يتجاوز كل حد وغاية ، فترى العاشق يرشح من الآمال أبعدا وأقصاها ويسط من المشروعات أفسحها مدى وأناها ، ويشيد من قصور الخيال أشمخها ذرى وأسمها ، ويرفع نفسه إلى رتبة « الفيلد مارشال » وإن لم يعد درجة « ملازم ثانى » ويقذف فمه الأفلاك من أمثال هذه السخافات والخرافات ما يستحيل على السامعة الحسنة تصديقه إلا إذا كان قد أغشى بصرها الحب وأعمى بصيرتها الجهل واليالة .. ومن حسن حظ الرجال أن عاشقاتهم من الغوانى يكن دائما ممن أعماهن الهوى ، وهن من الجهالة بأحوال الدنيا وشئون الحياة بمكان ، فبدلا من ارتيابهن بأكاذيب العاشق تراهن ينخدعن بها ويروعهن ويهرهن ما تنطوى عليه من جزيل مواهب الحظ ونفائس كنوز السعادة ، فنصرف وجوههن دهشة ، وتحقق قلوبهن إجلالا وتقديسا ، ويلتهمن تلك الأباطيل التهاما ... وجعلت « ساشا » تصغى إلى

وتفديسا ، ويلتھمن تلك الأباطيل التھاما ... وجعلت « ساشا » تصغى إلى أحاديثي ، ولكنني تبينت آية الذھول في وجهها ، فعلمت أنها لم تفھم فحوى كلامي ، لقد أضعت وقتي ومجھودي سدى إذ حاولت أن أشرح لها تدابيري ومشروعاتي ، ... ورأيت كل ھما أن تعرف مني أية غرفة من البيت ستكون لها ؟ وبأى لون ستلون جدرانها ؟ ولماذا اخترت هذا الطراز من « الكنب » دون غيره ؟ ولماذا آثرت من أصناف البيانو المستطيل على المربع ؟ وأقبلت تفحص ما كان على منضدتي ومائدتي من أصناف التحف والزخارف وغيرها ، تتأمل الصور ، وتشم القوارير ، وتنضو طوابع البريد عن الظروف القديمة تقول إنها تحتاجها لأمر ما .

وقالت بھيئة جد ووقار :

- أرجوك أن تجمع لي أمثال هذه الطوابع ، أرجوك ... من فضلك !

ثم وجدت بندقة على النافذة ، فكسرتها وأكلتها ..

ثم أجالت نظرة في مكثتي وقالت :

- لم لا تلصق وريقات على كتبك تنقش عليها اسمك وعنوان الكتاب ؟ قلت

لها :

- ولماذا ؟

- لتكون أسهل متاولا ... وأين أضع كتي ؟ أنا ... أيضا عندي كتب ،

ألا تعلم ذلك ؟

فسألتها قائلا :

- وماذا عندك من الكتب ؟

- جميع الأصناف ...

ولو خطر ببالی إذ ذاك أن أسألها : وماذا عندك من الآراء والعقائد والأفكار

والمبادئ والمذاهب .. إذن لرفعت حاجبيها وفكرت هنيئة ثم قالت : جميع الأصناف ..

وبعد ذلك خطبت « ساشا » رسميا من أهلها ... فإن تسألني أيها القارئ

قلت لك إنها أشرّ فترة وأتعبها في حياة الإنسان ... شر من عيشة المتزوج ومن عيشة الأعزب ، فالرجل الخاطب لا هو بهذا ولا بذلك .. لقد غادر أحد شاطئ النهر ولما يبلغ الثاني .. هو ليس بالمتزوج ولا يمكن أن تسميه أعزب ...

جعلت في هذه الفترة لأظفر بساعة فراغ إلا هرعت إلى خطيبتي ، وكنت كلما ذهبت إليها حملت لها في أعماق قلبي ذخيرة جمّة من المني والآمال والرغبات والشهوات والاقتراحات والمقالات والخطب ... وكان يخيل إلى وأنا ساع إلى دارها ، أنه متى فتحت الباب الخادمة ، ألقى بنفسى إلى ناصيتي في بحر من السرور زاخر .. ولقد كنت بالفعل ألقى بنفسى في بحر زاخر ، لكن من الكرب والعذاب ! فما من مرة دخلت على خطيبتي إلا ألفتيتها مخوفة بجيش من أقاربها وأهلها ، وكلهم مشغول في إعداد الجهاز « البايخ » (وبهذه المناسبة أقول : لقد مر عليهم شهران كاملان في أعمال الخياطة والتطريز) ، وكان المنزل مفعما برائحة المكاوى ودهن الشمع والأبخرة ، وأينما وضعت قدمك تصدّع تحتها العُزْر المنثور ، وفي الغرفة الكبرى كنت ترى أمواجاً طامية من النيل و « البقعة » و « الشاش » ومن خلال هذه الأمواج يطل عليك وجه « ساشا » الأبيض المستدير ، ورأسها الذهبى الصغير ، وبين أستانها فتلة خيط .

وكان حزب الخياطين هؤلاء يتلقوننى بأقصى غاية الحفاوة والترحاب ، وأعلى صيحات الفرح والحيور ... ولكنهم كانوا يسوقوننى سريعا - على الرغم منى إلى غرفة الطعام ، حتى لا أعطلهم عن أداء أعمالهم وحتى لا أبصر الدخلة ... وبرغم أنفى كنت أجلس فى غرفة الطعام ، أتحدث إلى العجوز « بيمونوفنا » إحدى الأقارب المتقاعدات .

ولم تكن كربة « ساشا » إذ ذاك بأقل من كربتى ، ولا غيظها دون غيظى ... فكأنت لا تزال تمر أمامى مسرعة - كالظبية السائحة - وهى تحمل فى يدها كستباناً أو شلة خيط أو بكرة أو غير ذلك من أدوات الغم والتغيبص ! وكانت تقول لى أثناء ذلك إذ أرفع إليها نظراتى الضارعة المبتهلة :

- مهلا ! مهلا ! .. سأتيك بعد دقيقة .. أخطر ببالك أن الغيبة الحمقاء أحتى « ستينانيد » تتلف صدر « الفستان الحرير » خرقا وجهالة ؟

وبعد نفاذ صبرى عبثا فى انتظار هذه الغنيمة ، أستشيط غضبا ، ثم أغادر الدار مغنيظا محمقا ، فأهيم فى الشوارع على غير هدى فى صحبة الخيزرانة الجديدة التى أكون قد اشتريتها تأنقا وتجملا .

وأحيانا أشتهى أن أخرج معها للنزهة ، حتى إذا جئتها ألفتيتها قد تهيأت للخروج مع أمها فى قضاء بعض أدوات الجهاز المنحوس (الذى جعله الله سببا إلى انتجارى) ، وهى واقفة إلى جانب أمها ، تلعب بمظلتها المرخرفة .
وحينذاك تقول لى :

- نحن ذاهبون إلى السوق ، لنشترى كمية أخرى من الكشمير ونغير « البرنيطة » ..

فى سبيل الله نزهتى وفسحتى ، ومتاعى ولذتى . فأنضم - مكرها - إلى السيدتين وأذهب إلى السوق ، ألا إن من شر المصائب أن تشهد النساء وهن يساو من أصحاب المتاجر فى بضاعتهم ، لقد كنت أذوب خجلا حينما كنت أرى « ساشا » بعد هدمها صفوف البضائع المرصوفة هدماء وقلبها كيان الدكان ، تخرج منها بمتهى الجمود والبرود ، دون أن تشتري أدنى شىء ، لا تتقى الله فى التاجر المسكين الذى أهلكته بدنه وأغرقته فى عرقه ، كأنما هو عبد من عبيد أبيها ، ولكن النساء هكذا خلقن ومن شاء أن يعاشرهن فليحتمل آفاتهن !

وإذا اشتريتا شيئا من بعض المحال ، فخرجتا به ، لم تلبثا أن تثيرا خصاما ونزاعا عن السلعة المشتراة ، فنقول إحداها صفقة خاسرة « وتقول الأخرى « بل صفقة رابحة » .. « لقد غلبنا الرجل ... وضحك علينا » ... كلا ! إن الشيطان ذاته لا يستطيع إحرازها بأرخص من ذلك ، أفلا تستريحين حتى تنهى الناس وتسليخى جلودهم سلخا ؟ ... اتقى الله فى عباده « الخ الخ .. وأنا أثناء ذلك ، أغلى من الغيظ وأتميز ، وألعن جميع نساء الأرض فى ضميرى .

وانقضت تلك الفترة - مدة الخطبة - بعد أن أشرفت فى خلالها على الهلاك ، وتم الزواج بخير ، وهاك صورة موجزة من حياتى الزوجية :
الساعة الرابعة مساء ، وأنا جالس فى مكتبى أقرأ شيئا بصوت عال .. وأطلب زجاجة من البيرة .

- ساشا ، أين البريمة ؟

تثور ساشا من مكانها ، فتبحث عن البريمة بشكل مزعج بين أكداس الورق ، فقلب علبة الكبريت ... وبدون أن تهتدى إلى البريمة تعود إلى مقعدها فتجلس مرتاحة مطمئنة ... تمر خمس دقائق أخرى ... عشر دقائق ... ربع ساعة ... ويحمى على قلبى الظلم وأغليل الغيظ ..

- ساشا ! أرجوك أن تبهثنى عن البريمة ...

تثب « ساشا » من مكانها ثانية فتتخبط بين الأوراق من حولي .. العياد بالله ! إن صرير مضغها لأشد صدمة لمسمعى ووقعا على أعصابى من صليل السيوف والخناجر ... وأنهض أنا أيضا فأجرى البحث معها ... وينتهى البحث باليأس من وجود البريمة ، فألجأ إلى القراءة ، ولكن ساشا لاتدعنى وذلك ، هى تلزم جانبي ، وتشترع تحدثنى حديثا طويلا عن لا شيء .
فأقول لها :

- ساشا ، حبذا لو تسليت أنت أيضا بقراءة شيء من هذه الكتب ...

تناول « ساشا » كتابا وتجلس بإزائى ، وتشترع تحرك شفيتها ، وأنظر أنا إلى جبينها الضيق وشفيتها المتحركتين وأطرق مفكرا !
وأقول لنفسى :

- لقد ناهزت العشرين عاما من عمرها ... ولو قارنتها بغلام فى مثل هذه السن لوجدته يفوقها علما وخبرة وذكاء .

ضيق جبينها وتحريك شفيتها ... ولماذا أغتفر لها ؟

ولكنى أغتفر لها هذا النقص كما أغتفر لها هذا وذاك ، لمحبتى إياها ، وعين الرضا عن كل عيب كليلة ، عجبنا لتلك القوة الغامضة الخفية المجهولة ، قوة « الحب » ولناقضاتها وأعاجيبها !

لقد كنت قبل أن أعشق ساشا ... ربما أصحاب المرأة أو الفتاة حيناً ، ثم أهجرتها لغير ما ذتب سوى بقعة على جوربها أو أثر الطعام على أسنانها ... والآن أغتفر كل شيء ... المضع بضوضاء عالية ، والتخبط فى البحث عن البريمة ،

، وإهمال الترتيب والنظام في المنزل ، وإطالة الحديث في غير شيء ... كل شيء
أغفره عفوا من حيث لا أشعر ، ولأدنى مجهود من الإرادة ... كأن زلات
« ساشا » زلتنى ، وذنوبها ذنوبى ... وما علة ذلك ؟ حى لساشا ، ولكن الحب
ذاته ، ما علته وما سره وما هيته ؟ هذا الذى ترك الأوهام فى حيرة !

الرجل السعيد

يتحرك قطار الركاب من محطة « بولوجو » الواقعة على ملتقى الخطين المؤدى أحدهما شمالا إلى بطرسبرج ، وثانيهما جنوبا إلى موسكو ، وفي غرفة من الدرجة الثانية خمسة ركاب يلعب النعاس رعو سهم ، لقد فرغوا من الطعام ، فاستقروا في مجالسهم يستدرجون الكرى ، وقد ساد السكون .

ينفتح الباب ويدخل عليهم رجل طويل نحيل معروق منتصب القامة « كالصنفور » عليه حلة جديدة محكمة ، وقلنسوة صفراء .

وهذا الشبح يقف ساكنا وسط الغرفة برهة طويلة يتنفس تنفسا ثقيلا ويزر أجفانه ، ويحدق في أنحاء المكان متوسما ، ثم يهمهم لنفسه قائلا :

« مخطئ أيضا ، هذه ليست غرفتنا لقد أوشكت أن أجن ! لقد ذهب الشيطان بالغرفة ! »

ينظر أحد الركاب في وجه الطارئ ، ويصيح طربا :

- إيفان اليكفيتش ! ماذا جاء بك ههنا ؟ أذاك أنت ؟

فينظر الرجل « الصنفوري » إلى المتكلم نظرة طويلة من عين ساهية سادرة ، وأخيرا يعرفه فيصفق فرحا ، ويصيح :

- ها ! بيوترتروفتش ! كيف حالك ؟ لقد طالعت غيبتك ، كم أشهر مرت وأعوام ، منذ آخر عهدى بك ! لم يخطر ببالى أنك في هذا القطار .

- كيف حالك ؟

- بخير حال ، ليس بى سوى أنى ضللت غرفتى ثم تعذر على أن أصيبيها ، ما أشد غباوتى وحماتى ، إني أستحق أن أجلد !

وفي أثناء كلامه يترنح قليلا ، ولا يكاد يثبت مكانه ...

ويسترسل قائلا :

- ما أعجب هذا الحادث ! .. لقد نزلت عن القطار عقب الجرس الثاني لأشرب قدحا من الكونياك ، ولقد شربته فعلا ، وقلت لنفسى « أما والمحطة الثانية بعيدة جدا ، فلا بأس من تناول كأس أخرى » وفيما أنا أرتشفها دق الجرس الثالث ... فاندفعت مسرعا كالجنون فوثبت فى أول مركبة ، إني وريكم لمعتوه أبله !

قال بيوتر بتروفتش : ولكنى أراك فى أقصى غاية السرور والطرب ، هلم واجلس إلينا ، أهلا وسهلا ومرحبا !

- كلا كلا ! سأذهب لأنشد مركبتى ، فأجلس فى غرفتى .. عموا مساء ! - أخشى عليك أخطار القطار ، فلعلك ساقط بين المركبات إن لم تستبصر ، وما أراك - وقد أخذ منك الشراب هذا المأخذ - بمستبصر .. اجلس إلينا ، ومتى بلغنا المحطة التالية أديناك إلى غرفتك ، اجلس إلينا ..

يتنهد إيفان اليكيفتش ويجلس متكرها ، ازاء بيوتر بتروفتش وبه من القلق والاضطراب ما به ، ويتململ فى مقعده كأنه على شوكة .

ويسأله بيوتر بتروفتش قائلا :

- أيان تذهب ؟

- أنا ؟ أنا ؟ أذهب فى الفضاء ، فى فضاء الله ! أذهب فى اللانهاية ! وراء الفلك ووراء المادة ! .. إن رأسى ليدور كالنحلة ! وإن به من التشويش والاضطراب والفوضى ما أنسانى نيتى ومقصدى ، فلا أعرف إلى أين يذهب بى ... أنا ذاهب مع القضاء والقدر حيث شاء .. إلى حيث ألفت ! ... هاهاها ! ياسيدى العزيز ، أرايت قط رجلا جن من شدة الفرح ؟ أنا والله ذاك الرجل ، انظر إلى تجد أمامك أسعد خلق الله طرا ! أجل ، بلا شك ولا جدال ، ماذا تتبين فى هيئتى ، وعن أى شئ ينم لك وجهى ؟

- عن إذتك .. كذا ، كذا .. قليلا ، قليلا .

- أخشى أن يكون وجهى ينم عن البلادة والغباوة ، يؤسقنى أنى لأملك الآن مرآة أقرأ فيها صحيفتى ، معذرة ياسيدى ، يخيل إلى أنى صائر إلى الجنون ، هاها ! أخطر ببالك أنى الآن فى شهر العسل ؟ هذه ياسيدى هى الحقيقة .

- أنت ؟ أقول إنك قد تزوجت ؟

- اليوم ، هذا يوم من حياتي الزوجية ... لقد انطلقت آنفا وزوجتي من الكنيسة عقب عقد الزواج مباشرة .

يتلو ذلك عبارات التهاني ، والأسئلة المعتادة .

ثم يقهقه بيوتر بتروفتش قائلاً :

- لله أنت ، ما أمهرك وما أكيسك ! نلت وطرك وبغيتك ... ومن ثم زيك الأنيق وهندامك الحسن !

- أجل ، واستيفاء للحظ ، أغرقت نفسي في طوفان من الغالية (الياسمين والورد والبنفسج) ! الله أكبر ! إنني منغمس في غرور النعيم ، وباطل اللذات إلى أم رأسي ! ... حياتي كلها غرور في غرور ، وعيشتي أحلام وأوهام ! لقد انمحت حقيقة الحياة المرة المؤلمة من شعوري ووجداني .. فلا أفكار عندي ولا هموم ولا مشاغل ولا حقوق على ولا واجب ولا فرض ولا مسئولية ! ولكني مرتفع عن سقال الأرض ، مخلق في آفاق النعيم ، ساج في ملكوت السعادة ، بأجنحة ملائكية براقية ، إنه لإحساس فذ عجيب ، وشعور مدهش نادر ، ما أحسست به قط قبل الساعة !

وهنا يغمض عينيه من فرط اللذة ويهز رأسه يمينا وشمالا ، ويقول :

- إنني فرح مسرور إلى درجة الخطر ! تصور يا عزيزي مبلغ سروري ! في ظرف دقيقة أصير في غرفتي ، هناك على مقعد قرب النافذة تجلس غانية جميلة كلها محبة لي وشغف وإخلاص ... كلها غرام بي وحنان ورأفة ووفاء ! غيداء ، فتانة الحسن عينا ، هيفاء ، معشوقة الدل حوراء ، جبين وضاح ، كفلق الصباح ، وأنف كحد السيف ، وأنامل كالعناب ، وثغر كالآليء الرطاب ، وقدم صغيرة لطيفة ، لو قدمت إلى في صحن لأكلتها بالملعقة أو بالشوكة ، ولكن معذرة يا صديقي ، أنت لا تفهم هذه المعاني الدقيقة ، تلك أسرار من الجمال أنت أكثف ذهنا من أن تدركها ، تلك ألغاز غامضة من عجائب صنع الله قد حجبتها الباري عن أبصاركم معشر الماذيين ، تلك أسرار روحانية لا يفقهها إلا من اصطفاها الله من عبادة المخلصين ...

أما أنتم معشر الماديين السفسطائيين فما أبعدكم من السعادة الحقيقية ، أنتم تدعون الفلسفة زورا وبهتانا ، وكلما زفت الحياة إليكم نعمة من مناعمها أو حسنة من حسناتها ، ألقيتموها تحت منظار فلسفتكم الكاذبة وطرحتموها فى ميزان حكمتكم الخرقاء ، وأقبلتم تحللونها فى جهاز نقدكم الباطل المضلل ، فلا تلبثون أن تستنبطوا بفضل جهلكم وعميتكم من كل نعمة نقمة ، ومن كل لذة محنة ، ومن كل حسنة سيئة ، ثم تخرجون بفضل قياسكم المعكوس ، ومنطقكم الكاذب بهذه النتيجة : وهى أن الحياة كلها شر وبلاء ، وليس فى الدنيا إلا الألم خالصا ، والشقاء محضا ، فتبا لكم ولفلسفتكم العقيمة الفاسدة كل شىء تنقدونه وتفحصونه وتحللونه ، حلل الله عظامكم ومفاصلكم ، ولا أراكم خيرا ولا غبطة لا فى العاجلة ولا فى الآجلة.. مستظلون فى عماكم وحرمانكم ، معشر الأعزاب ، حتى تتزوجوا فتذوقوا حلاوة المرأة ، بهجة الحياة وزينة الدنيا .. كذلك بعد دقيقة أذهب إلى غرفى ، حيث تنتظرنى الحسنة بفارغ صبر ، تلذّب شوقا إلى رؤيتى .. ستلقانى بأجل ابتسامة على ثغرها البراق ، وأجلس إليها ، وأهضر بقرودى رأسها فتمايل على هضم الكشخ ربا المخلل ... هذا وربك الصفاء والرغد والنعيم السرمذ .

ويهز إيفان إليكيفتش رأسه يمينه ويسرة ويغرب فى الضحك طربا .

— ثم أوسد رأسى ترائيها ، وأطوق خصرها يمينى ، والصمت من حولنا والسكينة .. والشفق الشعرى وافرحتاه إنى لفرط مسرتى ، أكاد فى مثل تلك اللحظة ، أعتنق الدنيا برمتها .. اسمح لى يا صديقى بيوتر أن أعتنقك ...

ونهض الصديقان فاعتنقا وتلاثما ، على ضحكات القوم المتوالية ... واسترسل الرجل السعيد ، قال :

— واستكمالا للطرب أو للجنون ، أو كما يقول الروائيون ، استكمالا لخدعة الرواية ، يذهب المسرور إلى المقصف فيلتهم قدحين أو ثلاثة ، يثور على أثرها فى الرأس وفى الفؤاد نوع من اللذة أمتع وأحلى من كل ما تقرأ عنه فى عالم القصص وروايات الجن ... معذرة أيها السادة ، إنى امرؤ حقير ، لا فى العير ولا النفير ، ولكنى بعد تلكم الأقداح التى احتسيت إخالنى أميرا بل قيصرا .

ويخيل أنى مفرط العظم والجسامة ، وأنى أملأ الفضاء ، وأفعم الأرض

والسماء ، أشعر أنى بلا نهاية ، أنى أحتضن الدنيا بأسرها وأطوق السبع الطباق
بلدراعى !

هذا النزق والخفة والمزاح من الرجل السعيد سرت عدواها إلى القوم فطار
التعاس من أجفانهم وأحدقوا بالرجل يتصايحون عجبا ، ويتضاحكون طربا ، وهو
وسطهم كالقرود أو كالبهلوان ، يميل ويترنح ، وينقبض وينبسط ويطوى وينشر ،
ويتثنى ويتلوى ، ويطلق للسانه العنان فى ميادين اللغو والفضول ، وشعاب الهراء
والهذر إلى ما لاحد له ولا نهاية :

- سادتى ، سادتى ... أريحوا أنفسكم من الجد والعقل ، اخلعوا رداء الوقار ،
حلوا حبة الحلم ونطاق الرزانة ، اطحروا الفلسفة فإنها لم ترح من كان قبلكم ،
ولن تريح من سيكون بعدكم ، اضربوا بالنقد والتحليل عرض الحائط ... وإذا
ظلمتم إلى السلاف فاحتسوها رحيقا سلسلا ، ولا تهرموا أنفسكم للذيد مذاقها ،
ردوا حياضها كما يرد المنهل الظمان أهلكه الصدى ، اكرعوا دنانها وأباريقها ،
بلا إحجام وبلا تردد وبلا تراث ولا تلبث ، ولا تقفوا من دونها تتجادلون ، أخير
هى أم شر ، وحلال أم حرام ... أتم عطاش وهذا المورد أمامكم ، وقد جعل
الله لكم السبيل إليه ، فما بالكم لا تردون ! تبا لكم ! لا فائدة فى الفلسفة ،
والفرصة سانحة ، ولا فى التحليل والنقد ، قبحت الفلسفة ، وقبح النقد والتحليل ،
وقبح الله كل متفلسف متحذلق متكلف ، وباء من الله بالخيبة والخسران ،
وبالفشل والخذلان !

وفى هذه اللحظة يمر الكمسارى خلال الغرفة ...

فيوجه الرجل السعيد إليه الخطاب قائلا :

- مهلا يا أبا الروس ! بالله ربك إن جرت المركبة رقم ٢٠٩ فخرج بها ،
وأنشد هناك غادة فى حلة زرقاء وقلنسوة حمراء ، بيدها قمرية بيضاء ، فقل لها
إنى ههنا !

- سمعا وطاعة يا سيدى ... ولكن ، بكل أسف ليس فى هذا القطار رقم

٢٠٩ ، عندنا رقم ٢١٩

- فليكن إذن ٢١٩ ، هما سيان ... اذهب إلى السيدة فخبرها أن زوجها

بخير ، وعلى ما يرام .

يمضى الكمسارى فى سبيله مندهشا ...

ويمسك إيفان بفودى رأسه بفتة ويصيح :

- عجبا عجبا ! ما أسرع هذا التغير والانقلاب ! .. أنا زوج .. وهى زوجة ! هاهها ! بالأمس بهيم متشرد ، واليوم زوج ورب أسرة ! ولكن حالها هى أعجب وأغرب !

بالأمس طفلة صغيرة ، لعبة ، عروس من الورق ! واليوم زوجة وربة بيت ، هذا ما لا يسيغه عقل ، ولا يتصوره ذهن !

قال أحد الركاب :

- إن من أعجب العجائب فى هذه الأوقات أن يصادف الإنسان رجلا سعيدا ، فأقرب من ذلك أن تصادف غرابا أبيض .

قال إيفان أليكستففس :

- وإذا كانت السعادة البشرية فى هذه الأوقات بهذه الندرة ، فمن الملموم على ذلك ؟ إن كنت محروما من السعادة فالذنب ذنبك ، الإنسان خالق سعادته وخالق شقاؤه ، إن شاء كان سعيدا ، وإن شاء كان شقيا ، وما السعادة منك ببعيد ، إنما هى بمطرح لحظك ومتناول يدك ، فإن لم تحزها فأنت المقصر ، إى وربك إنى أرى السعادة تطلبك ، وأراك منها تهرب !

- وكيف ذلك ؟ اشرح لنا وبين .

- الأمر أبسط من ذلك وأوضح ، لقد قضت سنة الله أن الإنسان فى سن معينة ينبغي له أن يعشق ، فإذا بلغت هذه السن وجب عليك أن تصبح من فرط الغرام كأنك بيت فيه حريقة .. ولكنك لا تفعل ، عصيانا لأوامر الطبيعة البشرية ، وصمما عن ندائها ... أنت لا تهوى ولا تعشق ، ولا تستخفك الخرد الغيد ، ولا البيض الرعادي ، ولا يزدهيك خد أسيل ولا طرف كحيل ، ولست تلقى بنفسك فى بحر الصباية والأشواق ، ولا يقلبك فى معترك المهج والأحداق .. وكذلك يمر بك موكب الجمال تخفق على مناكبه أعلام الهوى ، وأنت جامد لا حراك بك كالصنم أو التمثال ، وكذلك تضيع الفرصة إثر الفرصة ، ماذا تنتظر

لا أبالك ! وهكذا تحرم لذة العشق وما يتلوها لذة الخطبة والزفاف وشهر العسل والحياة الزوجية ، كأنك لا تعلم أنه لا سعادة بلا زواج . فاسمع ، لا أسمعك الله مكروها ، متى سنحت الفرصة فاهتبلها وتزوج ، ومن نكد الدنيا أيضا أن تعرف أن الخمر منقاة الأتراح ، مدعاة المسرات والأفراح ، وأن في التوراة والإنجيل « الخمرة تفرح القواد » وتعرف أنك إن كنت في سرور فأنت المريد فما عليك إلا أن تطرق الحان ، وتسفك دماء الدنان ، ثم لا تفعل ... وكل هذا تأتيه تفلسفا منك وتعاقلا ، وادعاء كاذبا للأدب والفطنة والحصافة ، تلتبس الشهرة والظهور من طريق الشذوذ عن الجماعة وتنكب الصراط الممهد المستقيم ، والمنهج المبطون ، على حد قولهم « خالف تعرف » فاعلم - علمت الخير - أن السعادة ليست بمحاولتك الترفع عن مستوى الناس ، بل في هبوطك إلى مستواهم ، وهي ليست في شذوذك عن الجماعة بل في لزومك طريق الجماعة !

- تزعم أن الإنسان خالق سعادته ، وأن بيده سروره وغيظته ، وكيف يصح ذلك إذا كان أقل طارئ (كاعتراض ألم في ضرسك أو معدتك أو إلمامة من ثقل أو بغض) كفيلا أن يبدد سلك مسرتك ، ويتركها هباء تذرؤه الرياح ؟ ألا كل شيء بالصدفة رهين ! ولو طرأ الآن عليك طارئ لرأيتك تضرب على نعمة أخرى ..

- هذا باطل ومحال ، إن طوارئ القطارات لا تحدث إلا في الندرة ، والنادر لا يحكم له ، وما لنا الآن ولذكر الطوارئ قبحها الله وقبح من يذكرها ... كأنى بالقطار يقف بنا على محطة ؟ !

قال بيوتر بتروفتش :

- خبرني أين تقصد ؟ موسكو أم وراء ذلك جنوبا ؟
 - شفاك الله ! ماذا تقول ؟ كيف أذهب جنوبا ، إذا كان القطار يذهب بنا شمالا !

- ولكن موسكو ليست في الشمال ..
 - أعرف ذلك ، ولكن من قال إننا ذاهبون إلى موسكو ، نحن على طريقنا إلى بطرسبرج ..

- بطرسبرج ! شفاك الله ، إنك أولى بالشفاء منى ! نحن ذاهبون إلى موسكو !

- إلى موسكو ؟ ماذا تعنى ؟

- شىء عجيب ! إلى أى محطة قطعت تذكرتك ؟

- إلى بطرسبرج ...

- أهتلك ! لقد ركبت الطريق المخالف ...

فترة سكوت ، ينهض الرجل السعيد ، فيتلدد حائرا ...

ويقول بيوتربتروفتش مفسرا :

- الأمر واضح ، إنك فى محطة « بولوجو » وثبت فى القطار المخالف ،

نعم ، بعد احتسائك القدح الثانى أو الثالث من الكونياك وفقك الله إلى ركوب القطار المضاد ، الذهاب جنوبا .

وهنا يصفر وجه الرجل السعيد ويجذب بفوديه وينبرى يجول فى الغرفة كالوحش فى قفصه ، ويصبح حسرة وكمدا .

- ضلة لى ما أحمقنى وما أغبانى ! قتلنى الله ، ماذا أصنع الآن ؟ باللبلية ! إن زوجتى الساعة بالقطار الآخر منفردة حزينة تندب غيبتى وتخشى على الموبقات والمهالك ، قلقلة الأحشاء مستعرة الجوانح ! فلا أبعد الله غيرى !

ويرتمى على مقعد ، فيتلوى كمن لدغته أفعى .

- أنا البائس المنكوب الشقى ، أنا أبعد خلق الله من السعادة ! ماذا أصنع .. ؟

وهنا يتضافر القوم على تسليته فيقولون له :

- لا تخف ولا تهزن ، أبرق إلى زوجتك تنتظرك ، ثم خذ إليها قطار الشمال ، وبذلك تلحقها ...

فيصبح الرجل السعيد ، خالق سعادته ومسبب نعمته ومسرته ، مجهشا بالبيكاء :

- آخذ قطار الشمال !! ومن أين لى ثمن التذكرة وتقودى كلها مع زوجتى .

فتضاحك القوم وتهامسوا ثم اكتبوا للرجل السعيد . ، وزودوه بمبلغ .

المغفلة

وصل المهندس « سميرنوف » إلى محطة « نيولوشكى » ولم يزل أمامه مسافة ثلاثين ميلا ليبلغ الضيعة التى كلف بمعابيتها ومسحها .

وشرع يبحث عن مركبة ، وبعد الجهد الجهد ، أصاب رجلا فلاحا قويا أيدا ، شديد الأسر ، صلب العود ، عبوسا متجهما ، فى رداء رث مهلهل ، فنظر إليه وإلى مركبته وعبس وقال وهو يمتطيها :

- ما أعجب مركبتك هذه ! لا يعرف صبرها من عجزها .

- وماذا أشكل عليك من أمرها ؟ وما الذى التبس عليك واستبهم ، تأمل يا سيدى ، فحيث يكون مبرع الحصان فذاك الصدر ، وحيث يكون جناحك فذاك العجز .

وكان الحصان ضئيلا هزيلا منفرج الساقين ، فلما وقف السواق فأخذه بالسوط ، لم يزد على أن هز رأسه ، ولما سبه ولقعه بالسوط ثانية ، صرت المركبة وارتعشت ، كأنما أصابتها حمى ، وبعد السوط الثالث ترنحت ، وبعد الرابع تحركت .

فقال المهندس ، وتعجب من مقدرة السواقين الروسيين على الجمع بين بطء المسير والرجات التى تطفر الأحشاء وتخلع القلوب ، وكان قد أصيب برجة :

- خبرنى ، يارعاك الله ، أعلى هذا المتوال سيكون سيرنا كله ؟

- سنبلغ الغاية على كل حال ، الحصان فتى قوى .. وما عليك إلا استئثارته فإذا انبرى يركض ، لج وتمادى ، فلا سبيل إلى حبسه وكبحه ... شىء يأملة الكلب !

خرجت المركبة من فناء المحطة فى أخريات الشفق وقد اختلط الضوء بالظلمة ، وعلى يمين المهندس سهل فسيح مغشى بالثلج وظلال الليل متراعى الأطراف ، لا حد له ولا نهاية ، وعلى الأفق حيث يندمج فى السماء ويمتزج ، تنتشر حمرة

الشفق الخريفى البارد متضائلة مضمحلة ، وعلى اليسار يرتفع فى الظلام شبه قرية ، ولم يستطع المهندس أن يستين ما أمامه ، إذ كان مجال بصره قد سد كله بقفا السواق وكثفيه العريضتين ، وكان الهواء راكدا ، مثلوجا باردا .

قال المهندس فى نفسه ، وحاول أن يغطى أذنيه بياقة معطفه :

- أية قفرة موحشة ! لا ديار ، ولا نافخ نار .. فلو أوقع النحس الإنسان فى أيدي لصوص لما نفعه استصراخ ولا استنجاد ، وبمن يستغيث فى هذه البيداء وما من منجد ولا مغيث ! .. أضف إلى هذا أن السواق مريب الطلعة متهم الهيئة ، ليس ممن عليه يعتمد ، ولا إليه يطمأن ..

قبحه الله ، ما أضخم ظهره وما أعرض منكبيه ! ... ومثل هذا المارد العملاق ما عليه إلا أن يرفع يده ، وعلى الدنيا السلام ، يخيل إلى أن عزرائيل يكمن فى بطن كفه الضخمة الغليظة ... ووجهه السمج القبيح الممجى ، لا ينم عن خير ولا سلامة ، ألا قبح الله كلحته !

وقال المهندس :

- اسمع يا صديقى ! ما اسمك ؟

- اسمى أنا ؟

- أجل ..

- اسمى « كلیم »

- خبرنى يا مستر كلیم ماذا تعرف عن أرضكم هذه ؟ خطرة مخوفة ؟ هل بها لصوص ؟ .. هل بها قطاع طريق ؟

- كلا يا سيدى ، حفظنا الله وحاطنا مما تقول .. دار أمن وسلام ، ومن ذاك الذى يجرؤ أن يخيف الطريق ، والحكومة - أيدها الله - بالمِرصاد ؟

لقد كان المهندس يوجس خيفة من السواق ، وأراد أن يرهبه فقال له :

- الحمد لله على خلو هذه الأرض من اللصوص وقطاع الطريق ، ذلك والله نبأ سار ، ولكنى من باب الحيلة والحذر ، أحمل معى ثلاثة مسدسات (علم الله أنه كاذب فى قوله) ولا يخفى عليك يا صديقى كلیم أن من السفه والحماقة أن

تعرض لرجل يحمل ثلاثة مسدسات ، ولا بدع يا صديقى ، فالمسدس هو الموت العاجل والأجل المتاح ، وأنت إن شئت أن تلهو وتلعب ، فاختر لنفسك لعبة خلاف الموت وملهأة غير المنون ! أجل إياك وحامل المسدس ، ولو أيدت بالأعوان من قطاع الطريق ، فحامل المسدس خليك أن لا يعبأ من هؤلاء بعصابة ...

ادهم الليل ، وبدأت المركبة تضج وتصيح وتضطخب ، وتجف وترجف ، ثم انعطفت فجأة إلى اليسار ...

فقال المهندس فى نفسه :

- إلى أين يذهب بى الرجل ؟ لقد كان على صراط مستقيم ، فما الذى مأل به إلى الشمال بغتة ؟ .. وبلى على ابن الخبيثة ، كأنى به يحملنى إلى غار لصوص . وما ذاك على أمثاله بعيد ، أما ترانا لا نزال نسمع بأشباه ذلك فى كل آن ؟

ثم خاطب السواق قائلا :

- تقول إن هذه البقعة مأمونة ، وإنه لا لصوص بها ، ألا تعلم أن هذا الخبير منك يسوئنى ؟ ألا تعرف أن ملاقة اللصوص ومكافحتهم هى جل بغيتى فى الحياة ومنيتى ؟ قد أكون نحيفا ضئيلا ، ولكن لى قوة الفيل وسطوة الأسد ! ولقد هاجمنى مرة أربعة لصوص .. أفتدري كيف لاقيتهم ؟ لم يكن معى إذ ذاك مسدس .. ولكن ماذا يهمنى وجود المسدس أو عدمه ! ضربت الأول « شلوتا » فطوحته على سطح زرية ، وصدمت الثانى كما يصدم الإكسبريس من يقف فى طريقه ، فصرعته ثم دست عليه فحطمت عظامه ، فلما شاهد ذلك الثالث خر مغشيا عليه من الرعب ، أما الرابع فأسلم للريح ساقية ، آه ! لو كنت حاضرا ، إذن لشاهدت بعينك إحدى المعجزات الخوارق ! أية قوة هبطت على .. لا أدري من أين ؟ لقد كان عندى إذ ذاك من القوة ، ما كنت أستطيع أن أسحق به الصوان ، وأفت الجلمد الصفوان ، وأنفذ من الحديد والفولاذ ، كفاك الله شرى ! والله لو غضبت عليك مرة ، فما هى الإقبضة على « زمارة » ربتك بيد واحدة ، ثم أفتحها عنك كالفسيخة الميتة ، وما هو إلا أن أضع عليك كفى حتى أمسحك من الأرض مسحا ! احذرنى كما تحذر الضرغامة المصور ، واسأل الله منى العافية !

فالتفت السواق إلى المهندس وغضن وجهه ثم استحث الجواد بسوطه .

وامتدّ رسل المهندس قائلا :

- ويل للص الذى تحدّثه بى نفسه ، ليحطمن عظمه وليخدمن نفسه ، ثم ليحتوينه رسمه ، وإن فر من يدي فليلقين من القضاء أنكى العذاب ، أو نكل العقاب .. إني أعرف القضاة جميعا ومأمورى البوليس ورؤساء المحاكم ، إني لمن كبار الموظفين ، ولى عند أولى الحل والعقد شفاعة مقبولة ، وكلمة غير مردودة ، إني أرحل الآن ، وبأمر الحكومة أرحل ، وفى خدمة الحكومة أنتقل ، وأولو الأمر والنهى من المحاكم ، يتبعون خطواتي ، ويتربّعون حركاتي ، وقد بثوا فى الأرض من العيون والأرصاد ما يكفلون سلامتي من اللصوص والفتاك فى جيئتي وذهابي ، ورحلتي ومآبي ، وإن من وراء كل شجرة وعشبة على طول الطريق لعساكر وجنودا مستترة تكلّونى وترعانى .. ار .. ار ... اربط ... أين تريد أن تدخل بنا ؟ أنى تذهب بنا ؟ .. ما هذه ؟

- ألسنت تبصر ؟ هذه غابة !

فقال المهندس فى نفسه :

- حقا إنها لغابة .. تبألى ! مالى أصبح وأصرخ كالخائف المذعور ، غير أنه ليس من الحكمة أن أعلن للرجل خوفى .. ولعله قد آنس منى هية ووجلا ... وإلا فما كثرة تلفته نحوى ؟ ما أحسب إلا أنه يدبر لى مكيدة .. لقد كان فى البداية يسير الهويتنا كالسلفحة ، وأراه الآن يخب بنا خيب الذئاب !

- اسمع يا كليم ! ما بالك تستحث الجواد كأنك تسابق به الريح ؟

-- أنا لا أستعته ، إنه يتدفق من تلقاء نفسه ، ألم أقل لك إنه متى انبعث فلا

راد له ولا رادع ؟

- كذبت ، وإني والله لأتبين الكذب فى وجهك ولسانك ، إني أنصح إليك

أن تكبح من جماح فرسك ... اقبض من عنانه قليلا ، أسمع أنت ؟ أحبس لعجابه !

- لماذا ؟

- لماذا ؟ لأن أربعة من زملائي قادمون ورائي ، فلنخفف السير حتى نمكثهم

من لحاقنا ... لقد وعدوني أن يركبوا من المخططة على أثرى ليذركوني فى الغابة ...

سنجد فى صحتهم أنسا ومتاعا ... وإن فىهم لقوة وبأسا ، وكل يحمل مسدسا ...
ولكن ما بالك لا تزال تتلفت ورائك ، وتتململ كأنك على جمر ... اسمع
يا عزيزى ... إنه لا ... لا ... لا حاجة بك إلى التلفت خلفك وإدامة النظر
إلى ... إبنى شخص عادى ليس فى هيتى ما يلفت النظر ... اللهم إلا الأربعة
المسدسات التى أحمل ... فإن شئت أبرزتها إليك ...

ثم أدخل يده فى جيبه كأنه يحاول إخراج شىء ... وفى تلك اللحظة حدث
حادث ما كان ليخطر له قط على بال ، وذلك أن السواق انحدر فجأة عن المركبة
وأقبل يعدو فى الغابة بكل ما أوتى من أيد وسرعة ، وصاح بأرفع صوته :
- النجدة ! النجدة ! خذ المركبة والحصان أيها الشيطان ، ولكن لا تأخذ
روحي ! هب لى حياتى ! الأمان ! الأمان ! النجدة النجدة !

وسمع المهندس وقع قدمين مديرتين ، وصوت تقصف غصون وأشواك ، ثم
ساد السكون ... فوقف الجواد ثم اطمأن فى مقعده من المركبة ، وأطرق يفكر ،
قال فى نفسه :

- لقد ولى فرارا ، لقد ذعر الجبان !! ماذا أصنع الآن ؟ لا أستطيع الذهاب
وحدى لأننى لا أعرف الطريق ... أضف إلى ذلك أنى أتهم بسرقة المركبة
والجواد ... ماذا أصنع ؟

ثم صرخ :

- كليم ! أيها السائق ! إلى ، ولا تخف ! إنه لا بأس عليك ولا ضرر ! ..
كليم ! كليم !

فأجابه الصدى :

- كليم ! كليم !

ولما مر بخاطره أنه ربما اضطر إلى البقاء حتى الصباح منفردا مستوحشا فى
ملكوت الليل المخوف ، يلتحف الفقر والظلام ، ولا يسمع سوى الصدى
والذئاب ، ونخرات الحصان الأعرج الهزيل ! أحس وخزات فى صلبه ، كأن
ميردا قد سلط على قفاه .

- كليم ! كليم ! صديقى كليم ! أين أنت يا كليم ؟

واستمر يصيح ساعتين كاملتين ، ولما يبح صوته وتولاه القنوط ، ووطن النفس على الميت بالغابة ، حمل إليه النسيم صوت حنين كحنين الإبل .

فصاح المهندس فرحا :

- أذاك أنت يا كليم ؟ ... أنت هنا يا صديقي الحميم ؟ هلم إلينا !

- أخاف أن تقتلني !

- إنما كنت أمزج يا صديقي ، أقسم بالله ما كنت إلا مازحا ، عجبنا ، عجبنا ، كأن معي مسدسات ! وشهد الله ما حملتها قط ! لقد كذبتك محفوزا بعامل الخوف ، أنشدك الله إلا أمضيت بنا للتو واللحظة ، إنني أوشك أن أموت بردا .

وتأمل كليم فرأى أنه لو كان الرجل لصا ، لما لبث مكانه ولكان قد ذهب بالحصان والمركبة ... وعلى ذلك برز من وراء الشجر وتقدم نحو صاحبه .

وقال المهندس :

- ويحك ! ماذا أخافك ؟ أترتاع لكلمة مزح قلتها على سبيل الفكاهة ؟

اصعد !

- أصلحك الله يا سيدى ، لو علمت أن ذلك كائن لما حملتك ولا بألف

روبل ، لقد كدت والله أموت رعبا ...

وأعمل كليم السوط فترجحت المركبة ، ثم أعمله ثانية فارتجفت ، ولما تحركت بعد السوط الرابع ، غطى المهندس أذنيه يياقته ، وهام فى أودية الذكري . ولم ير فى الطريق بعد ذاك ولا فى السواق كليم أدنى شىء يخاف أو يحذر ..

أنيوتا

للمقصص الروسي تشيكوف

كان « ستيفان كلوتشكوف » شابا فقيرا من طلبة السنة الثالثة بمدرسة الطب ، وكان يسكن أرخص غرفة بإحدى الدور المفروشة المعدة لسكنى الفقراء بأجور زهيدة ، وكانت تشاركه في تلك الغرفة - تعاونا على المعاش - فتاة تنال رزقا طفيفا من صناعة التطريز ، تستدر القوت من سم الخياط ، وكانت تنفق جميع كسبها على عيشتها المشتركة ، تخفف بذلك من وطأة الدهر على شريك حياتها « ستيفان كلوتشكوف » .

كان ستيفان هذا يتمشى في الغرفة إقبالا وإدبار ، يكد الذهن في حفظ دروس التشريح ، وقد جف حلقه ولسانه وعرق جبينه لفرط ما جهد نفسه في استظهار تلك الدروس .

وكانت تجلس على مقعد بجانب النافذة المرصعة بالثلج ، شريكة غرفته وعيسته ، فتاة في الخامسة والعشرين من عمرها ، نحيفة قصيرة صفراء ، ذات عيين زرقاوين فاترتين ، خاشعتين ، لقد كانت منحنية على ياقة قميص تطرزها بخيط أحمر وكانت لشدة سرعتها كأنها مع « الزمن » في سباق ... لقد دقت ساعة المنزل اثنتين بعد الظهيرة ، والغرفة لا تزال قدرة مشوشة النظام ، لم تنظف بعد ولم ترتب ... ملاءة الفرش مجمدة ، والمخدات مبعثرة ... والحجرة خليط مشوش من الكتب والملابس والأوراق الممزقة بينها طشت غسيل تطفو عليه رغوة الصابون وتعم أعقاب السجائر .

واستمر طالب الطب يقول ويكرر :

الرئة اليمنى تتكون من ثلاثة أجزاء ... وحدودها ... الجزء الأعلى يمتد من ناحية جدار الصدر الأمامي إلى الضلع الرابعة أو الخامسة ... ومن ناحية الجنب

إلى الضلع الرابعة ... ومن ناحية الخلف إلى اللوح الفقرى ..

ثم إن « كلوتشكوف » طالب الطب ، رفع عينيه تلقاء السقف يحاول أن يصور لنفسه فى الفراغ ما كان يقرؤه فى الكتاب ، ولما أعياه أن يكون عن ذلك صورة واضحة جلية ، شرع يلمس بأصابعه موضع أعلى الرئة من أضلاعه ، وقال :

- قبح الله هذه الأضلاع ، إنها أشبه شئ بأوتار البيانو ، لا يزال يلتبس عليك بعضها ببعض ، ثم لا تستطيع التمييز بينها إلا بعد طول المران والحنكة ، ولا بد من دراستها على الهيكل العظمى وعلى الجسم الحى ... أنيوتا ! إلى يا أنيوتا ، هلمى أدرس تلك الأضلاع المشؤومة على جسدك .

فألقت أنيوتا ياقة القميص التى كانت تطرزها ، ونزعت ثيابها ونصبت قامتها ، وجلس « كلوتشكوف » بإزائها وقطب حاجبيه وشرع يعد أضلاعها ، وقال :
- باسم الله الحى القيوم ... أين الضلع الأولى ... لا أستطيع أن أجدها إنها لكامنة وراء لوح الكتف ... وهذه هى الضلع الثانية لا محالة ... نعم ... وهذه هى الثالثة ... وهذه الرابعة ... إحم ! ... وهذه ما بالك تتلوين كالآففى ؟ ... اثبتى لا ثبت الله قدمك !

- إن أصابعك لباردة ... إنها لتقع على كالثلج .

- لا بأس .. إنها لن تقتلك ... لا تتلوى ! ... هذه لا بد أن تكون الضلع الثالثة ، وإذن ... تكون هذه الرابعة ... إنك لترين كالنحيفة المهزولة ، ومع ذلك لا يكاد الإنسان يلمس لك أضلاعا ، إنك كبنات عرس ، لا عظام فيك ... هذه هى الضلع الثانية ... وهذه الثالثة ... ما أصعب هذا الدرس - درس الأضلاع - إنه لمشكل عويص لا يعرف له أول من آخر ، ولا بد لى أن أستبينه جليا ... فما على إذن إلا أن أرسمه بيدى ... أين القلم الرصاص ؟

وتناول « كلوتشكوف » قلمه الرصاص ، وخط على صدر « أنيوتا » وجنيها بخطوطا متوازية عمادية لأضلاعها ، وصاح طربا :

- جميل جدا ! فى منتهى الإبداع ! الآن أستطيع أن أجسك ! قفى !

فوقفت « أنيوتا » ورفعت رأسها ، وشرع الطالب المجتهد يجسها وبلغ من

انهما كما فى دراسته أنه لم ينتبه إلى ما أصاب الفتاة من وخزات البرد القارس ، ولا نظر إلى شفيتها وأنفها وأصابها كيف أفرطت بها زرقة الزمهرير ، وظلت الفتاة تجف وترتجف وهى مع ذلك تشفق أن يفطن الشاب إلى رعشتها ، فينصرف عما هو فيه من التخطيط والجس والدراسة فيرسب فى الامتحان .

ولما فرغ كلوتشكوف من مهمته قال :

- لقد وضح الصبح لذى عينين ، وقد برح الخفاء ، وفهمت الموضوع كما ينبغي ، البنى مكانك يا نيوتا ، لا تحركى ، ولا تمسحى تلك المخطوط ، ودعنى أحفظ ما بقى .

واستأنف الطالب الطواف فى أنحاء الحجره يتلو ويردد ، وظلت أنيوتا جانسة مكانها منقبضة ترتعش قرة ، مخططة الصدر والجنين كأنها قد وشمّت ، وكان من دأبها الصمت ، فلبثت صامته ، تفكر ثم تفكر .

وأنيوتا هذه منذ بانّت من أهلها ودار أهلها وتشردت ، واضطرت إلى سكى الغرف المفروشة ما برحت سبع ستين تنتقل من غرفة إلى أخرى عرفت فى خلالها خمسة من طلاب المدارس العليا خلاف « كلوتشكوف » ، وقد عاشت مع كل من هؤلاء ردحا من الزمان ، وكلما يتخرج واحد يتركها ويمضى فى طلب المنصب والجاه والثروة ، وتبقى هى منفردة مهجورة على حد قول القائل :

فصرت كعش خلفته فراخه بعليساء فرع الأئلة المنتهشم

وكان أحد هؤلاء يعيش فى باريز ، واثنان منهم طبيين ، والرابع مصورا ، والخامس - وكان قد ساعفه الحظ - أستاذا بإحدى الجامعات ، وسادسهم كلوتشكوف ... وماهى إلا عشية أو ضحاها ، حتى يتخرج ويترك عشه إلى الفضاء ، وأمامه المستقبل أفيج زاهر ... على أن الحاضر لم يكن زاهرا ولا أفيج ، بل ضيقا مظلما ، كان كلوتشكوف فى تلك الساعة معدما من الدخان ومن الشاى ، لم يبق عنده من ذخيرة الأمس إلا أربع قطع من السكر ، فكان حتما على أنيوتا أن تكمل تطريزها ثم تذهب به إلى طالته ... وبالربع روييل الذى تؤجره تشتري شايا ودخان .

دق الباب وسأل سائل :

« آدخل ؟ »

فسرعان ماتناولت الفتاة رداء فأرسلته على كتفها .

ودخل « فيتسوف » المصور وقال للطالب :

- لقد جئتك فى حاجة .

ثم جعل ينظر من جمرتين متأججتين من تحت ناصيته الكثيفة المنسدلة فوق جبينه وأنفه نظرات وحش صار .

- لقد جئتك فى حاجة ، أفأنت قاضيتها ؟ أقرضنى فتاتك الحسناء ساعتين من الزمان ! إني أعالج رسم صورة ، ولست والله مستطيعا ذاك بلا نموذج ، فلتكن نموذجى .

قال كلو تشكوف :

- بكل ارتياح ، اذهبى معه يا أنيوتا .

فهمست أنيوتا بصوت خافت :

- لا أنسى ما جرى لى المرة السالفة هنالك ..

فقال كلو تشكوف :

- دعيك من هذه السمخافات ، إنه لا يريدك لغرض سيء وإنما من أجل الفن ، والفن مقدس ، فلم لا تساعديه ما دمت قادرة ؟

فشرعت أنيوتا تلبس ثيابها .

وقال كلو تشكوف للمصور :

- إلهة الحب ، إنه موضوع ممتع ، على أنى أجده صعبا مستعصيا ، ولقد حاولت التصوير من نماذج شتى ، وبالأمر جعلت نموذجى فتاة مليحة ، ولكنى وجدت ساقها زرقاوين ، فكلمتها فى ذلك ، فقالت إن جوربها الأزرق قد نفى عليها من صبغته ... ولكنى أراك تقتل نفسك مذاكرة وحفظا ، أما إن ذخيرة صبرك لا تنفد .

- إنما هو الطب ، لا تنال منه الأقل إلا كذا وجهدا ..

- هذا وأراك تعيش هنا أسوأ عيش وأقذره يرحمنا الله ، لعيشة الكلاب أنظف من هذا وأنقى .

- ماذا تعنى ؟ أما أنه لا حيلة لى فيما أكابد وأعانى ، أنا لا أنال من أبى سوى اثنى عشر روبلا فى الشهر ، ومن المحال أن تعيش بهذا القدر الطفيف كما تهوى .

قال المصور وعبس تقززا واشمئززا :

- نعم ... نعم ... ولكنك تستطيع على أية حال أن تجعل غرفتك أنظف وأثاثك أحسن نظاما .. إن الرجل المثقف المهذب لخليق أن يكون على شىء من سلامة الذوق .. أليس كذلك ؟ والله يعلم أى حجرة هذه ! الفراش مشوش ... والملاءة مبقعة ، وهذه الأوساخ والمقادر .. وعصيدة أمس لا تزال فى الصحون .. تفوح !

قال الطالب مرتبكا :

- إنه لكما تقول : ولكن أنيوتا لشدة انشغالها بالتطريز الذى تكسب منه قوتنا لاتجد من الوقت متسعا لترتيب المكان .

ولما ذهب المصور بالفتاة استلقى الطالب على المتكأ وشرع يحفظ ثم أخذته سنة من النوم ، ولما انتبه بعد ساعة وضع ذقنه على يده وأطرق يفكر فى سوء حاله ، وتذكر قول المصور أن الرجل المثقف المهذب لخليق أن يكون على شىء من سلامة الذوق ، وهنا تجلت له غرفته لأول مرة فى أبشع مظاهر التشوش والقذارة ، ثم تجلى له مستقبله فى ناظر الخيال أنيقا مشرقا بهيجا ، وتخيل يوما يصبح فيه مشهورا تنص بالفود عيادته ، وتزدان بالزوجة الحسنة حجرتة ، ونظر إلى طشت الماء القذر تطفو عليه رغوة الصابون وتعم أعقاب السجائر فعرته قشعريرة وأغمض أجفانه اشمئززا ، وارتفع كذلك فى خياله شيخ أنيوتا سمجا قبيحا ، فعزم على فراقها مهما كلفه ذلك .

ولما عادت من عند المصور ونزعت رداءها نهض من مكانه وقال لها :

- التفتى إلى يا بنيتى ، اجلسى واسمعى لا بد لنا أن نفرق ! فالواقع أنى لا أحب أن أعاشرك منذ الآن .

لقد عادت أنيوتا من لدن المصور متعبة منهوكة ... وكان طول الوقوف -
كنموذج - قد أشعب وجهها وأضناه ، فأطرقت واجمة لا تفوه بكلمة ، سوى
أن شفتيها ظللتا ترتجفان .

وانستمر الطالب :

- قد تعلمين أنه لا بد من افتراقنا عاجلا أو آجلا ، وأنت يا بنيتي ذكية ليبة ،
وانك لتفهمين ما أقول ...

فلبست أنيوتا رداءها ثانية ، وطوت تطريزها ولفته في ورقة وجمعت إبرها
وخيوطها ، وكل ذلك في أتم صمت وسكينة - وتناولت من فوق النافذة قطع
السكر الأربعة (كل ما يملك الطالب من حطام الدنيا) فوضعتها على المائدة
بجانب كتبه .

وقالت له في رفق وحنان :

- هذا سكرك ...

ثم أدارت وجهها لتخفي دموعها المنسكبة ، وقال كلوتشكوف :

- فيم البكاء يا بنيتي ؟

وأقبل يتمشى في الغرفة جيئة وذهابا وبه من الحيرة والاضطراب ما به ،
وقال :

- حقا ، إن هذا منك لعجيب ... ويحك ! أما تعلمين أنه لا بد لنا من
الافتراق يوما ما ، وأنه ليس في الإمكان أن نبقي معا إلى الأبد ...

وجمعت الفتاة كل متاعها وواجهته لتحبيه تحية الوداع الأبدى ، عند ذلك
خانه الصبر ومست كبده لوعة حزن على الفتاة ، فقال في نفسه :

- ما ضرني لو أبقيتها معي ، ولو لأسبوع واحد ، أما أنه لا بأس من بقائها
إلى حين !

وساء ما بدا له من ضعف عزمته وخوره ، فصاح إليها بشدة وخشونة :

- تعال ، مالك واقفة هنالك ؟ إن كنت ذاهبة فاذهبي ، وإلا فاخلمي نعليك
ورداك وابقى ههنا ، لا بأس من بقائك !

فنزعت أنبوتا رداءها وحذاءها فى صمت وخفية كالسارق الذى يحاذر أن يرى ، ثم مسحت دموعها وأنفها فى خفية أيضا ، وتنهدت فى خفية ، وبمنتهى الترفق والسكون وعلى مشطى قدميها مشت إلى النافذة ، فأخذت مكانها المعهود . وسحب الطالب كتاب التشرىح واستأنف التطواف فى الحجرة ، يقول ويردد « الرثة اليمنى ، تتألف من ثلاثة أقسام ... الأعلى ويمتد على جدار الصدر الأمامى إلى الضلع الرابعة أو الخامسة ...

ليزا

كان الفتى « أليكس » الابن الأوحيد لسرى من سراة الروس يدعى « إيفان » رب ضياع وأملاك ، وكان الشاب « أليكس » قد أتم دراسته بإحدى الكليات وعاد ليعيش فى قصر أبيه عيشة المترفين وكان جميلا وضىء الطلعة رشيق القد . لا تزال الفتيات تشرئب إليه وتطمع وإنه عنهن لمعرض . لا يأبه لهن ولا يكثر فكن يؤولن ذلك بأنه لا يد أن يكون قد تعلق بمعشوقة شغلت باله وملأت قلبه . والواقع أن أولئك الفتيات كن يتداولن بين أيديهن نسخة من بعض رسائل هذا الشاب ، وهذا نصها إلى س . ف . موسكو ، أمام دير ألكفسكى ، ومن فضلها تسلمها إلى أ . ن . ر .

لقد حارت الفتيات فى أمر ذلك الفتى - إذ كان أول فتى رأيته يصف الموم والأشجان والقلوب الدامية . والجفون الهامية . وأول من لبس خاتم الحداد منقوشا على فسه رمز الموت .

وكان أشد الجميع تعجبا من أمره واهتماما لشأنه الفتاة « ليزا » ابنة جاره السيد « جريجورى » - مع أنها لم تكن رآته قط وذلك بسبب ما كان بين أبييهما من تقاطع قديم العهد .

كانت « ليزا » فى السابعة عشرة من عمرها وضاءة الطلعة ساحرة الطرف دعجاء المحاجر . ميالة للعب واللهو جملة الخلاعة والمرح والفكاهة . وكان لها وصيفة تدعى « ناسية » فى مثل سنها وطيشها وخفتها . وكانت مستودع أسرار سيدتها فى تدبير الخطط والحيل .

قالت الوصيفة « ناسية » لسيدتها ذات صباح : « أتأذنين لى ياسيدتى فى الخروج لزيارة صديقة لى ؟ »

« لا مانع . ولكن أين تذهين ؟ »

« إلى دار السيد « إيفان » والد « أليكس » فإن امرأة طاهيهم تحتفل اليوم

بعيد ميلادها ، وقد جاءت أمس فدعتنا إلى الوليمة »
قالت ليزا : « هذا عجيب جدا ! سادة البيتين فى صدام ولدنا . وخدم البيتين
فى مدام ولدنا ! »

« ما للسادة ولنا ؟ وبعد فإننى تابعة لك لا لأبيك . وما أحسب أن بينك
وبين « أليكس » عداوة . فدعى الكبار فى خصامهم ما سرهم »
قالت ليزا : « اذهبى يا ناسية وانظرى « أليكس » وافحصيه فحفا دقيقا ،
ثم عودى ففصيه لى وانعتيه كما هو لا تزيدى ولا تنقصى »
وكذلك مضت الوصيفة وأقامت ليزا تنتظر إياها .

وعادت « ناسية » مساء فقالت : « لقد أبصرت « أليكس » ياليزا ووقفت
إلى ملازمته سحابة اليوم »

قالت ليزا : « وهل هو من حسن الصورة وجمال الطلعة على ما يصفون ؟ »
« وفوق ما يصفون يا ليزا . أهيف رشيق القد ممشوق القوام أغر أبلج وضاح
العجين »

« أحقا ما تقولين ؟ لم أكن أحسبه كذلك . وهل رأيت عليه سيما الحزن
والكتابة كما يزعمون ؟ »

« الأمر على نقيض ذلك . فما رأيت أفرح منه ولا أفرح ولا أكثر دعابة
ولا أغزر فكاهة ، ولقد بلغ من فرط دعابته أنه اقترح علينا نحن الفتيات أن يطوف
علينا فيعانقنا ويقبلنا جميعا »

قالت ليزا : « ولكنهم يقولون إنه عاشق مشغول بمن يهوى عن الناس طرا »
« لا علم لى بذلك ولكن المرجح أن هذا الزعم باطل - بدليل أنه كان لا يزال
يرشقنا بنظراته ويدهم إلينا كرة الحماظة ولم يسوئنا منه ذلك - إذ كانت الحماظة
تنبعث عن أحلى عينيْن فى أجمل محيا »

قالت ليزا : « وماذا يقول عنه خدامه ؟ »

« يقولون إنه غاية فى الظرف والركة - ما شئت من عذوبة لقاء وحلاوة أنس
وسحر بيان - وأنه لا عيب فيه سوى فرط افتتانه بالغوانى . على أنى لا أرى فى

عيا كبيرا »

قالت ليزا وتنفس الصعداء : « من لى بأن أراه ! »

« وماذا يمنعك يا سيدتى ؟ إن قريته ليست منا بعيد . إنها منا على ثلاثة أميال . فاذهبي ثمت فقابليه وحادثيه كما تشائين »

قالت ليزا : « كلا كلا ! هذا ما لا يكون أبدا . ولكن فعلت ذلك حسب أنى به مفتونة وفى حبه مستهامة ، وأنى أطلبه وأعدو وراءه . هذا فضلا عما بين أبويننا من النفرة والجفاء مما يحول دون لقيانا واتلافنا . لقد ستح لى خاطر يا ناسية وهو أن أتبرى له فى زى فتاة فلاحه ! »

قالت ناسية : « يالها من حيلة ! اذهبي إلى قرية « أليكس » فى زى الفلاحات واعرضي له . وأنا الكفيلة أنه سيحفل بك ويكثرث »

قالت ليزا : « ولا تنسى أنى حاذقة بحكاية لهجة الفلاحات وألفاظهن . ما أبدع هذه الحيلة وما أشد فرحى بتوفيقى إليها »

وفى الصباح شرعت ليزا فى إنفاذ تدبيرها ، فاستحضرت ثياب الفلاحات وخاطت لنفسها منها رداء ووشاحا . وجربتھما على نفسها أما المرأة فأعجباها أيما إعجاب . وتبين لها أنها فى تلك الثياب الريفية أملح منها فى أفخر حللها وأبهر حليها . ثم أخذت تدرب نفسها فى المرأة على أساليب الفلاحات فى التحية والخطاب والحركة والإشارة والصوت واللهجة وتعطى نفسها دروسا فى تلك الحركات . تمشى أمام المرأة إقبالا وإدبارا وتنحنى تحية وتلوى بالسلام بنانها ، ثم توالى هز رأسها على نحو ما تفعل الهرة الصينية ، ثم تتكلم بلهجة الريف وتضحك من نفسها . ونالت حركاتها هذه مزيد الاستحسان من وصيفتها ناسية .

وكذلك ذلت الآنسة ليزا كل عقبة سوى واحدة . وهى أنها لم تستطع أن تسير حافية القدم . لقد جربت ذلك فى ساحة القصر ولكن الحصى خدش عقيها وأدعى أحمصيتها . وكيف لا يفعل بها ذلك وإنها لكما قيل :

قطرات النسيم تخدش خديه ولمس الحرير يدمى بنانه

فوقفت لا تستطيع حراكا حتى أسعفتها وصيفتها ، وكذلك استحضرت

خفين من الأنخفاف الريفية .

ولما هبت نسيمات السحر ورق جلباب الظلام ، تسلفت ليزا من خدرها وهست فى أذن وصيفتها بكلمات تقولها لمريبتها إن سألتها عن علة غيابها .
واحدت فى السلم الخلفى إلى الحديقة ومنها إلى الروض المجاور .

لاح الفجر وصرح وجنة الأفق أرجوانا . وكلل جبين الشرق ذهبا وعقيانا .
وكأنما السحب فى صفوفها موكب يرتقب من طلعة الشمس مليكا بجواهر الضياء متوجا . وفارسا فى شكة الشعاع مدججا . ولقد كان فى رونق الصباح .
ولألاء حبب الطل فى أقداح الأفاح . وفى خفق أذيال النسيم . وهتاف الطير بالترنيم والتغنيم . ما أفاض السرور على قلب الفتاة وأشاع الطرب فى جوانحها .

وأغذت السير تطوى بساط الأرض طيا ، خيفة أن يعترضها عائق حتى خرجت من دائرة أملاك أبيها . ودخلت الغابة التى تفصلها عن ضيعة جارهـم -
والد الفتى أليكس - وإذ ذاك خفضت من سيرها . وعولت أن ترقب ثمت ظهور الفتى .. وهنا اشتد خفقان قلبها وما تعرف لذاك من علة . خبرنى أيها القارئ .. ألا ترى أن ما يصحب نزواتنا أيام الشباب من عوامل الخوف والفرع هو أمتع ما فيها .. هو لذتها وفتنتها ؟

استرسلت الفتاة فى مطريات الذكريات ومفرحات الأمانى ، ثم ذهبت فى أعماق الغابة تملك بين ألفافها طريقا مدللا مظلا يضرب عليه الدوح سرادقا من مشتيك العيدان وموتشب الأغصان .

وإنها لكذلك إذ أقبل نحوها كلب صيد بديع الشكل يشب وينبح فريعت وصاحت ، وإذ ذاك سمعت صوت إنسان يزرع الكلب ثم طلع عليها من بين الشجر صياد صغير .

فقال لها : « نفسى فداك يا غادة . لا تراعى . إن كلبى لمؤدب مستأنس »
فأفرخ روعها . ثم قالت وتظاهرت بشيء من الخوف يشوبه شيء من الغفر :

« ولكنى يا سيدى أكاد أموت رعبا . وكلبك هذا متنمر مستأسد يكاد يتميز غيظا . شد ما أخافه »

وهنا جعل أليكس (قد عرف القارىء أنه أليكس) يديم إليها النظر ثم قال :

« إن كنت خائفة فاسمحي لي أن أصاحبك في سيرك . أتأذنين لي في ذلك ؟ »
قالت ليزا : « ومن يمنعك من ذلك ؟ كل إنسان حر طليق يروح ويغدو أينما شاء »

قال أليكس : « ممن الفتاة ومن أين ؟ »

قالت ليزا : « من قرية بريلوتشينا وابنة حدادها وسيلي » وقد جئت ههنا لأجني من بقول هذا الروض وأكلائه »
وكانت تتأبط حقيبة فقالت : « وأنت يا سيدى من أى القرى ؟ أحسبك من « توجيلوفو »

قال أليكس : « أجل . إني خادم اللورد الصغير أليكس ابن سيد القرية »
أراد أليكس بأكذوبته هذه أن يفهم الفتاة أنه من طبقتها وفي مستواها .
ولكن ليزا تبسمت وقالت :

« لست من البله والسذاجة كما تخالنى . أنا أعتقد أنك اللورد الصغير نفسه »

قال أليكس : « وما يملكك على هذا الاعتقاد ؟ »

« أسباب كثيرة »

« ولكن »

فقاطعت الفتاة قائلة « أتريد أن تخدعنى عن الحقيقة ؟ أتخسبنى لا أميز بين السيد والخادم ؟ »

لما سمع أليكس من ليزا هذا الكلام أطربه صوته وسبته خفة روحها ورقة شمائلها وحده ذكائها الممزوجة بعنوبة سذاجتها فصبا إليها وأولع بها . ولما كان من شأنه إسقاط الكلفة والاحتشام بينه وبين طبقة الفلاحات ، دنا منها وهم أن يلثم ثغرها ولكنها فرت وأجفلت واستشعرت الجدد والوقار ، وقالت :

« إذ شئت دوام الصداقة بينى وبينك فلا تنتهك فيما بيننا حرمة الأدب »

قال أليكس « جعلت فداك ، أخبرينى يا غادة من ذا الذى علمك كل هذا

الأدب والحكمة ؟ ومن ذا الذى نثر لؤلؤ اللفظ الرحيم ، من ثانيا لؤلؤ ذلك الثغر
النظيم ؟ »

حينذاك أدركت ليذا أنها تعدت حدود شخصيتها المزيفة ، وبرزت من ثوب
تنكرها المستعار ، فسرعان ما توارت فى حجابها ، وتداركت أمرها ، فقالت :
« أو تنكر على ما تراه منى من آيات العلم والاطلاع ؟ لا عجب فلقد رأيت
وسمعت شيئا كثيرا من محاورات ساداتى الأرسطوقراطيين . ولكنى أرانى أطلت
الحديث معك ، وقد آن لى أن أجمع من البقول والأعشاب حاجتى فامض فى
سبيلك وذرنى وشأنى »

وهمت بالانصراف ولكن أليكس منعها ممسكا بيديها - قال :

« فدتك نفسى من ساحرة فتانة . نبئينى باسمك يا غادة »

قالت ليذا وحاولت أن تتملس من قبضته :

« اسمى ألكولينا . ولكن دعنى يا سيدى فقد آن أن أعود إلى منزلى »

قال أليكس « اسمعى يا ألكولينا لأزورن يوما ما أباك الحداد « وسيلى »

قالت ليذا « ماذا تقول ؟ لا تفعل ذلك ولا يهمنس بخلدك أن تفعله . ولو علم
أبى أنى كنت أحداث رجلا من الأشراف بخلوة فى ظلال الغابات لأوسعنى سبا
وضربا »

« ولكن لابد من لقائك مرة أخرى . »

« لا بأس سأتى ههنا ثانيا لجمع البقول »

« ومتى ؟ »

« غدا إن شئت »

« سيدتى ألكولينا . بودى لو أقبل وجنتيك ولكنى أهابك . غدا نلتقى فى

مثل هذه الآونة . أأست تعدينى ذلك ؟ »

« بلى »

« وما أحسبك تخدعيني ؟ »

« كلا »

« أقسمي »

« أقسم بروح القدس لن أخدعك »

ثم افترقا .

عادت ليزا إلى دارها فغيرت زياها . وجعلت تجاوب أسئلة وصيقتها ناسية «
مجاوبة من به ذهول وتدله .

أما أليكس فراح من فرط الطرب في نشوة عازب اللب شارد العقل ولم يذق
النوم ليلته .

وبالكر المكان المعهود والطير في وكناته ولبت يرتقب الفتاة ساعة من الزمان
خاها دها . وأخيرا لمح من خلال الأعشاب ذيل رداء أزرق ، فهرع إلى الفتاة
ألكولينا وأقبل يشكرها حسن وفائها بلسان دافق وقلب خافق ، وأضاءت بحيا
الفتاة ابتسامة كان يشوب رونقها ظل من الهم والأسى . فسألها أليكس عن علة
حزنها ، فقالت ليزا إنها جد آسفة على ما كان منها أمس من اختلائها به واسترسالها
معه في الحديث مما لا يتفق مع عفاف العذارى . وإنها لم تأت الساعة إلا برا
بقسمها المقدس . وإنها لن تراه بعد الآن مطلقا وترجوه أن يتقضى أسباب علاقة
لن يكون من ورائها إلا الشر .

فلما سمع الفتى كلامها كاد أن يلفظ نفسه ثم استجمع ليه وأبرز جماع
ما عنده من حجة وبرهان ليصرف الفتاة عما اعتزمته من مقاطعته، وحاول أن
يفهمها شرف غايته وفرط خضوعه لها وإذعانه . وضرع إليها أن لا تحرمه رؤيتها
ولو مرة في الأسبوع . وكان ينطق عن حرقة كامنة ، ولوعة باطنة . ولاشك
مطلقا في أنه كان إذ ذاك عاشقا مغرما . وصبا متيما . وأصغت إليه ليزا في
صمت وسكينة .

ثم قالت « أعطني عهد الله وميثاقه أنك لن تطرق قريتنا لتبحث عني مطلقا .
ولن تحاول لقائي إلا فيما أحدهد لك من المواعيد . » فعاهدها على ذلك وجعلها
يجوسان خلال الغابة - يتجاذبان أطراف المحاورة ، ويتساليان أهداب المذاكرة -
إلى أن قالت ليزا

« لقد آن أن أعود إلى دارنا »

لم يمض على الفتى والفتاة شهران حتى تجاوز بهما الغرام كل حد . وجن كل واحد منهما بصاحبه جتونا . وكان كلاهما يرى أن أمر الزواج بينهما مستحيلا . فكان أليكس على الرغم من فرط شغفه وهيامه يعلم أنه ليس في الإمكان أن يتزوج قروية وضبعة النسب . ولذا تعلم أن ما بين أبيهما من الإحنة والضعفة يحول دون ذلك الزواج .

في ذات يوم من أيام الخريف خرج السيد « إيفان » والد « أليكس » للتنزه على صهوة جواده ومعه ثلاثة أزواج من كلاب الصيد ورجلان من حراس الصيد . ونفر من الغلمان في أيديهم المقارع .

وفي تلك الآونة كان جاره وعدوه الألد « جريجورى » والد الفتاة « ليزا » قد خرج للتنزه على فرسه لتعهد مزارعه .

وكذلك التقى الخصمان في ألفاف الغابة فجأة . فعمد « إيفان » إلى خصمه « جريجورى » فحياه فى أدب وحفاوة . ورد عليه « جريجورى » السلام فى غلظة وجفاء وهو فى ضميرة يلعن الساعة التى جمعتهم وخصمه فى صعيد واحد . فى هذه الآونة نجم أرنب من خلال الأشجار فصاح « إيفان » صيحة شديدة وأطلق كلاب الصيد ثم انبرى هو وحارس صيده فى أثر الطريدة ، وكانت فرس « جريجورى » لم تتعود الصيد فريعت فأجفلت ثم قذفت براكبيها « جريجورى » فهوى إلى الأرض فأسرع إليه « إيفان » فأنهضه ثم دعاه لمرافقته إلى داره . فلم يستطع رفض دعوته إذ أحس أن لجاره عليه منة قد وجب شكرها .

وكذلك عاد إيفان إلى داره مكللا بالنصر والفخار يقتاد الأرنب ويقتاد أيضا خصمه الألد جريحا مرضوضا لا يكذب من يسميه أسير حرب وأخيذ هيجاء . تناول الجاران الغذاء معا وأخذوا يتحدثان وقد تحللت أحقادهما وسلت أضغانهما . ولما هم « جريجورى » بالانصراف أعاره « إيفان » إحدى مركباته إذ كان لا يستطيع امتطاء فرسه ولم يبرح حتى وعده إيفان أن يرد إليه الزيارة من غده مستصحبا نجله « أليكس » وكذلك ترى أن إجفالة من فرس جموح تحت عداوة قديمة لم يستطع محوها كالحقبة والدهور .

ولما أفضى جريجورى إلى داره استقبلته ليزا فصاحت « مالك تعرج بأبتاه .

أين فرسك ؟ ومن أين هذه المركبة ؟ » .

فقص عليها أبوها كل ما جرى له مع جاره وباغتها فى نهاية الحديث بقوله أن إيفان وابنه قادمان فى الغد لتناول الغداء على مائدتهما . فاصفر وجه الفتاة وصاحت « ماذا تقول ؟ إيفان وابنه يتناولان الغداء عندنا غدا ! هذا ما لا يحتمله انسان ! افعل ما بدا لك يا أبى ولكن . . لا تلزمنى أن ألقاهما فذلك مالا يكون أبدا »

قال جريجورى « ما بالك يا صبية ! هل عزب عقلك وضاع صوابك ؟ خبرينى متى كان من طبعك كل هذا الحياء والخجل ؟ على رسلك وثوبى إلى رشدك »

قالت ليزا « كلا يا أبى . لن أظهر أمام إيفان وابنه ولو سيقن إلى الدنيا بخلافيرها . »

فسكت الرجل إذ علم إنه لا فائدة من مجادلتها ثم تركها ومضى . وآت ليزا إلى حجرتها فاستدعت خادمتها ناسية ففقدتا جلسة سرية وطفقتا تشاوران فى ذلك الطارئ المباغت وماذا تكون الحال إذا أبصر الفتى أليكس فى السيدة المهذبة ليزا فلاحته ألكولينا - وماذا يكون حكمه عليها بعد ذلك ؟ وبينما هما فى قيل وقال سنحت للفتاة خاطرة فيها حل تلك المشكلة فأفضت بها إلى ناسية واتفقتا على تنفيذها .

ولما اجتمعت الفتاة بأبيها فى الغداة على مائدة الإفطار قال لها :

« ألا تزالين مصرة على اجتناب السيد « إيفان » ونجله ؟ »

« سألقاهما ولكن على شرط - وذلك أنه فى أى هيئة كان ظهورى أمامهما وفى أى زى وملبس فلا تبدين أدنى تسخط أو غضب » .

فاستضحك الرجل وقال « أظنها ألعبوبة جديدة من الألعابيك . لا جرم يا ليزا إنى موافق فافعل ما بدا لك أيتها الحاجة الفتاة » .

فى الساعة الثانية بعد الظهر قدم السيد إيفان ونجله فى مركبة يعجرها ستة جياد يحفهما الخدم والحاشية . واستقبلهما جريجورى « فى غرفة السماط . ولما اطمئن بالثلاثة المجلس - أخذ الشيخان يتذاكران أيام الصبا وعهد الشباب

وظل « أليكس » يدمن الفكرة فى ابنة جريجورى التى لم يكن قط أبصرها (فيما كان يتوهم) وجعل يرتقب دخولها عليه بفارغ صبر لكثرة ما سمع عن بدائع محاسنها - وهو مع اشتغال قلبه بحبيته ألكولينا اشتغالا لم يدع فيه مجالا لغيرها - فإن روحه القلقة المتأججة كانت لا تزال تخف وتنشط إلى ملح الجمال أينما كان

كالعين منهومة بالحسن تتبعه والأنف يطلب أقصى متهى الطيب فتح الباب ودخلت ليزا . وهم أبوها أن يقدمها إلى ضيفيه ولكنه حينما أبصر هيتها التى شاءت أن تظهر فيها إذ ذاك ارتد حائرا دهشا وعض على شفتيه غيظا . لقد راعه ودهاه أن أبصر ليزا الحسناء « الخمرية اللون » قد أكملت على بشرتها الصافية الرقيقة أكثف طبقات من الطلاء الأبيض والأحمر وحملت نفسها من أنقال الحلى والزخارف ما يكل عن حملة الجمل الأكوم . وكذلك كان من المستحيل على أليكس أن يميز حبيته فى شخص تلك السيدة المحتجة وراء أكثف جدار من الأصباغ والألوان - قد ازدحت عليها الحلى والزخارف ازدحام النجوم الشوابك فى أديم السماء . والحجب المتكاثر على صفحة الماء .

انحنى السيد « إيفان » على يد الفتاة « ليزا » وقبلها وفعل الفتى مثل أبيه على الرغم منه . غير أنه لما لمس أناملها خيل إليه كأنها ترتجف . واستسلم أبوها لقضاء الله فسكت على مضض - بل جعل يتصنع السرور والضحك .

جلس الجماعة إلى الخوان ومثل أليكس دوره الذى لا يزال يمثل فى حضرة السيدات من التظاهر بقلة الاكثراث وغروب الدهن وانشغال البال . ومثلت ليزا دورها من التكلف والتصنع والرياء فجعلت تتكلم بالفرنسية وتلفظ الكلمات من خلال أسنانها - وأبوها ينظر إليها ولا يفهم غرضها من هذا المسلك .

وأخيرا انصرفوا عن المائدة واستأذن الضيفان وانطلقا .

سرت ليزا بنجاح حيلتها .

وفى غداة الغد أسرع إلى لقاء أليكس فى الغابة وفاء بسالف وعدها .

ولما رآته فاتحته قائلة « يقولون إنك كنت ضيفا على سيد أهل قريتنا - ما

رأيتك في ابنته ليزا - سيدتنا الصغيرة ؟ »

« لم أحفل بها ، بل لم ألتفت إليها قط . »

« هذا مما يؤسف له . »

« ولماذا »

« لأنني أردت أن أتأكد منك صحة ما يزعمونه من إفراط الشبه بيني وبين السيدة « ليزا » . »

« هذا كذب صراح ! فض الله أفواههم إن كان هذا ما يزعمون - إن « ليزا » تلك لفي غاية من القبح والسماجة . »

« لا تقل ذلك يا سيدي إن مولاتنا الصغيرة « ليزا » لآية في الظرف والملاحة . وأين أنا منها وما أصالح أن أكون لها خادمة . »

« أقسم بالليل والنهار . والفلك المنار . أنك أجمل منها ألف مرة - بل أجمل نساء هذا العالم . »

ثم أخذ ينعت مقايح مولاتها ليزا « بما أثار ضحكها وملأها طربا وعجبا »
قالت « هبني أجمل منها صورة - فأين من علمها جهلي - ومن ذكائها غبائي ومن ظرفها جفائي ؟ »

قال أليكس « لا تقول ذلك ، فلأنت والله وأذكى منها قلبا ، وأبرع أدبا ، ولست بالجافية الغيبة كما تزعمين ، ولفن امتازت عنك ليزا بالقراءة والكتابة ، فما أيسرهما ، لأعلمنك في أقرب وقت . »

- إنني إلى ذلك محتاجة ومالي لا أتعلم القراءة وأنت المعلم . »

قال أليكس « فلنشرع في الحال . »

ثم افترشا العشب واستخرج أليكس من جيبه قلما وقرطاسا . وبدأ يعلم الكولينا حروف الهجاء . فسرعان ما تعلمتها وجعل أليكس يتعجب من حدة ذكائها وسرعة حفظها .

وفي اليوم التالي شرع يعلمها الكتابة . فأوهته بادئ بدء أن القلم في كفها مستعص - ولكنه مالبث أن انقاد وأحكم رسم الحروف .

وصاح أليكس طربا وافرحتاه ! إن طريقتنا فى التعليم لأسرع أثرا وأطيب
ثمرا من كل ما عرف الناس حتى الآن من طرق التعليم ومناهجه » .

وفى الدرس الثالث استطاعت ليزا أن تجيد القراءة فى ترجمة كتاب « هلواز
المجديدة » لجان جاك روسو . وبعد القراءة حررت رسالة نقدية عن أسلوب
الكتاب ومغازيه وأغراضه . فطار عقل أليكس وأوشك أن يجن من فرط دهشته .
مر على هذه الحال أسبوع ونشأت بين الفتى والفتاة مراسلات وكان صندوق
البريد الخادمة ناسية فكان أليكس يأتى تلك الشجرة فيتسلم ما يكون فى جوفها
من رسائل معشوقته ويضع ما عنده من رسائل .

وفى هذه الأثناء كانت الصحبة الجديدة بين الأبوين قد بلغت أقصاها وأصبحت
كالأخوين لا يطبق أحدهما عن الآخر فراقا . فتفاوضا فى أمر تزويج « أليكس »
من « ليزا » واستقر على ذلك رأيهما ثم شرعا فى تنفيذه ..
قال السيد « إيفان » لابنه أليكس ذات ليلة :

« أريد أن أفتحك فى مسألة هامة وهى مسألة زواجك » .

« زواجى بمن يا أبتاه ! »

« بالآنسة ليزا ابنة جارنا جريجورى - إنها نعم العروس يا بنى ما شئت من
حسن فائق وأدب رائع . وظرف شائق » .

« أعفنى من ذلك يا أبى إن أمر الزواج لا يخطر لى على بال » .

« إن كان لم يخطر ببالك فلقد خطر ببال أليك » .

« إبنى طوع إرادتك يا أبى ولكنى لا أحفل بالآنسة ليزا ولا أجد فى نفسى
أدنى ميل إليها » .

« لعلك ستحفل بها وتميل إليها إن أنت لابتستها قليلا . فالحب ثمرة ينضجها
الزمن والعشرة » .

« لا آتس فى نفسى القدرة على مسرتها وإسعادها والقيام لها بحق الزوجة على
الزوج » .

« عجا لك يا أليكس ! بمثل هذا الرفض تقابل رغبة أليك فى زواجك ؟

ما هكذا يكون الحنان والبر بالوالد »

« لا أرغب فى الزواج ولن أتزوج »

« بل لتزوجن برغم أنفك ، أو لألعنك لعنة تدخل معك قبرك . ثم لأبدن ثروتى أدراج الرياح فلا تنال منها مفقال ذرة . على أنى ممهلك ثلاثة أيام ترى فيها رأيك - ثم لا ترينى وجهك قبل ذلك »

ذهب أليكس إلى غرفته غضبان أسفا - وجعل يفكر فى السلطة الأبوية وما ينبغى من تحديدها وتقيدها ، ثم فكر فى معشوقته ألكولينا وقر رأيه على أن يتزوجها وينفق عليها من عرق جبينه فالفقر معها أمتع من الغنى مع سواها .

وكان زمهرير الشتاء قد حال دون التقائهما فحرر إليها رسالة يشرح لها فيها جملة الحال وما قد اعتزمه من الزواج بها مضحيا فى سبيل ذلك بالجاه والثروة ، ثم وضع الرسالة فى جوف الشجرة كدأبه وعادته . وانقلب إلى فراشه فرحا مسرورا .

وفى الصباح سار إلى جاره جريجورى ليتوسل به إلى أبيه لعلمه ما قد امتاز به جريجورى من الانتصار للحرية وكراهة الاستبداد .

ولكنه لم يجد جريجورى فى داره - وقال له الخدم إن ابنته « ليزا » فى غرفة الاستقبال فعزم على شرح الحال لليزا نفسها والاستغاثة بها من استبداد أبيه إذ كان ما يريد أياه من مسألة زواجه بها رغم إرادته مما لا ترضاه هى ولا تقبله ومن مصلحتها أن تمنعه . فعمد إلى غرفة الاستقبال وما كاد يلج بابها حتى عرته دهشة وذ هول . ماذا يرى ؟ أهذه ليزا ؟ كلا ! هذه ألكولينا ! سمرتها وشعرها الأسود ! هى هى بعينها وإن لم تلبس الثياب الريفية التى كانت تلقاه فيها . وماذا تصنع ؟ إنها تقرأ رسالته التى بعث بها إليها - ولذلك لم تحس بدخوله .

فلما برح له الخفاء وتجلت لعينه الحقيقة ناصعة هجم عليه السرور وطفى على قلبه الفرح - فارتضى على قدميها - فصاحت مندهشة وحاولت أن تتملص من قبضته ولكنه أمسك بيدها وأعتقلها وجعل يصيح .

« ألكولينا ! ألكولينا ! »

فقال بالفرنسية وهى تحاول الخلاص من قبضته

« ماذا أصابك وماذا دهاك ؟ أمجنون أنت ؟ »

ولكن أليكس استمر يصيح « ألكولينا ! ألكولينا ! حبيبتى ألكولينا ! وجعل
بشم يدها مبدئاً ومعيداً - وكانت المؤدبة الإنكليزية حاضرة ، فبهتت وخرست
بظلت لا تدرى أفى حلم هى أم فى يقظة .

وإذ ذاك فتح الباب ودخل جريجورى والد الفتاة فقال « هذا حسن والله .
أراكما قد سويتما المسألة فيما بينكما بارك الله فيكما . لقد رفعتما عنا مؤونة الكلام
فيها » .

وأنا أسأل القارئ أن يرفع عنى مؤنة وصف الإكليل وحفلة الزفاف ، وله
منى جزيل الشاء .

المبارزة

كنت ضابطا فى فرقة من الفرسان كانت معسكرة فى قرية صغيرة ، وكان ينضم إلى زمرتنا رجل يناهز الثلاثين ذو حنكة وتجربة كثير الصمت مطراق عبوس . تلك هيئته على أن له نبأ مجهولا وشأنا خفيا وأن سرا غامضا يحيط بحياته . وكان له سابق خدمة عسكرية لا يعرف أحد لماذا تركها ورضى لنفسه الانزواء فى قرية حقيرة .

وكان همه الوحيد وشغله الشاغل التدريب على الرماية فى غرفته ينصب بها الأهداف ثم لا يزال يرميها بطلقات بندقيته فكانت حيطان حجرته أشبه شئ بالإسفنجة أو الغربال من كثرة الثقوب . وكان قد بلغ فى فن الرماية مبلغا لا يصدق به إلا من شاهده فلو سئلت أن أجعل على رأسى تفاحة ليسدد إليها سهمه لما امتنعت ثقة من أنه إذا رمى لم يصب بخلاف التفاحة وكان جسمى كله من كل خطر بأمّن .

وفى ذات ليلة ونحن على مائدة المقامرة فى غرفة هذا الرجل - واسمه « سلفيو » - وقع شجار بينه وبين أحد ضباط فرقتنا فتناول ذلك الضابط شمعدانا ففقد به على رأس سلفيو فراغ منه هذا الأخير ولولا ذلك للقى رأسه ففقال سلفيو لصاحبه وهو يتحرق غضبا :

« تكرم على يا سيدى بالانسحاب من اللعب »

وأيقنا جميعا أن سلفيو سيدعو خصمه للمبارزة وأن خصمه سيكون فى عداد الأموات غدا .

وانسحب الضابط وهو يقول إنه لن يحجم عن مبارزة سلفيو إذا دعاه لذلك . وأصبحنا ونحن نعتقد أن ذلك الضابط لا بد أن يكون قد لحد فى قبره . ولكنه مالبث أن قدم علينا فأخبرنا أن سلفيو لم يدعه إلى المبارزة فأخذتنا لذلك أيما دهشة . وذهبنا إلى غرفة سلفيو فوجدناه كدأبه وعاداته يعالج الرماية وقد نصب الأهداف وأقبل يقرطسها وينتظمها بسهامه . ومضت ثلاثة أيام والضابط على قيد الحياة . ثم تابعت الأيام ولم تصل الضابط من سلفيو أدنى دعوة للمبارزة

وقد ضرب سلفيو عن ذلك الأمر صفحا وتناسى ذلك الحادث كأنه لم يقع . فسقط فى أعيننا واحترقناه ولكنى كنت أشد الجميع احتقارا له وأصبح ازدرائى له على قدر ما كان من حبى وإجلالى ، ومجافاتى واجتنابى بمقدار ما كان من مواصلتى واقترابى . حتى صرت أستكف من معاشرته وأخجل من النظر إليه . وساءه منى تغيرى وتنكرى وأمضه جفائى وإعراضى وقدر فى أحشائه . تسلم سلفيو ذات يوم من مكتب البريد رسالة وما هو إلا أن فضها وأخذ يتلوها حتى أشرق وجهه وبرقت أسرته .

فدلف إلينا فقال « لقد طرأ على ما أوجب رحيلى بأقرب وقت . ولعلى مسافر الليلة . فوداعا أيها الإخوان » فودعناه جميعا . ولما هم بالانصراف مال إلى فهمس فى أذنى قائلا « إن لى معك حديثا ذا شأن . ولقد نشأ بيننا سوء تفاهم أريد أن أزيله - ولقد كانت ظروف تركت فى وهمك صورة كاذبة تنافى حقيقتى أريد أن أحوها »

ثم قبض على يدى ومرنا معا إلى حجرته .

ولما اطمأن بنا المجلس قال « لعلنا لن نلتقى بعد اليوم ، فأرى قبل رحيلى أن أكشف لك عن سريرة أمر قد غمض عليك وشوه فى نظرك صورة أخلاقى الحقيقية حتى اتهمتنى عند نفسك بالجبن والصغار والذلة وأنا منها براء . لعلك أنكرت منى إمساكى عن مبارزة ذلك الضابط مع يقينك أن حياته كانت فى قبضتى ولم تكن حياتى منه فى خطر جسيم ، فالآن أنبئك بجلية الأمر ، فاعلم أن الذى أحجم بى عن مبارزة ذلك الضابط هو سبق إصرار كان منى منذ ستة أعوام على أن لا أبارز أحدا أبدا حتى أنتقم لنفسى من رجل بدرت إلى منه إهانة عظمتى ثم حالت الظروف دون اختطافى روحه من بين جنبيه . ومنذ ذلك الحادث لم يطمئن لى مهاد ولا قرلى قرار ومن ثم ما تراه يبدو على دائما من هم وإطراق ووجوم واكتئاب ، وقد عاهدت نفسى أن أحافظ على حياتى فلا أعرضها لأذى خطر حتى يتاح لى أن أنتقم من ذلك الجانى . وهذا سبب إحجامى عن مبارزة ذلك الضابط ولولا ذلك لما ترددت لحظة عن مكافحته ولو كان « قلب الأسد » أو « أماديس دى جول » .

منذ ستة أعوام لطمنى إنسان على وجهى ولم أشف منه نفسى على أنه لا يزال
حيا يرزق وما كنت ممن ينام عن الفار »

قلت له « أو لم تبارز هذا المعتدى عليك ؟ » قال « بلى . قد بارزته وسأتيك
للحظة بتذكر هذه المباراة »

ثم عمد إلى صندوق فاستخرج منه قلنسوة حمراء ذات هداب ذهبي فجعلها
على رأسه فإذا بها خرق فوق الجبهة .

قال سلفيو « قد تعلم أنى كنت ضابطا فى فرقة الرماة وكنت مولعا بالشراب
والنساء ، بل كنت زعيم الفرقة بأسرها خلاعة ودعارة وعريضة وزعيمها أيضا
قوة وسطوة وبطشا ، وقد انتصرت فى إحدى مبارزاتى على « برستوف » البطل
المشهور الذى تغنى بذكره الشاعر « دافيروف » فكنت أنزل من القوم منزلة
الركن المستلم والوثن المعبود .

وإذ ذاك ألحق بفرقتنا ضابط جديد من طبقة الأشراف وكان هذا الفنى قد
اجتمعت له صنوف المحاسن وضروب المفاخر - ما شئت من تمام صحة وريعان
شباب ، ونضرة حسن وزهرة جمال ، إلى سرعة خاطر وحدة ذكاء ، ومجد
تليد . وذكر بعيد ، وثراء جم وجاه عريض . فلا بدع أن يكون ظهور هذا الفتى
على المسرح قد زعزع مركزى وهدد سلطاني . وكان لما راعه عظم مكاتى بين
الضابط والجنود شرع يخطب ودى ويتلمس صحتى ، ولكنى قابلت تهافته
بمزيد الإعراض ، وتلقيت إقباله بمنتهى الانقباض ، فتراجع عني وأحجم .
ولما رأيت ارتفاع شأنه وانبساط نفوذه فى الفرقة وعظم حظوته عند النساء ألح
على الكرب وأكل الغيظ أحشائي فجعلت أتجنى عليه الذنوب وأتلمس أسباب
الشجار وأرقب فرصة المشاحنة ، فكلما أنفذت إليه سهما من التنديد أو رميته
بقارصة من الهجو رماني بأسرع منها فأضحك منى القوم وتركني أتململ على
أحر من جمر الغضا . واتفق أخيرا أن جمعنى وإياه مقصف بدار أحد الوجهاء
فرايت الأبصار إليه ممتدة والأعناق مشرّبة وقد أقبلت عليه أجمل غايات المكان
فلأوسعته حفاوة وإيتاسا ، فجاز الحق بى كل مقدار ولم يبق فى قوس الصبر
منزع ، فدلفت إليه وهمست فى أذنه بلفظة جارحة فثار على ثورة الأسد ولطمنى

فأوسعنه حفاوة وإيناسا ، فجاز الحلق بى كل مقدار ولم يبق فى قوس الصبر منزع ، فدلقت إليه وهمست فى أذنه بلفظة جارحة فثار على ثورة الأسد ولطمنى على وجهى ، ثم امتشق كل منا حسامه وحجز بيننا الجماعة بعد أن أغمى على السيدات وتركنا المكان قرب مطلع الفجر إلى ساحة المبارزة وقاس الشهود بينى وبينه اثنتى عشرة خطوة ، واقترعنا على امتياز البدء بالرماية وكانت القرعة من حظى ، فسدد إلى سهمه ورمى فمرقت رصاصته من قلنسوتى هذه التى تراها ولم يصبنى شىء البتة وجاءت نوبتى وأيقنت أن روحه فى يدى فأجلت عينى فى وجهه وسائر شخصه لأنظر هل به قلق أو اضطراب فلم أر إلا رصانة وثباتا ورباطة جأش وكأنه طود راسخ وهضبة شماء . ثم بلغ من قلة إكتراته وعدم مبالاته أن أمسك قلنسوته وجعل يتناول منها فاكهة يأكلها ويلفظ حبها فكدت أتميز من الغيظ وقلت فى نفسى « أى فائدة من قتل هذا الذى لا يرى للحياة قيمة ولا يقيم لها وزنا » ، ثم سنحت لى فكرة فقلت لخصمى :

« الظاهر أنك غير مستعد للموت الآن ، وأراك تتناول طعامك وما كنت عن ذلك بمانعك »

فأجابنى : « إنك لن تمنعنى منه ، فتفضل على بإطلاق سهمك ، وإن تكف فسيقى حقاً لك على ودينا فى عنقى تقاضاه متى شئت وأين شئت »

فأعلمت الشهود أنى لا أريد إطلاق سهمى اليوم ، وعلى هذا إنفض اللقاء . وفى أثر ذلك اعتزلت الخدمة العسكرية وانزويت فى هذه القرية ، ومنذ ذلك الحين ما نعت قط بالحياة ولا استمتعت بالعيش ولا توجه فكرى إلا إلى الأخذ بالتأمر . والآن قد سنحت الفرصة وآن الآوان . وهنا استخرج سلفيو من جيبه الرسالة التى تسلمها من البريد وقدمها لى ، فإذا بها من أحد أصدقائه بموسكو بزفاف « فلان » على آنسة من أجمل غانيات دهرها .

قال سلفيو « لعلك أدركت من هو فلان هذا . سأذهب إليه لأرى هل يستقبل الموت الآن وهو يزف على عروسه الحسناء بمثل ذلك الاستخفاف الذى استقبله به يوم جعل يأكل الفاكهة من قلنسوته ! »

وهنا نهض سلفيو من مكانه وقذف بقلنسوته على الأرض وطلق يحوب أنحاء

بالمسدسات والبنادق والذخيرة وسائر أمتعتها وأدواته وتصافحنا ومضى فى سبيله .

مضت على هذه الحوادث أعوام ، وقضت الضرورة على بالمقام فى الريف حيث اشتغلت بالزراعة .

وكان على بضع مراحل من دارى ضيعة كبيرة للكونتيس لا يقطن بها سوى ناظر الزراعة ولا تزورها الكونتيس إلا نادرا . فلما مضى على مقامى بتلك الأنحاء عام بلغنى أن الكونتيس وزوجها قادمان للمصيف بضيعتهما . وكنت قد مللت الوحدة بذلك المنفى الريفى ، وسئمت العزلة ، وتاقت نفسى إلى حفلات الأنس ومجالس الندمان ، فجعلت أتحرق شوقا إلى رؤية تلك القادمة الحسناء وزوجها لأجتنى من ثمار إيناسهما وسهرها لذة طال بها عهدى .

ولما بلغنى نبأ قدومهما شخصت إلى دارهما ، واستأذنت ، فساقنى أحد الخدم إلى حجرة مكتبة الكونتيس ومضى ليعلن نبأ مقدمى . وكانت الحجرة مزودة بكل آلات النعيم والترف فالجدران محلاة بخزائن الكتب النفيسة الموشاة بالذهب ، تفصلها حلى بديعة من التماثيل والدمى ، وفوق الموقد مرآة عظيمة ذات إطار من العسجد ، مرصع بالياقوت والزبرجد ، والأرض مفروشة بالبسط والزرايى . وبينما أنا من بهاء هذه التحف والنفائس فى دهشة ، إذ فتح الباب ودخل على رجل وضئى الطلعة بهى الصورة يناهز الثانية والثلاثين من عمره . فسمى إلى وعلم بحياه رونق البشر والطلاقة ، وبعد التعارف جلسنا وأخذنا بأطراف الحديث بيننا ، وكان فى غذوبة حديثه وبراءته من الكلفة ما أزال هيئتى . وأزاح وحشتى . وبعد هنيهة دخلت الكونتيس زوجته وكانت آية فى الحسن والبهاء فقدمها إلى الكونت ثم طافا بى فى أنحاء الحجرة يريانى ما أودعت من الطرف والعجائب . فاستوقفنى منظر صورة تمثل مشهدا طبيعيا من مشاهد « سويسرا » وأعجب ما فيها ثقبان بإطارها من أثر طلقات نارية .

فقلت للكونت « تالله لرمية مسددة ! »

فأجاب « أجل ، وهل تحسن الرماية ؟ »

قلت « قليلا ، بيد أنى أسأل الله أن يبلغنى فى هذا الفن درجة رجل كان

يعاشرنا منذ بضعة أعوام لم أر قط ولم أسمع بنده ونظيره »
قال الكونت « وماذا بلغ من مهارة صاحبك هذا ؟ »
قلت « كان والله ربما أبصر الذبابة فيتناول مسدسه فيطلقه فإذا الذبابة قد
انسحقت مكانها .

قال الكونت « هذا والله ما لم يسمع بمثله قط . وماذا كان اسم هذا الرجل ؟ »
قلت « سلفيو يا جناب الكونت »

فصاح الكونت منتفضا « أتعرف سلفيو ؟ »

قلت « أجل يا سيدى ، لقد تعاشرنا عشرة الشقيقين حقبة من الزمن ، على
أنه قد مرت خمسة أعوام على آخر عهدي به . أتعرفه يا جناب الكونت ؟ »

قال « أجل أو لم ينبئك بحادث عجيب وقع له مع بعض زملائه ؟ »

قلت « أتعنى نبأ اللطمة التى تلقاها من رجل خسيس فى بعض المقاصف ؟ »

قال الكونت « ألم يصرح لك باسم هذا الخسيس ؟ »

قلت وقد فطنت فى الحال إلى حقيقة الأمر :

« معذرة سيدى !! يمكن أن تكون أنت الذى عناه صاحبى ؟ »

قال وقد عراه أشد اضطراب « أجل وهذا الثقب الذى تراه بالصورة شاهد
على آخر التقاء لنا » وهنا تضرعت إليه الكونتيس أن لا يجدد ذكر هذا اللقاء
الأليم لما فيه من إثارة لكامن الذكريات المحزنة .

قال الكونت « بل لابد من ذكر ذلك النبأ لضيقتنا كى يعلم كيف كان انتقام

صاحبه » .

ثم تلا على الحديث الآتى :

« منذ خمسة أعوام تزوجت هذه السيدة وقضيت ههنا شهر العسل ، وقضيت
أيضا ساعة من أروهب ساعات الدهر وأخوفها .

فى ذات عشية خرجت وزوجتى للتنزه فى البساتين والرياض على جوادين
كريمين فأجفل جواد زوجتى فذعرت فأرجلتها ، وعدنا إلى دارنا فسبقتهما إليه
إذ كنت راكبا وكانت ماشية . ولما بلغت الدار وجدت بساحتها مركبة وخبرت

أن طارقا ينتظرني بحجرة المكتبة (هذه الحجرة) وإن له معى حديثا خطيرا .
دخلت المكتبة فألفت بها فى اختلاط الظلام رجلا أشعث أغبر واقفا إلى
الموقد ، فدنوت منه وتوسمت وجهه أحاول أن أذكره فقال لى « ألا تذكرنى
ياكونت ؟ » فصحت قائلا « سلفيو ! » وأحسست برعشة ثالجة تتخلل عظامى .
وقال الرجل « أجل أنا سلفيو ، ألا تذكر أن لى عليك ديننا ؟ لقد جئت الآن
أتقاضاه . أتذكر الطلقة التى لى عليك ؟ أمستعد لها الساعة ؟ » فكان مسدسه
بارزا من جيبه . قلت « أجل مستعد ورب العرش » ثم قست بينى وبينه اثنتى
عشرة خطوة وأخذت موقفى بذلك الركن ورجوته أن يسرع بطلقته قبل قدوم
زوجتى . فطلب مصباحا فأحضر وأغلقت الباب وأمرت أن لا يدخل أحد . ثم
رجوته أن يسرع فاستخرج مسدسه وصوبه نحوى . وجعلت أعد الثوانى ... ثم
تذكرت زوجتى ... ومرت على دقيقة أهول من يوم الحشر ولكن سلفيو خفض
يده وقال « يحزننى أن مسدسى هذا محشو بالرصاص والرصاص أقطع السهام
وأشنعها وبودى لو كان حشوه من نوى الثمر فإنه أخف وألين ، أما الرصاص
فما أشنعه ولورميتك به كنت كالقاتل الأثيم سفاك الدماء - هذا ولم أعود قط
تسديد سهمى إلى رجل أعزل ، فأولى لنا أن نبدأ المبارزة من جديد . فدعنا نعيد
القرعة » فأحسست كأن الأرض تميد بى وتترنح . ثم حشونا مسدسينا جميعا
وأعملنا القرعة فوقع لى النوبة الأولى كما وقعت أول مرة .

فقال لى وعلى وجهه ابتسامة لن أنساها ما حييت « ما أسعد حظك ياكونت ! »
فتناولت مسدسى وأطلقت عليه فأخطأته وأصبت تلك الصورة التى لفتت
نظرك »

وأشار بيده إلى الصورة وإن وجهه ليتوهج من ألم تلك الذكرى توهج الجمر
المشتعل ، وزوجته الكونتيس من شدة تأثيرها قد عاد وجهها أبيض من منديلها .
واستأنف الكونت حديثه قال « أطلقت رصاصتى فأخطأته والله على ذلك
مزيد الحمد » .

وانتصب سلفيو كأنه الشيطان بعينه ورفع يده بالمسدس يسدد إلى ، وإذا ذاك
فتح الباب ودخلت زوجتى « ماشا » فصاحت صيحة منكرة وألقت بنفسها على

عنقنى ، فقلت لها ما بالك يا حبيبتى ، ألا ترين أننا نمزح ؟ ما أشد رعبك ! اذهبى
فاشرى كوبة من الماء وعودى لأقدمك إلى صاحبى وزميلي القديم »
فلم تصدق « ماشا » كلامى وازدادت لوعة وكربا .

ثم التفتت إلى سلفيو وقالت « بربك خبرنى أمزاح ما أنتما فيه ؟ »
قال سلفيو الشديد البأس « إن زوجك أبدا يمزح فلقد لطمنى مرة على وجهى
وهو يمزح وخرق قلنسوتى برصاصته وهو يمزح ، ورمانى الآن فأخطأ فى وهو
يمزح فدعنى أمزح الآن كما لا يزال يمزح »
ثم رفع مسدسه ليصوبه إلى ، فألقت زوجتى بنفسها على قدميه ، فصحت
بها قائلا :

« انهضى يا ماشا . أما تستحين ؟ أما تخجلين ؟ »
والتفت إلى سلفيو فقلت له « وأنت يا سيدى أليق بك أن تهزأ وتسخر من
امرأة ضعيفة ؟ خبرنى أمطلق أنت أم ممسك ؟ »
قال سلفيو « بل ممسك فما بى الآن إلى الإطلاق من حاجة بعد ما رأيت
الآن من حيرتك وارتباكك ورهبتك . وحسبى أيضا أنى أرغمتك على أن ترمينى
الآن بسهمك ، وإنى قد تركت فى قلبك من ذكرى ما لئن يزال يخالجه ويخامر .
وسأتركك بعد لضميرك »

ثم تحرك للانصراف ، ولكنه لما صار بباب الحجرة التفت إلى الصورة فأطلق
عليها عفوا من غير تسديد فأنفذ بها الثقب الثانى لصق الأول الذى أحدثته
رصاصتى ، ثم اختفى كأنه شبح من الجن ، وكانت زوجتى قد أغمى عليها من
شدة الرعب ، ولم يجروا الخدم على حجزه ومنعه إذ كان فى هيئته ما ملأهم فرعا
وروعا فأفضى إلى ساحة الدار ، ثم نادى بسائق مركبته فركب وانطلق قبل أن
أستفيق من تلك الغمرة .

الشهرة

كان أحد ركاب الدرجة الأولى بإحدى القاطرات مضطجعاً في مقعده بعد ما ملأ بطنه طعاماً ، وقد رنقت في عينه سنة . وبعد إغفاءة يسيرة فتح عينيه على رجل كان يجلس بإزائه فقال :

« رحم الله والدي ! لقد كان يجب أن تجمش الفتيات قدميه بعد الغداء . وأنا مثله مع هذا الفارق ، وهو أنني أحب أن أجمش لساني وذهني بأقداح الراح بعد الغداء . أحب الكلام الفارغ والبطن المלא . أسمح لي بالتحدث إليك قليلاً ؟ » قال الجليس « بكل ارتياح »

قال المتكلم : « إنني إذا امتلأ بطني كان أتعش الأشياء جديراً أن يبعث من ذهني تياراً متدفقاً من الأفكار ، مثال ذلك إنني سمعت الآن رجلاً يهنيء آخر على ما قد نال من الشهرة ، وما أحسبهما إلا من حثالة الممثلين أو الصحفيين ، ولكن هذا ليس بموضوع بحثي إنما الذي يهمني الآن ويشغل بالي هو ماذا يعنون بلفظة الشهرة ، لقد عرفها الروائي « بونتكين » بقوله :

« الشهرة هي الرقعة الزاهية في الخرقة البالية » ولكني لا أرى هذا التعريف من الدقة بمكان ، ولم أجد بعد للشهرة تعريفاً بيناً منطقياً ولو جئتنى بذلك لأعطيك ما تشتهي »

قال الجليس : « ولماذا كل حرصك هذا على إصابة ذلك التعريف ؟ »

قال المتكلم : « لأننا لو عرفنا ما هي الشهرة لجاز أن نعرف أيضاً سبيل بلوغها ، ولتعلم بعد يا سيدي إنني قبل أن أبلغ هذه السن وأفهم الحياة الدنيا على حقها أولعت بالشهرة حتى جئت بها جنونا وبذلت في سبيلها أقصى الجهود ، وكم درست من أجلها وقرأت وحفظت ، وكم سهرت الليل الطويل وسلوت الراحة والشراب والطعام . وإنني لموقن بلا محاباة لنفسي إنني حائز لكل مزية وموهبة تؤهل الإنسان للشهرة . فأنا قبل كل شيء مهندس بارع حيث قد أتيح

لى أن أنشئ فى روسيا ثلاثين قنطرة من أفخم القناطر وأن أزود خمس مدائن بمصنع المياه والغاز وأن أؤدى أعمالا هندسية خطيرة فى عدة من عواصم أوربا ، وإن لى تصانيف شتى فى العلوم الرياضية وإنى فى طليعة من يشتغلون بفن الكيمياء فى العالم وقد اكتشفت عدة من الأحماض والقلويات والجواهر الكشافة ، ولو شئت ألفت اسمى منقوشا على صفحات كتب الكيمياء بمعاهد الدراسة خارج روسيا. وقد ارتقيت فى مناصب الخدمة إلى درجة مستشار هندسى ، ولا أطيل عليك الكلام بتعدد مواهبى ومناقبى ومآثرى ومفاخرى خشية إملالك وإضجارك. ولكن حسبى القول بأننى قد صنعت أكثر مما صنع بعض ذوى الشهرة ، وها أنذا ، بعد كل ذلك وبعد أن بلغت من الكبر عتيا وأصبحت من حافة القبر قاب قوسين أو أدنى ، وليس لى من الشهرة إلا مثل ما لذلك الكلب الأسود الذى تراه يجرى على الجسر هنالك » .

قال المجلس : « ومن يدريك ، لعلك مشهور وأنت لا تعلم ؟ » .
قال المتكلم : « الدليل عندى حاضر ، أنت فرد من الأمة ، فلنتظر الآن هل تعرفنى ؟ أسمعت فى حياتك بهذا الاسم « كريكونوف » ؟
فرفع المجلس عينيه إلى سقف المكان وفكر برهة ثم ضحك وقال :
« كلا ما سمعت بهذا الاسم قط »

قال المتكلم : « هذا اسمى ، ها أنت ذا رجل كهل متعلم مثقف ثم لم تسمع بى مطلقا . أليس ذلك دليلا قاطعا على صحة قولى ، وعلى أننى حينما أعددت كل عدة وهيات كل وسيلة وبذلت كل مجهود فى تحصيل الشهرة أضللت السبيل وأخطأت المرمى ؟ »

قال المجلس : « وما هى الوسيلة والسبيل إلى الشهرة ؟ »
قال المتكلم : « الشيطان وحده أعلم : يزعمونها القدرة والكفاءة والنبوغ والعبقرية وقد كذبوا ! لقد سبقنى إلى الشهرة وظفر بها دونى أناس لم يبلغوا عشر معشار ما عندى من علم ومعرفة وذكاء ولودعية .

تقدمتنى أناس كان شوطهم وراء خطوى إذ أمشى على مهل أولئك لم يظهروا شيئا ما من القدرة ولا الكفاية ، ولا أفادوا المجتمع مثقال

ذرة مما أفدته ولم يذلوا من السعي إلى الشهرة كثيرا ولا قليلا ، وعلى الرغم من ذلك كله قد اشتهروا وأصبحت أسماءهم تتناقلها الصحف وتتداولها الألسن . وسأضرب لك مثلا إن لم تكن قد سمعت حديثي . ذلك إنى منذ بضعة أعوام أنشأت قنطرة فى بلدة ك ، وكانت هذه البلدة خلوا من أسباب الأنس ودواعى السرور فأدركتني بها وحشة وسامة ، ولولا الخمر والنساء والميسر لذهب عقلى ، وقصارى القول أنى أتخذت لنفسى خليلة من فئة الممثلات تدعى فن الغناء زورا وسفاها ، وعلى الرغم مما كان من فرط إعجاب الناس بها ولهجهم بذكرها وحرصهم على التزلف إليها ، لم تك فى نظرى سوى مخلوقة عادية عاطل من كل فتنه وملاحة . لقد كانت سيئة الخلق ضعيفة العقل شرهة جشعة حمقاء .

كانت تلتهم كميات عظيمة من الطعام والشراب وتنام حتى المساء ، وأحسب أنها لم تك تصنع سوى ذلك . وكانوا يدعونها زورا وبهتانا مثلة ومغنية ، على أنها كانت مجردة من الفن - مجردة من المعرفة - مجردة من الذوق - جاهلة غبية حقيرة ، كان غناؤها يصم الآذان ، ويرعش الأبدان ، ويورث الأحزان .

ولما أتممت بناء القنطرة أقيم احتفال علنى بافتتاحها ، فألقيت الخطب والمقالات ، جعلت أثناء ذلك أنتظر ثمرات كدى وأرصد نجم حظى وأجف القلب راجف الحشا ، وحق لى إذ كانت قنطرتى مما يفخر به ويزهى - لم تكن قنطرة بل كانت أعجوبة ومعجزة ، كانت كأنها صورة خرجت من يد « روفائيل » أو « ليوناردو دافنشى » . أنا لا أزكى نفسى ، إنما أتحدث بنعمة المولى ، ومن ذا الذى لا يعرفه القلق والاضطراب وقد أبصر أهل البلد قاطبة جاءوا أفواجا ليتأملوا عمله وصنعتة ؟ فجعلت أقول فى نفسى « ولى من حرج هذا الموقف ، إن هى إلا لحظة حتى أرى الأبصار كلها نحوى ممتدة والأعناق متطاوله ، فأين أخشبيء ؟ » لقد أرهقت نفسى بلا موجب ، ولو علمت الغيب لأرحت بالى من كل هذا العناء والقلق ، فقد احتشدت الجموع وتكاملت عدتهم وأقبلوا ينظرون إلى كل شىء ، ويتأملون كل شىء ، إلا شيئا واحدا . وذلك هو أنا ، لم يعبأ بى ولم يكثر لى ولم يعلم بمكانى ولم يشعر بوجودى فرد واحد من أولئك الجموع الحاشدة ! لقد وقفوا جميعا ينظرون إلى القنطرة كالأنعام ولم يعن أحدهم بالسؤال عن ربها ومنشئها ! ومنذ ذلك دبت فى نفسى كراهية الجمهور واحتقاره ، عليه

فى كل آونة ولحظة ! ولكن نرجع إلى حديثنا . فى ذلك الآن شوهدت حركة غير عادية فى الجمهور وأعقبها شىء من الهرج وتهامس الناس وأومضت على وجوههم ابتسامة سرور وارتياح وماج بهم المكان واضطرب ، فقلت فى نفسى « أو يمكن أن يكون السبب فى هذا أنهم أبصرونى وعرفوا أنى أنا الذى أنشأت القنطرة ؟ » ولكن هذا الأمل ما نشب أن زال ، إذ تبينت حقيقة الحال فعلمت أن سبب اضطراب الجمهور هو ظهور رفيقتى الممثلة إذ ذاك تتبعها حاشية من أسرى الغرام تشق عباب الجماهير كالباخرة المزينة ، وراءها الزوارق والعوامات والسفهاء المغفلون يشيعونها بألحاظ الصباية والافتتان وألفاظ الإعجاب والإكبار كقولهم « هذه هى الممثلة البارعة ! ، هذه ملكة الطرب والغناء ! أى حسن وبهاء ! ووسامة ورواء ! » وإذ ذاك لمحنى رجل فقال لزميله عرضاً وأوماً نحوى « هذا هو عشيقها » هذا كل ما قاله لا أكثر ولا أقل . فما رأيك فى تلك الحال يا صاحبى ، أترأها نتيجة سارة لكل ما بذلت من مساع وجهود ؟

وبينما أنا أندب خيبة آمالى وسخافة الجمهور وغباوته ، تقدم إلى رجل سمح الخلقة قبيح الطلعة فقال لى : « أتعرف من تلك التى تسير على الضفة المقابلة وقد بهرت الأبصار وخلبت العقول واختلبت الألباب ؟ هذه هى سيدة الممثلات وأميرة المطربات ، ذات القدر الرشيق ، والشكل الأنيق . والوجه الصبيح ، والدل المليح . »

فقاطعت قائلاً : « أتعرف من الذى أنشأ هذه القنطرة ؟ »

قال : « كلا لا أعرف ، لعله أحد أولئك المهندسين »

« قلت أتعرف من أنشأ كنيسة بلدتكم ؟ »

قال « كلا .. »

قلت : أتعرف من هو أعظم أستاذ ، ومن أجل عالم ، ومن أخطب خطيب ، ومن أكتب كاتب ، ومن أشعر شاعر ، ومن أبرع مصور ؟

قال : « كلا »

قلت : « خبرنى - أعزك الله - أتدرى مع من تعيش هذه الممثلة النابغة الطائرة

الصيت ؟ »

قال : « يقولون إنها تعيش مع شخص مهندس اسمه ... لقد نسيت اسمه »
فما قولك في هذه الحال يا صاحبي ؟ ولكن عد بنا إلى ما كنا فيه من الحديث
« في سالف الأزمان كان الذين يتولون نشر الشهرة وإذاعة الصيت والإشادة
بذكر أرباب المآثر والمفاخر هم طائفة الشعراء والموسيقين ، إذ ينظمون القصائد
والأناشيد في تمجيد أهل الصناعات والفنون وذوى المكارم والمساعي فتذهب
في الآفاق ، وتصبح سمر الأندية وزاد الرفاق . أما الآن فقد اندثر أولئك المداحون
وقام مكانهم كتاب الصحف والمجلات . فلتنظر ماذا كان موقف الصحف إزاء
عملى العظيم ؟ فى صبيحة ليلة الاحتفال المذكور تناولت صحيفة « البريد » المحلية
وأخذت أفش فيها عن اسمى . وبعد طول البحث والتنقيب ألفت هذه الكلمة
« احتفل أسس بافتتاح القنطرة الجديدة بحضور صاحب الفخامة محافظ الإقليم
وفئة من كبار الموظفين ، وكان المكان غاصا بالجسم الغفير من أهالى البلدة وكان
الطقس بديعا الخ الخ ... وكان من بين الحضور الممثلة الطائرة الصيت قرّة الأعين
ونزهة النفوس وريحانة الأرواح السيدة فلانة تختال بين الصفوف فى حلة أرجوانية
موشاة نكاد من فرط حسنها تأكلها القلوب وتشربها الضمائر الخ الخ .. » أما
أنا فعلى العفاء ، وفى سبيل الشيطان كدى وتعبى ، وإلى جهنم وبئس المصير !
لقد ضنوا على بحرف واحد ، ضنوا على بذكر اسمى ! فما كان ضرهم - أخفق
الله مساعاهم - لو ذكرونى ولو بالذم والنقيصة ! لقد كان ذلك أقر لعينى وأثلج
لصدرى ، ولا أكذبك يا سيدى لقد قذفت بالجريدة فى أقصى الغرفة وتهالكت
على مقعد وأجهشت بالبكاء حتى انفدت ماء شقونى !

وبعد برهة ثبت إلى نفسى أعزبها بقولى : إن هذه الجريدة إن هى إلا ريفية
سخيفة لا يرجى منها خير ، ومن أراد العدالة والإنصاف وقدر الكفاءات حق
قدرها وزنة المآثر بالقسطاس المستقيم ، فعليه أن يعتمد إلى الجرائد السيارة التى
يصدرها قادة الأفكار بموسكو أو بطرسبرج . واتفق فى تلك الآونة إني كنت
قد أرسلت إلى إحدى الشركات الهندسية ببطرسبرج تصميمًا عن عمل عظيم فى
مسابقة اشترك فيها فئة من كبار المهندسين وقد حل موعد إعلان النتيجة .
فاستأذنت من رجال الإدارة ورحلت إلى بطرسبرج ، وخشية الملل من طول

السفر أجرت « صالونا » خاصا واستصحبته رفيقتى الممثلة ثم رحلنا . وأخيرا وصلنا بطرسبرج يوم إعلان النتيجة ، ولحسن الحظ أحرزت الجائزة الأولى . وفى اليوم التالى اشتريت جميع الجرائد وأسرعت بها إلى غرفتى وألقيت بنفسى على مقعد وأخذت أهدى روى وأسكن من قلقتى واضطرابى ، ثم تهافت على تلك الجرائد أرتع بصرى فى صفحاتها . قرأت أول واحدة - لا شىء ! الثانية - لا شىء ! الثالثة - لا شىء ، وامصيتهاه ! وأخيرا عثرت فى الرابعة على هذا الخبر : « وصل العاصمة على قطار الإكسبريس مساء أمس الممثلة المشهورة « فلانة » ونذكر بمزيد السرور أن هواء الأقاليم الجنوبية كان له أحسن الأثر فى صحتها ... » ثم كلام كثير مسهب فى نعت محاسن أوصافها ومزاياها الغنائية والمسرحية إلى قرب نهاية الصفحة . يا للعجب ! ولا كلمة واحدة عنى ! فى أقصى ذيل الصفحة أبصرت الكلمة الآتية بالبنط الدقيق لا تكاد تستبين إلا بالمنظار المعظم « أعطيت جائزة الدرجة الأولى لشخص من المهندسين يدعى فلان » وسلامتك وتعيش ! هذا كل ما تفضلت به على جرائد العاصمة . وليزيدوا الطين بلة غلطوا فى هجاء اسمى ، وأسوأ من ذلك إن هذه الصحف ظلت طول مدة إقامتى ببطرسبرج تتبارى وتتنافس فى وصف الممثلة البارعة النابغة ذات الآيات الروائع والملح البدائع الخ الخ .

وبعد بضعة أعوام من ذلك استدعانى محافظ موسكو لإنشاء عمل هندسى كانت الجرائد تنادى منذ مائة عام بوجوب إنشائه ، فليبت الدعوة ومضيت فى العمل ، وفى أثناء ذلك ألقىت عشر محاضرات بدار الآثار فى أغراض شتى أخلاقية واجتماعية واقتصادية ، كل ذلك والجرائد عنى فى غفلة وسكوت . ولا حرج عليها ولا جناح إذ كانت مشغولة بأخبار المنازل المحترقة ومثلى الأوبرا وتنقلات الموظفين وإعلانات المناقصات وبكل شىء فى الوجود إلا منشأتى ومحاضراتى ورسوماتى وتصميماتى .

وركبت مرة قطارا كان حافلا بالركاب من كل صنف وطبقة .

فقلت للجالس إلى جانبى بصوت عال ، أريد أن أسمع كل الحاضرين :

« بلغنى أن المجلس البلدى استدعى مهندسا ليتولى إنشاء كذا وكذا من

الأعمال ، أتعرف اسم ذلك المهندس ؟ »

فهز الرجل رأسه ونظر الباقون إلى شزرا كالمستهزئين ، ثم حولوا أبصارهم .
فاسترسلت قائلاً : « وبلغنى أن أحد العلماء يلقى محاضرات فى دار الآثار
وإنها لشائقة ممتعة » .

فلم يلتفت إلى أحد ، لقد كانوا عنى فى صمم ! ولعل بعضهم كان لم يسمع
قط بدار الآثار .

كل هذا كان لا يهمنى لولا ما حدث فى تلك اللحظة ، ذلك أنى أبصرت
جميع الحضور قد وثبوا من مقاعدهم وهرعوا إلى نوافذ القطار يتزاحمون ويتدافعون .
ماذا حدث ؟ ماذا جرى !

وهنا صاح بى جارى قائلاً : « انظر ! لا تفوتك الفرصة ، أترى هذا الرجل
الأسمر الذى يهم بركوب تلك المركبة ؟ هذا هو الرقاص الطائر الصيت « كنج »
وطفق الجميع يبدئون ويعيدون فى وصف ذلك العبقري العظيم الذى كان قد
استحوذ على عقول أهل موسكو قاطبة . »

ولما فرغ المتكلم من محاضرتة المسهية قال له الجليس :

« اسمح لى أنا أيضا أن أسألك سؤالا : أتعرف اسم « بوشكوف » فأجاب
الآخر : « بوشكوف ! دعنى أتذكر ! بوشكوف ! من بوشكوف هذا ؟ لم أسمع
بهذا الاسم قط ! »

قال الجليس وقد أصابه من الخجل والارتباك ما أصابه « هذا اسمى ، إنه من
أعجب العجب أن لا تعرفه ! ألا تعلم أنى أستاذ بإحدى جمعيات روسيات وذلك
منذ أربعين عاما ، وإنى عضو فى المعهد العلمى وإن لى مؤلفات شتى ؟ »
فنظر كل من الرجلين فى وجه صاحبه وقهقه ضاحكا .

الأحزان

كان الخراط « جريجورى بتروف » يحمل زوجته الكهلة المريضة فى مركبة يسوقها بنفسه إلى المستشفى ، وكان عليه أن يقطع عشرين ميلا فى طريق وعرة مخوف ، وكانت تهب عليه ريح صرصر عاتية تضرب وجهه بأطراف سياطها الحادة ، وسعائب الثلج تملأ فضاء الجو تعلو فيه وتهبط ، فليس يدرى أتسقط من السماء أم تصعد من الترى ، والسبل والحقول والغابة يحجبها ضباب الثلج فلا تبصر . وكان حصان المركبة لشدة ضعفه وهزاله يزحف زحفا لا يكاد ينبعث ويكاد ينوء بحمله .

كان ذلك الخراط مع مهارته فى فنه أغبى الناس ذهننا وأبلدهم حسا وأجملدهم شعورا .

وقد جعل وهو يسوق المركبة يهمهم بمثل هذه الكلمات يخاطب زوجته المريضة من وراء ظهره :

« لا بأس عليك ! اصبرى قليلا ! فعما قريب نصل إلى المستشفى ، وهنالك يتولاك الطبيب « بافيل إيفانيتش » بحسن علاجه وعنايته ، يسقيك جرعة أو يفصلك أو يدلك جنبيك بدواء من لدنه يستل الداء من جوانحك .

أنا أعلم أنه سيصيح بى ويسبنى ويلعنى ، ولكنه سيبدل جهده لشفائك ، وإنه لكريم الطبع مسامح ! قد أعلم أنه متى أبصرنى أقبل يزجرنى وينبذنى بالألقاب ويصرخ قائلا :

لماذا جئت متأخرا ؟ ولم لم تحضر فى الساعة المناسبة ؟ أترانى لا شغل لى إلا إنتظاركم وخدمتكم آناء الليل وأطراف النهار ، أو لست آدميا من دم ولحم أحتاج إلى الدعة والراحة ؟ اذهب من أمامى ! ابتعد ! لا أبعد الله غيرك ! »

فأقول له : « أيها الطبيب المعظم ! جزاك الله خيرا وزادك رفعة وشرفا . شئ ! تحرك أيها الحصان المتبلد المكسال ! لا لعا لك ولا أقال الله عثرتك !

تحرك !

أيها الدكتور البر الرحيم أصلحك الله وأعزك وأولاك المزيد من فضله ورضوانه !
تالله ما قصرت ولا توانيت ولقد والله ابتدأت المسير منذ مطلع الفجر ، وإنما
عاقبتى الأنواء والعواصف وذلك الحصان الواهن النضو الحسير »

فيقول الطبيب : « لا تكذب على الله ! إني أعرف بك منك ، واعتقادي
أنك ما تركت حانة في سبيلك ولا خمارة إلا عرجت عليها فتناولت منها قدحا »
فأقول له : « رمانى الله بثالثة الأثافي إن كنت فعلت ذلك ! أتراني زنديقا كافرا !
أكنت معرجا على حوانيت النيذ وامرأتى العجوز تعاني من برحاء الداء ما
تعاني ؟ »

وعندئذ يأمر الدكتور « بافيل إيفانيتش » بحملك (يخاطب امرأته) إلى
المستشفى ، وأقول له : « جزيته خيرا أيها الطبيب ، لك منى عهد الله وميثاقه
متى شفيت زوجتي هذه (ماتريونا) لأصنعن لك من التحف والطرف ما تقترح ،
علبة سجائر من أطيب البلوط إن شئت ، وإن شئت فعلبة نشوق من أكرم
الصنوبر ، وإلا فسبحة من الكهرمان أو قبقاب بالصدف ، ثم لا آخذ منك درهما
واحدا »

عندئذ يضحك الطبيب ويقول : « أما الفن فلا أنكر مهارتك فيه ومقدرتك ،
ولكنك مدمن الكأس مستهتر بالشراب وتلك آفتك ومنقصتك »

« وبعد ذاك يتولاك بحذق علاجه فلا يزال بك حتى يستخرج الداء من
بدنك ، والفضل في ذلك يرجع إلى قوة تأثيري في عواطفه بخلاصة لساني ،
وسحر بياني ، وقد ترين يا (ماتريونا) حسن مقدرتي على سياسة أهل الطبقات
العليا وتصريف أعتهم فيما أريد وأشتهى ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ،
ولكني أسأل الله ألا يضلنا سواء السبيل ، ما أشد عصف الأنواء . لقد كاد الثلج
يعميني ! »

وكذلك استمر ذلك الرجل يتكلم بلا انقطاع ، مرغما على ذلك مدفوعا إليه
بعامل خفي هو إرادة التخلص مما كان يثقله من أعباء الأحران الفادحة ، لقد كان
الكلام يتابع على لسانه ثرا غزيرا ، ولكن ما كان يتابع على ذهنه من الهواجس

كان أثر وأغزر . لقد دهمه الحزن وباغته غير مترقب ولا متوقع ! لقد بهره الأسى وغلبه على أمره وحصره حتى لا مناص منه ولا مهرب ! وقد كان من قبل ذلك قضى أيام حياته فى سكينه تامة ، وكأنما كان يعيش من سكراته الدائمة فى شبه ضيابة كانت تحجب عنه تقلبات الدهر وتصاريفه . تحجب عنه عوامل السرور والحزن على السواء . وقد أيقظته من رقدته الطويلة ونبهته من غمرته الدائمة بأدرة محنة أوقدت على قلبه حرقه وهاجت غليلا ، لقد انتبه السكير المدمن السادر فى عمايته ، فألقى نفسه فى مأزق ضنك كله هموم وأكدار تدفعه إلى الجهد والنشاط والعمل الدائب والحركة السريعة ومكافحة صدمات الدهر ونكبات الحياة مما لا حول له به ولا طاقة .

لقد تذكر الرجل المسكين أن فاتحة ذلك البلاء كانت مساء أمس ، وذلك أنه لما دخل داره فى تلك الآونة نشوان كدأبه وديدنه وشرع يسب زوجته ويهددها بالضرب بلا باعث سوى ما جرت به العادة الراسخة المتأصلة ، وجد تلك المرأة النعسة تنظر إليه نظرة ما عهدتها منها قبل ذلك . لقد كانت نظراتها الاعتيادية كنظرات الضحايا أو الشهداء خاشعة ذليلة كنظرة الكلب المبلى بكثرة الضرب وقلة الغذاء . أما فى تلك الآونة فقد كانت تنظر إليه نظرة قاسية جامدة كنظرة القديسين فى تصاوير الكنائس أو كنظرة الذين يجودون بأرواحهم على سرير الموت ، هذه النظرة الغريبة المنكرة الكريهة كانت مصدر شقائه ومنها انبعث همومه وتسلسلت أشجانه .

وكذلك لما نزلت عليه تلك الكارثة كالصاعقة ، فأذهلته وذهبت بلبه ، مضى يتخبط فى خباله إلى بعض جيرانه فافترض منه حصانه ومركبته ، وهو الآن يحمل زوجته إلى المستشفى يتغنى شفائها على يد الطبيب « بافيل إيفانيتش » .

قال الرجل المسكين يخاطب زوجته : « اسمعى يا ماتريونا » إذا سألك الطبيب « بافيل إيفانيتش » هل أسىء إليك بالسب والضرب ، فقولى له كلا وأقسم لك لن أضربك أبته ! وهل تعتقدين ياماتريونا « أنى ضربتك مرة عن عمد وإصرار أو عن حقد وضغينة أو عن بغض وكراهية ؟ كلا ما ضربتك قط إلا عن غير عمد وبلا نية ولا تفكير ، ولقد والله ساءنى وشجانى ما ألم بك ، فها أنذا موجه

القلب مفتت الكبد . وكم من رجل غيى تصاب امرأته فلا يأسى ولا يحزن . بل لا يحفل ولا يبالى ، ولكنى كما ترين أهتم من أجلك . وها أنذا أحملك إلى الطبيب لا أدخر فى سبيل إسعافك وسعا ولا مجهودا ، ثم انظرى إلى العواصف والأنواء والثلج والجليد ، ما أشد عصف الرياح ! فليفعل الله ما يشاء لا مرد لقضائه ، اللهم هبنا رحمة من لدنك وهبى لنا من أمرنا رشدا ، ما بالك لا تتكلمين ياماتريونا » أتحسين ألما فى جنبك ؟ خبرينى كيف حالك وماذا تشكين ؟ »

ولكنها لم تجب ولم تنطق ، وأدهشه أن ما لصق بوجهها من الثلج كان لا يزال متجمدا لا يذوب ، وأن الوجه ذاته كان يبدو مستطيلا مسحوبا شاحبا متقبعا وقد اكتسى معنى مهييا من الجد والوقار .

قال الرجل : « تالله إنك لبلهاء ! أقسم لك أنى لن أعود البتة إلى سبك وضربك فلا تصدقين ، تالله إنك لبلهاء ، وأولى لى ألا أحملك إلى الطبيب » بافيل إيفانيتش . »

أرخصى الرجل للحصان عنانه واستغرق فى غمار هواجسه ، وكلما هم أن يلتفت إلى امرأته منعه نوع غريب من الخوف كان يخامر فؤاده ، وكلما هم أن يوجه إليها سؤالا خاف ألا تحببه ، وأخيرا ليزيل الشك باليقين لمس يد المرأة ورفعها دون أن يلتفت إليها فما لبثت تلك اليد أن سقطت كأنها كتلة من الخشب .

عند ذلك قال الرجل : « لقد ماتت ، ماذا أصنع فى هذه الورطة ؟ »

ثم طفق يبكى ويتحب ، ولعل أكبر همه وغمه كان من الحيرة والارتباك لا من الحزن ، لقد جعل يفكر فى سرعة زوال كل شىء فى هذا الكون ! وأن مصابه ما كاد يتددى حتى عجلت الفاجعة الخاتمة ! وبدأ يشعر أنه لم يمهل من الوقت متسعا يعيش فيه مع زوجته فيظهر لها مزيد أسفه وحزنه عليها قبل موتها ، لقد عاش معها أربعين عاما ، ولكن هذه الأربعين مرت كأنما فى ضباب كثيفة ! لقد مضى ذلك العهد ولم يذق فيه طعم الحياة لما نغصه من السكر والمشاحنات والفاقة ، ومما ضاعف البلية أن امرأته ماتت فى اللحظة التى بدأ فيها يشعر أنه أسف على ما كان من اساءته إليها ، عاجز عن قضاء الحياة بدونها ، عازم على

استرضائها واستعطافها .

وجعل يتذكر ويقول : « لا حول ولا قوة إلا بالله ! لقد كانت تطوف بالقرية وتجوب أقطارها تشخذ لنا الخبز ! يا للبلية واللمصيبة ، لقد كان ينبغي أن نعيش عشر سنين أخرى ، يا لها من حمقاء بلهاء ! ولكن أين أنا ؟ وأيان أذهب ؟ لا موجب للذهاب الآن إلى المستشفى ، فما بنا الآن من حاجة إلى طبيب بل إلى دافن فلنرجع » .

وكذلك ابتداء « جريجورى » العودة يزرع الحصان ويستحثه بكل ما أوتي من قوة ، ولجت العاصفة فى غلوائها وتكاثف ضباب الثلج ، فحفى عليه كل شئ حتى رأس حصانه ومضى يتخبط فى طريقه .

واستمر يناجى نفسه : « ليتنى أبدأ الحياة من جديد ! »

وهنا تذكر أنه منذ أربعين عاما كانت زوجته « ماتريونا » غادة حسناء مرحلة لعوبا ، من أسرة ميسورة وقد زوجها منه لما بلغهم من مهارته فى فنه ، فكانت أسباب السعادة عنده إذ ذاك مكتملة ووسائل الرغد والرخاء موفورة ، ولكنه ابتلى بالخمير فكانت آفة عيشه وسم حياته ، ومنذ سكر فى ليلة العرس وانطرح على صفة الموقد صريع الكأس لا يصحو ولا يفيق ، فقد ظل إلى هذه اللحظة غير مفيق ولا صاح ! لقد كانت حياته منذ ذاك سكرة أبدية ! أنه ليذكر عرسه وليلة زفافه ، فأما ما كان وجرى بعد ذلك فلا يستطيع أن يذكر منه شيئا .. سوى أنه يسكر وينطرح على صفة الموقد ويتشاجر ، وعلى هذه الوتيرة ضاعت أربعون حجة ، فى سبيل الله تلك الحياة المبددة وذلك العمر الضائع !

بدأت سحائب الثلج البيضاء تستحيل غبراء رمادية ، إذ بدأ الفجر يلوح فى جانب الأفق .

قال الخراط وتذكر فجأة ما هو فيه وبعرضه : « أين أنا وأيان أذهب ؟ إنما ينبغي أن أفكر فى الدفنة ، وأرأنى بعد ذهابها على طريق المستشفى ، يخيل إلى أنى جنت ! »

ثم لوى حصانه وصب عليه سوطه فأركضه ملء فروجه ، وجعل يقربه السوط من آن لآخر ، وأنه أثناء ذلك ليسمع من خلفه دقائق متوالية فعلم دون

أن يلتفت وراءه أن ذلك صوت اصطدام رأس الميتة بظهر المركبة ، وأخذ لون الثلج يزداد غبرة والريح تزداد حدة وخصرا .

وناجى الرجل نفسه « ليتنى أبدأ الحياة من جديد ، ولو عاد لى الشباب لدخلت الكنيسة وكنت قسيسا ، ومهما رزقنى الله من مال أعطه زوجتى »
وهنا سقط عنان الحصان من يده ، فحاول أن يتناوله فلم يستطع ، ماذا أصابه ؟ لقد شلت يده !

فقال فى نفسه : « لا بأس من ذلك ، فالحصان يعرف الطريق وسيهتدى إليه من تلقاء نفسه ، وأرانى بعد فى أشد حاجة إلى النوم ، فلأغفئ قليلا ، وأرى من الحكمة أن أنال قسطا من الراحة قبل أن يحين وقت الجنازة » .

وعلى أثر ذلك أغمض عينيه ونام ، وبعد برهة أحس بالحصان يقف فى مسيره ، ففتح عينيه فأبصر أمامه شيئا أسود كأنه كوخ أو كوم من الحطب .

وقد كان بوده أن ينزل عن المركبة ليتبين ما أمامه ، ولكنه كان قد أصابه من شدة الوهن والخور ما أثر معه أن يتجمد على أن يبرح مكانه . فاستسلم للنوم وسرعان ما استغرق فى أعماقه . ولما انتبه وجد نفسه فى حجرة فسيحة ملونة الجدران يتدفق نور النهار من نوافذها ، هذه إحدى غرف المستشفى ، وأبصر من حوله أناسا كثيرين مقبلين عليه بوجوههم ، فأراد أن يظهر أمامهم بمظهر الرجل الفهم العارف بواجباته . فقال : « نريد قبل كل شيء أن نقيم شعائر الجنازة لزوجتى المرحومة يا إخوانى ! ولا بد من استدعاء القسيس » .

فصاح به الطبيب بافيل إيفانيتش : « هون عليك ولا تحمل نفسك الهم من أجل ذلك ، فلقد شيعت جنازتها ودفنت ، ارقد مكانك ! »

فلما بصر الخراط بالطبيب صرخ قائلا : « سيدى ومولاى بافيل إيفانيتش أعطني يدك أقبليها »

وأراد أن يطفر من مكانه فيجتو بين يدى الطبيب تجلة وشكرا ، ولكنه ألقى يديه ورجليه لا تطاوعه إلى الحركة فقال :

« سيدى الطبيب ، أين ذراعى وقدمائى ؟ »

قال الطبيب : « فى سبيل الله ذراعاك وقدماك وسائرک ، ودعها الوداع

الأخير ، فلقد تجمدت . مالى أراك تبكى ؟ لقد عشت عيشتك وجريت شأوك ،
فاحمد الله على ذلك ! وإن فى الستين التى قضيتها لكفاية » .

قال الخراط : « واحر قلباه إني أذوب كمدا . ليت أجلى يمتد بضع سنين
أخرى ! »

قال الطبيب : « ولماذا ؟ »

قال جريجورى : « لأقضى للواجب حقوقا قبلى ، فأدر الحصان والمركبة
لصاحبهما وأدفن زوجتى وأسفح على قبرها دمة ، واحزنه ! ما أسرع زوال
كل شئ فى هذه الدنيا ! جزيت خيرا يا بافيل إيفانيتش ، أثنى عليك الإله بما
يكل عنه لسانى ، ويضيق به جنانى ! لأصنعن لك علبة سجاثر من أحسن البلوط ،
وعلبة نشوق من أجود الصنوبر ، وسبعة من الكهرمان ، وبقابا بالصدف »
فهز الطبيب رأسه هزة اليأس وخرج وقد ترك الخراط يلفظ آخر أنفاسه .

المغامرة

قال نارموف لضيوفه وهم على الخوان بعد انقضاء اللعب ، وأشار إلى شاب مهندس من ضباط الجيش :

« ما رأيكم فى هرمان هذا الذى ما قامر قط ولا راهن ولا مس ورق اللعب بأصابه ؟ »

فأجاب أحدهم واسمه تومسكى : « إن هرمان رجل ألمانى دأبه الاقتصاد ، ولكن إذا كان فى الدنيا مخلوق لا أفهم كنهه وباطن أمره فذلك هو جدتى الكونتيس حنة فيدور فينا »

قال الضيوف فى نفس واحد : « وكيف ذلك ؟ »

قال تومسكى : « منذ ستين عاما شخصت جدتى هذه وزوجها إلى باريز حيث أحدثت بفتنة جمالها الرائع ضجة أى ضجة ، وكانت إذ ذاك أجمل نساء العالم طرا وفى الثلاثين من عمرها ، وكان ضمن عشاقها إذ ذاك الوزير الخطير الكاردينال ريشليو الذى جن بها جنونا وأوشك من فرط قسوتها وجفونها أن ينتحر ، وكانت جدتى تشهد موائد اللعب فخسرت مرة للدوق دى أورليان مبلغا هائلا ، ولما عادت إلى منزلها أخبرت جدى بذلك وسألته دفع المبلغ ، وكان يخشاها ويفرق من بأسها وسطونها وينزل منها منزلة أحسن الخدم من أعظم السلاطين والقيصرة ، غير أنه لما سمع بتلك الخسارة الفادحة تجاوز حده معها وخرج من سجيته وطبيعته وأجابه بالرفض البات ، فلطمته على ضماخ أذنه لطمه . كادت تصمه ونامت بمعزل عنه تلك الليلة ، وفى الصباح أعادت عليه الكرة فوجدته على الرفض والإباء مصرا مصمما .

فلما انقطع أملها من ناحيته ، أخذت تقلب وجوه الرأى للخلاص من ذلك المأزق . والحاجة تفتق الحيلة . فتذكرت رجلا نبيلًا كانت عرفته قبل ذلك الحين يدعى سان جرمان ، وكان معروفا بمحبة الذكاء وإتيان العجائب والغرائب ، وكان

البعض يزعمون أنه هو لا غيره مستكشف « إكسير الحياة » و « خاتم الملك » و « طاقية الإخفاء » و « حجر الفيلسوف » الخ ، ومهما يكن من أمر هذه المزاعم فلقد كان رجلا خلاب الحديث فتان المؤانسة وجيها لدى عامة الطبقات والدوائر ، وكانت جدتي تعلم أنه مثر من الأموال ، فأزمنت الالتجاء إليه واستدعته فأسرع إليها ، وحدثته عن قسوة زوجها ووحشيته بأفظع عبارة وطرحت عليه أعباء حاجتها الفادحة ، فأطرق الرجل مليا ثم قال :

« إني قادر على إمدادك بالمال ، ولكنني أعلم أنك لن تستريحي بعد ذلك حتى ترديه إلي ، فكأنني سأخرجك من ورطة إلى ورطة .. ولكنني منبئك عن وسيلة تستردين بها خسارتك من طريق المقامرة »

قالت جدتي : « ولكني يا عزيزي الكونت لا أملك من المال فيلا ، فكيف أستأنف اللعب وأنا على هذه الحال من الإفلاس »

قال سان جرمان : « لا حاجة بك إلى المال ، تفضل على بالإصغاء »
ثم أفضى إليها بسر غريب يتمنى كل واحد منا لو يشتريه بكل ما لديه من ثروة .

فذهل السامعون لهول هذا النبأ ودهشوا ، وأشعل تومسكى سيجارا وشرع يدخن ثم استأنف الحديث فقال :

« فى مساء ذلك اليوم ذهبت جدتي إلى قصر فرساي للمقامرة ، وافتتح الدوق دى أورليان اللعب فاعتذرت جدتي عن سداد دينها له ألطف اعتذار ، ثم شرعت تلعب ضده فاخترت ثلاث ورقات ولعبتها واحدة تلو أخرى فربحت الثلاث جميعا ، وبذلك استردت جدتي ما كانت خسرتة فى الليلة السابقة مشفوعا بأرباح جمة »

قال أحد الضيوف :

« عجبنا ! أيكون لك جدة كهذه ثم يعيبك أن تستخرج منها هذا السر الهائل ؟ »

« هذا من المحال ! لقد كان لجدتي ثلاثة بنين ما منهم إلا مقامر مغامر ، ومع ذلك أبت أن تبوح لأيهم بذلك السر على ما فيه من فائدة ، ولكن عمى الكونت

إيفان أليتش حدثني الحديث الآتي ، وهو أن المرحوم تشابلتسكى الذى مات فقيرا بعد تهديده الملايين على مائدة القمار خسر مرة ثلاثمائة ألف روبيل فكاد يجن حزنا وغما ، فرث له عمته فأعطته ثلاث ورقات وأمرته أن يلعبها على التوالى ، وأخذت عليه عهد الله وميثاقه ألا ييوح بالسر وألا يعاود اللعب بعد ذلك ما عاش ، فمضى تشابلتسكى إلى خصمه ولعبه فأخطر على الورقة الأولى خمسين ألف روبيل فربحت ، ثم ضاعف المبلغ على الورقة الثانية فربحت ، وضاعفه على الثالثة فربحت .. وبذلك استرد فوق ما كان قد خسر ..

ولكن قد آن لنا أن ننصرف آذن الفجر أن يلوح والديك أن يصيح «

فشرب الجماعة سؤر أقداهم وتوادعوا وافترقوا .

كانت الكونتيس العجوز عمة تومسكى جالسة فى التواليت أمام مرآتها ومن حولها ثلاث وصائف يخدمنها ، وكانت الكونتيس قد فقدت كل أثر جمالها الغابر ، ولكنها لم تفقد عادات شبابها المندثر من التجميل والتبرج .

وكانت تجلس قرب النافذة وصيفة لها فتية حسناء تشتغل على منسج التطريز . هذه الفتاة - واسمها ليزافيتا - كانت تصوب نظرها نحو النافذة من حين إلى حين ، ثم ألقت نسيجها وأطلت من النافذة ، ولم تك إلا هنيهة حتى ارتفع لها فى أقصى الطريق شيخ فتى فى زى الضباط المهندسين ، فاحمر وجهها خجلا وتناولت نسيجها واستأنفت عملها على المنسج ، وفى هذه اللحظة عادت الكونتيس العجوز مستكملة اللباس والزينة وقالت :

« ليزافيتا » مرى الخدم بإعداد المركبة ، سنخرج للنزهة »

فقامت الفتاة عن منسجها مضطربة وأطلت من النافذة كمن به ذهول ، ووقفت شاخصة البصر حائرة .

قالت الكونتيس مغضبة :

« ليزافيتا ! ما خطبك يا بنيتى ! أبك صمم أم ذهول أم ماذا ؟ مرى الخدم بتجهيز المركبة فى الحال »

فانطلقت الفتاة مسرعة ، وفى تلك اللحظة دخل أحد الخدم فقدم للكونتيس بضعة كتب هدية من البرنس بول الكسندروفتش .

قالت الكونتيس للخادم : « بلغ البرنس منى أجزل الشتاء . ليزافيتا ! ليزافيتا !
إلى أين تسرعين ؟ »

« إنى ذاهبة لألبس ثيابى للنزهة كما أمرت »
« لا تفعل ! بل اجلسى بين يدى الآن وافتحى هذا المجلد واقرائى لى منه
شيئا »

فتناولت الفتاة الكتاب وقرأت بضعة سطور .

قالت الكونتيس : « ارفعى صوتك يا فتاة ، ماذا أصابك ، هل فقدت صوتك ؟
اقتربى منى ، حسبك حسبك ! »

قرأت الفتاة سطرين آخرين ، وبدأت المعجوز تتأهب ، ثم قالت :
« ارمى الكتاب من يدك ، كلام غث سخي من سقط المتاع ، لغو وهذر
وهذيان ، رديه إلى البرنس مع الشكر ، ولكن أين المركبة ؟ »
قالت الآنسة وأطلت من النافذة :

« المركبة على أتم استعداد »

قالت الكونتيس : « كيف تأخرت عن ارتداء ملابسك حتى الآن ؟ هذا
دأبك معى ، لا تزالين تجشمينى مشقة انتظارك ! ويل لك ياليزافيتا ! هذا ما
ليس يطاق ياغادة »

فأسرعت الفتاة إلى غرفتها ، وماكادت تذهب حتى شرعت الكونتيس تفرع
الجرس بأقصى ما لديها من قوة .

فهجم ثلاث وصيفات من باب وهجم ثلاثة خدام من الباب الآخر .
وصاحت الكونتيس :

« لقد أصبحت فى قصرى لا أطاع ولا يسمع لى قول ولا يؤبه لى ولا يحفل
بى ! أين ليزافيتا ؟ خبروها أنى فى انتظارها وأنه قد عيل صبرى »
وهنا عادت ليزافيتا فى برنسها وقبعتها .

قالت الكونتيس :

« لقد طالت غيبتك ياليزافيتا ، ولكن لماذا كل هذا التجمل والتزين ؟ ومن يا

ترى تنوين اقتناصه بمجائل زخرفك وزينتك ؟ كيف ترين حالة الجو باليزافيتا ؟
إنه ليوم عاصف ! »

قالت ليزافيتا وسائر الوصيفات والخدم :

« كلا يا سيدتى إنه ليوم صحو ساكن الريح سجعج »

قالت الكونتيس : « كلا إنه ليوم عبوس قمطير ، أوقد فقدتم حواسكم ؟
ألا تحسون الريح والبرد القارس ؟ ، اعروا الخيل من العدة ، لا موجب للخروج
اليوم ، ولم تكونى بحاجة إلى كل هذا التزين والتبرج باليزافيتا »
قالت ليزافيتا فى نفسها : « ما هذا العذاب الأليم المبرح ؟ ويلي من هذه
العيشة ثم ويلي ! »

فى ذات صباح قبل وقوع هذه الحوادث بأسبوع كانت الآنسة ليزافيتا جالسة
إلى النافذة تطرز على منسجها ، فحانت منها التفاتة إلى الطريق فوق بصرها على
فتى من فرقة الضباط المهندسين ، وكان واقفا لا يبدى حراكا يدمن النظر إلى
نافذتها ، فنكست رأسها وأقبلت على عملها .

وبعد خمس دقائق أطلت ثانيا من النافذة ، فإذا الفتى الضابط لم يرح مكانه
وهو لا يزال موكلا طرفه بالنافذة ، ولما لم يكن من شأنها مغازلة الضباط الناظرين
إلى نافذتها أقبلت على عملها بهجد ونشاط ، واستمرت كذلك ساعتين كاملتين
دون أن ترفع رأسها ، ثم دق جرس الغداء ، فنهضت وطوت نسيجها ، ثم
حانت منها التفاتة إلى الطريق فإذا الضابط لم يغادر موقفه فاشتد عجبها من ذلك ،
وبعد الغداء عادت إلى النافذة وبها شيء من القلق والاضطراب ونظرت ولكنها
لم تجد للضابط أثرا ، فصرقت من ذهنها شبحه وتناسته .

وبينما هى تهتم بالركوب مع الكونتيس بعد ذلك بيومين ، أبصرت ذلك
الضابط خلف باب المركبة متلثما تتوقد عيناه السوداوان من دون لثامه ، فأوجست
منه خيفة لغير علة واضحة وأخذت مجلسها من المركبة والرعب يرجف أوصالها .
ولما عادت إلى المنزل أسرعرت إلى النافذة فإذا الضابط بموقفه المعتاد يديم إليها
النظر ، فارتدت منقبضة وتملكها نوع غريب من الشعور لم تفقه له معنى .

ومن ثم فصاعدا لم يمض يوم إلا ظهر ذلك الضابط تحت النافذة فى الساعة المهدودة ، فنشأ بين الفتاة وبينه نوع من التعارف الصامت والصحبة الخرساء ، فكانت أثناء عملها على المنسج تحس ريحه وتشعر بروحه ، ثم ترفع رأسها فتتظر إليه ، وجعلت نظراتها تزداد طولا على مر الأيام ، وكأن الفتى قد فطن لذلك واستأنس به وارتاح إليه ، وكأن عينه كانت تتم عن فرط شكره لها تلك النعمة الجزيلة ، وكانت الفتاة تبصر احمرار وجهه كلما تلاقت أحلاظهما ، وبعد مضى أسبوع بدأت تبتسم إليه .

لعل القارئ أدرك أن هذا الفتى هو هرمان الذى ورد ذكره فى أول هذه القصة ، وعرف بأنه من فرقة الضباط المهندسين .

كان هرمان هذا ابنا لرجل ألماني استوطن روسيا وتجنس بالجنسية الروسية ، وكان قد ورث عن أبيه ثروة لا بأس بها ، وكان شديد الاقتصاد فى النفقة يجترى بمرتبه ولا يمس ميراثه ، وكان جم الحشمة والوقار بعيد المطامع والمطامح ، حاد الشهوات ، له من قوة عزمته وخزمه أشد رادع وقامع لشهواته ، فكان مع فرط ميله للمقامرة لم يمس ورق اللعب قط .

وكانت قصة الورقات الثلاث أثرت فى نفسه أشد تأثير وأشعلت خياله ، فجعل يسهر الليالى الطوال لا يفكر فى غير ذلك ، ثم بحث عن قصر الكونتيس حتى عرف مكانه وأبصر الفتاة ليزافيتا وهى تطرز على منسجها فأزمع أن يصل إليها مهما كلفه ذلك ، ليتخذها سلما إلى الوصول لسيدتها الكونتيس واستخراج سر الورقات الثلاث منها طوعا أو كرها ، ثم كان من أمر وقوفه إزاء النافذة ومخالسته النظرات للفتاة وتحديد إياها ما قد وصفنا .

قلنا إن الكونتيس بعد أن أمرت بإعداد المركبة أمرت ثانيا بفك الخيل ولكنها ما لبثت أن أمرت بإعدادها ثانيا ، وكذلك لم تكد ليزافيتا تنزع برنسها وقبعتها حتى أمرت بلبسهما ثانيا وخرجت هى وسيدتها للركوب .

وبينما الكونتيس تأخذ مجلسها من المركبة ، أبصرت ليزافيتا الضابط هرمان عند العجلة فقبض على يدها فكاد الرعب يذهب بعقلها ، ثم اختفى الضابط وقد

ترك بين أصابعها رقعة صغيرة فأخفتها فى قفازها ، وبقيت أثناء سير المركبة لا تبصر ولا تسمع ولا تعى ولا تفقه ، وكلما ألقت عليها الكونتيس سؤالاً وما كان أكثر أسئلتها أجابتها إما بالصمت أو بما هو شر من الصمت من جواب سخيف خارج عن الموضوع ، حتى ضجت الكونتيس وانهالت على الفتاة بالشتم والسباب .

ولما عادتا من التزهة أسرع ليزافيتا إلى حجرتها فأخرجت الرقعة من قفازها ، وقرأت فيها أحر آيات الوجد والهام فى عبارة رقيقة سداها الحشمة ولحمتها الأدب والعفاف فطربت لذلك كل الطرب وسرت أيما سرور ، على أن سرورها كان مشوباً بنوع من القلق والاضطراب ، وذلك أنها كانت لأول مرة فى حياتها ترتبط مع شاب غريب بعلائق سرية خصوصية ، وقد كان فى شدة جرأة ذلك الشاب ما أخافها وأرهبها ، وأخذت تعنف نفسها على طيشها وتهورها ولم تدر ماذا تصنع .. أتمتنع عن الجلوس لدى النافذة فتقطع آمال الفتى بهذا الصد والجفاء ؟ أترد إليه رسالته فتؤسسه أم تجيبه عليها جواب رفض وغباء ؟ وبعد طول الحيرة والتردد حررت الرد الآتى :

« لاشك عندى أن غرضك شريف وأنتك لا تريد أن تؤذيني بأدنى شيء يخرج مركزى أو يشوه سمعتى ، غير أنى لا أحب أن يكون بدء تعارفنا بهذه الطريقة التى تسلكها »

ولما ظهر هرمان فى اليوم الثانى تحت النافذة ألقت بالرقعة على ظهر الطريق ، فسرعان ما التقطها وطار بها إلى دكان حلوى ففرض غلافها فألقى داخله رسالته مردودة والجواب عليها ، وكان قد توقع ذلك ، فانقلب إلى داره وذهنه مشغول بما كان يدبره من الدميسة .

وبعد ثلاثة أيام من هذه الحادثة ، قدمت على ليزافيتا صبية بראה العينين صانعة فى بعض دكاكين الملابس ، فقدمت إليها رسالة ففرضتها ليزافيتا بيد مرتجفة وهى تخشى أن تكون من غريم يطالب بدين ، ولكنها مالبت أن عرفت خط هرمان فقالت للصبية :

« لقد أخطأت يا عزيزتى ، هذه الرقعة ليست لى »

فابتسمت الصبية ابتسامة معنوية وقالت :

« بل إنها لك يا سيدتى فاقريها »

فنظرت ليزافيتا فى الرسالة ، فبينت منها أن هرمان يطلب لقاءها . فصاحت وقد أزعجتها وقاحة ذلك الطلب :

« أنا واثقة أن هذه الرسالة ليست لى »

ثم مزقت الورقة شراً ممزق .

قالت الصبية : « إذا كنت واثقة أنها ليست لك فلماذا رزقتها ؟ لقد كان ينبغي أن تردىها إلى صاحبها »

فارتبكت ليزافيتا أمام هذه الملاحظة الدقيقة وقالت :

« أرجوك يا عزيزتى ألا تأتىنى بأية رسائل أخرى ، وخبرى مرسلك أن هذا

عار عليه »

ولكن هرمان لم يكن بالرجل الذى تصدمه مثل هذه الصدمة ، فجعل لا يمر يوم إلا أتها منه رسالة مشحونة بآيات الوله والصبابة وعبارات الاستمالة والاستعطاف ، فكانت تنم عن صرامة عزيمته وصلابة إرادته وطمحاته خياله الجامع الشرود الذى لا ترده شكيمة ولا يثنيه عنان .

فوهنت الفتاة أمام هذا السيل الجارف ، فأذعنت واستكانت ولم تعد تقوى على رد تلك الرسائل ، بل لقد جعلت تستريح إليها وتجدها حلاوة فى سمعها وروحاً وريحاناً على كبدها ، وبدأت تجيبه على رسائله ، وكانت ردودها تزداد على الأيام إطناباً وإسهاباً ورقة وغزلاً ، إلى أن ألقت إليه من نافذتها ذات صباح الرسالة الآتية :

« فى هذه الليلة ستقام حفلة رقص فى دار السفارة وستشهد الكونتيس هذه الحفلة ، وسأظل معها هنالك إلى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، وسيبقى المنزل خالياً إلا من البواب وهذا من ذأبه النعاس .

فاطرق المنزل الساعة الثانية عشرة ، فإذا عثر بك أحد فى الساحة فاجعل حجتك السؤال عن الكونتيس وارجع بسلام ، ولكن المنظور أنك لن تصادف

أحداً في سبيلك ، فاعمد إلى غرفة الكونتيس تجد بها حاجزا خلفه بابان فافتح
الأيسر يؤدك إلى دهليز في أقصاه سلم يفضى إلى غرفتي : فانتظرني بها »

في الساعة الثانية عشرة صعد هرمان سدة الباب ودخل الساحة المشرقة
بالمصاييح الوهاجة ، ولم يجد للبواب أثرا ، فرقى السلم حتى بلغ حجرة الكونتيس
التي بها مضجعها ، فألقى في إحدى زواياها شبه محراب مزدانا بصور القديسين
وتماثيل القديسات ينيره مصباح من الذهب الأبريز ، وحول الحجرة نمارق
وأرائك عليها وثير الوسائد وخور الحشايا قد نصلت أصباغها لتقدم العهد ورقمت
عليها يد القدم سطور الوحشة والكتابة ، وكان على أحد الجدران صورتان من
صنع المصورة الباريزية المشهورة « ليزان » . إحداهما تمثل رجلا ربة بادنا أشقر
يناهز الأربعين ، في حلة عسكرية خضراء (زوج الكونتيس المتوفى) ، والصورة
الثانية تمثل الكونتيس في صباها : فتاة حسناء شماء العرنيين على جبينها طرة
مصفوفة بحلاة بوردة حمراء ، وفي أركان الحجرة تماثيل من شتى الأغاني : من
البرونز والخزف الصيني ، وساعات وصناديق بها حلل وزخارف ومراوح وبشتى
أصناف اللعب والتحف .

وقف هرمان خلف الحاجز فألقى لدى ظهره سريرا من الحديد وعلى يمينه
باب المقصورة الخاصة بالكونتيس ، وعلى يساره الباب المؤدى إلى دهليز ففتحه
فأبصر السلم المفضى إلى حجرة الوصيقة ليزافيتا ، ولكنه أغلقه ولبث مكانه .

مر الوقت بطيئا ، وكان السكون سائدا ، ولبث هرمان واقفا مستندا إلى رف
الموقد الخامد ، ودقت الساعة واحدة ، ثم نصفاً ، ثم اثنتين ، وإذ ذاك سمع وقع
حوافر وصرير عجلات من أقصى مسافة ، فاعترفته رجفة شديدة وهزة عنيفة ،
وتقدمت المركبة ثم وقفت ، وسمع حركات الوصائف بالقصر غاديات رائحات
في هرج ومرج ، وأشعلت المصاييح وتألقت أضواؤها ، ودخل حجرة الكونتيس
ثلاث وصائف وعلى أثرهن الكونتيس قد نهكها التعب فهالكت على كرسى
وهي أشبه بالأموات منها بالأحياء ، ونظر هرمان من خلال الحاجز فأبصر ليزافيتا
تمر به عن كשב وقد ولجت الباب لأيسر وصعدت في السلم المؤدى إلى

حجرتها ، فأحس نوعا من الندم ووخز الضمير على خيائته إياها وغدره بها ، ولكنه ما لبث أن قسا قلبه وكتم صوت ضميره وعاد إلى سيرته الأولى من الجمود والجفوة .

خلعت الكونتيس ثياب الزينة وارتدت جلباب النوم ، وجلست إلى النافذة بعد أن صُرفت الوصائف وأطفأت المصابيح إلا قنديلا ضئيلا كأمد الشعاع ، وكانت الكونتيس كسائر العجائز مصابه بالأرق ، فليث مكانها من النافذة صفراء الوجه والبشرة كأنما غمست في حوض من الكرم تتحرك شفتاها وترجح يمنة ويسرة .

وكانت عيناها الكليتان الثقيلتان تمان عن الدهول والتدله ، وكأن اهتزاز جثتها منبعث عن آلة كهربائية مخبوءة في أحشائها .

ولكن وجهها الميت تحرك فجأة ، فوقف ارتعاش الشفتين وبدت أمارات الحياة في عينيها - ماذا جرى ؟ لقد ظهر أمامها رجل غريب مجهول .

وقال لها هرمان : « لا تخافى ، لست بضائك ، لقد جئت أسألك حاجة » فنظرت إليه العجوز فى صمت كأنها لم تفهم مقالته ، وظن هرمان أن بها صمما ، فأدنى فمه من أذنها وأعاد ما قاله فتمادت العجوز فى صمتها . وقال هرمان « إن فى مقدورك إسعاد حياتى وترفيه عيشى ، ففى استطاعتك أن تسمى لى ثلاث ورقات من ورق اللعب .. »

وهنا سكوت هرمان إذ بدا له أن العجوز بدأت تفهم كلامه ، وكأنها كانت تعالج نفسها على أن تهيب له جوابا .

فقالت بعد جهد جهيد : « لم يكن ذلك إلا من باب المزح والفكاهة » فأجاب هرمان مغضبا : « كلا ! الأمر جد صراح لا مزاح فيه ولا فكاهة . اذكرى صاحبك تشابلتسكى الذى أقلت عشرته وفرجت غمته وأعنته على استرداد خسائره ، ألا تستطيعين تسمية هذه الورقات ؟ »

فتمادت العجوز فى سكونها . وهنا خر هرمان راکما تحت قدميها وقال : « لمن تدخرين هذا السر ؟ لذريتك وأحفادك وقد أغناهم الله عنه بالثروة الطائلة والنعمة الفسيحة ؟ رحماك أينها الحرة الكريمة ! .. وإذا كنت تعرفين

شعور الحب : حب العاشقة لعشيقها والأم لرضيعها والشقيقة لشقيقتها ، فإننى أستحلفك بعواطف العاشقة والوالدة والشقيقة ، بكل ما هو مقدس فى الحياة ، إلا ما أجبته دعائى وقضيت حاجتى »

كل ذلك والكونتيس صامته لا تنبس .

فعند ذلك ثار هرمان لقدميه وصاح :

« تبا لك من عجوز شوهاء ! لأرغمك على الكلام إرغاما » وأخرج مسدسا من جيبه .

فبدت علامات القلق على العجوز ، فرفعت يديها كأنها تحاول اتقاء القذيفة واستلقت على ظهرها وبقيت مسلوقة النطق والحركة .

فصاح هرمان وقبض على يدها : « أجيبى ! إنى أسألك للمرة الأخيرة ! أجيبى ! ما هى الورقات الثلاث ؟ »

فلم تحر جوابا ، وتأمل هرمان فى وجهها فإذا هى ميتة .

كانت ليزافيتا جالسة فى غرفتها قد ضمت ذراعيها الحاسرتين على صدرها العارى ، وكان رأسها المخلى بالأزهار منكسا على ترائيبها المصقولة ، وإنها لكذلك إذ فتح الباب ودخل هرمان ففترتها هزة ، وسألته بصوت مرتجف : « أين كنت ؟ »

قال هرمان : « فى حجرة الكونتيس ، لقد تركتها وقد فاضت روحها ؟ »

« يا لله ! ماذا تقول ؟ »

« وأخشى أن أكون أنا السبب فى موتها »

وجلس هرمان إلى جانبها وقص عليها ما جرى .

وأصغت إليها الفتاة وفرائصها من الروع ترتعد .

وكذلك ظهر لها أن جميع تلك الرسائل الغرامية ، وكل ذلك الحرص والرغبة والطلاب والمطاردة لم يكن مصدره الحب بل المال ، وإنها لم تكن إلا آلة صماء فى يد لص أثيم !

فلدرفت دموع الندم مرة حارة ، وجعل هرمان ينظر إليها صامتا وقلبه نهيب

الوساوس الأليمة .

وقالت ليزافيتا : « إنك لوحش ضار »

وبدأ الصبح يتنفس ، وقامت ليزافيتا فأرشدت هرمان إلى السلم السرى وضغط على يدها الباردة المسترخية سلام الوداع ، وانطلق .

ولما انكفأ هرمان في المساء اليوم التالى إلى غرفته ، انطرح على مقعد بها منهوك القوى دون أن ينزع ثيابه فاستغرق فى النوم ، ولما انتبه من هجعتة كان الليل قد غسق وألقى القمر جرمه على أرجاء الغرفة .

وإنه لكذلك إذ فتح عليه باب الحجره ودخلت امرأة فى ثوب أبيض فدنت منه وإذا هى الكونتيس ، وقالت بصوت ثابت متين :

« لقد جئتك على غير إرادة منى ، ولكن أمرت أن أجئ فجئت ، سترج إذا لعبت الورقات الثلاث الآتية على التوالى ، كل واحدة فى ليلة ، ثم لا تعيد الكرة . والورقات هى : ثلاثة ، سبعة ، فئط »
ثم املتست من أمامه .

كان فى موسكو جمعية مؤلفة من جبابرة المقامرين يرأسها شيكالتسكى الطائر الصبت .

فى إحدى الليالى قدم إلى بيت شيكالتسكى هرمان فى صحبة تومسكى ، وقدم الأخير هرمان إلى صاحب البيت ، واندمج هرمان فى صفوف المقامرين ، ودارت رحى الميسر وانتهى الدور الأول ، وشرع شيكالتسكى يفئط الورق استعدادا للدور الثانى .

قال هرمان : « أئسمح لى أن آخذ ورقة ؟ »

فابتسم شيكالتسكى وانحنى دلالة الرضى والقبول .

قال هرمان : « أريد الاشتراك » وكتب أرقاما بالطباشير على ظهر ورقته .

قال صاحب البنك (شيكالتسكى) وحدد بصره إلى ما رقمه هرمان على

ظهر الورقة : « على أى مبلغ يا سيدى ؟ معدرة إننى قصير النظر »

قال هرمان : « على سبعة وأربعين ألف روييل » (أعنى كل ما ورثه عن أبيه) .

فعند سماع هذه الكلمة انتفض جميع من بالمكان من المقامرير والمتفرجين ولم يصدقوا آذانهم ولبثوا فى دهشة وذهول ، وقال تومسكى فى نفسه : « حقا لقد خولط هرمان فى عقله »

وقال شيكالتسكى بابتسامته المعهودة : « هذا مبلغ باهظ ، ولم يحدث قط أن أحدا ممن قامروا على هذه المائدة جازف بأكثر من مائتين وخمسين روبل دفعة واحدة »

قال هرمان : « قد يكون قولك حقا ، ولكن خبرنى أتقبل ورقتى أم ترفضها ؟ » فابتسم شيكالتسكى وانحنى قبولا ، وقال : « اسمح لى مع مزيد ثقتى بتصريح أصدقائى أنى لا أقامر إلا على المال الحاضر النقد ، وقد أعلم أن كلمتك كافية ، ولكنى محافظة على نظام اللعب أطلب إليك أن تضع المبلغ على ورقتك » فأخرج هرمان من جيبه بنكنوتا فأسلمها إلى شيكالتسكى ، فأمر عليها الأخير نظرة خفيفة سريعة ثم وضعها على ورقة هرمان .

وشرع ينثر الورق ، فظهر على اليمين « تسعة » وعلى اليسار « ثلاثة » فقال هرمان وأظهر ورقته :
« رابعة »

فتهاشم الحضور دهشة ، وعبس شيكالتسكى ولكن الابتسامة الأبدية ما لبثت أن عاودت وجهه .

وقال لهرمان : « أتريد أن أتأكد المبلغ الآن ؟ »

قال هرمان : « إذا شئت »

فأبرز شيكالتسكى من جيبه طائفة من البنكنوت فدفعها إلى هرمان فأخذها صاحبنا وانطلق إلى داره .

وفى مساء اليوم التالى دخل هرمان بيت شيكالتسكى فوجده يوزع الورق ، فأفصح اللاعبون لهرمان مجلسا بينهم ، وحياه رب الدار بانحناءة المرحب وابتسامة

المستبشر .

واشترك هرمان فى الدور التالى ، فتناول ورقة ووضع عليها جميع رأس ماله
(أعنى السبعة والأربعين ألف روبيل وما ربحه الليلة السابقة وشرع شيكالتسكى
يثر الورق فظهر على اليمين « عشرة » وعلى اليسار « سبعة »
فأبرز هرمان « سبعة »

فضج القوم أجمعين وعلا هتافهم ، وبدا القلق على وجه شيكالتسكى ولكنه
عد المبلغ - وهو أربعة وتسعون ألف روبيل - فدفعه إلى هرمان ، فتناوله هرمان
بأثبت يد وأربط جأش وغادر المكان فى الحال .

وفى الليلة التالية قدم هرمان الدار ، وكان الكل فى انتظاره ، وتحول الجنرالات
والمستشارون والسراة والوجهاء عن لعبتهم « البوست » ليشاهدوا هذا المقامر
الخطير ، ونهض الضباط عن مجالسهم لعين هذا الغرض ، وكذلك الخدام
أنفسهم احتشدوا حول المائدة حتى غص بهم المكان ، وأحلق الجميع بهرمان
إحداق السوار بالمعصم يتزاحمون من حوله ويتدافعون ، وأضرب اللاعبون عن
اللعب لينظروا ماذا تكون العاقبة والمآل .

ووقف هرمان على المائدة وشمر للعب وحده شيكالتسكى ، الذى كان على
شدة اصفرار وجهه لا يزال يتسم ، فتناول كل منهما رزمة من الورق وشرع
شيكالتسكى يفتط ورقه ، وتناول هرمان ورقة وغطاها بكومة من البنكنوت ،
وشرع شيكالتسكى يثر الورق ويدها ترتجفان فظهر على اليمين « ولد » وعلى
اليسار « فنت »

فصاح هرمان وقد أبرز ورقته : « هذا هو الفنت ! لقد ربح ! »

فأجابه شيكالتسكى بكل أدب واحترام :

« معذرة يا سيدى ، إن الذى فى يدك ليس « الفنت » كما تتوهم ولكنه « المرأة
الأسبائى » وقد خسرت .

فانتفض هرمان مذعورا ونظر فى ورقته فإذا هى « المرأة الأسبائى » وكان قد
أعد « الفنت » فى يده ، ماذا جرى ؟ وماذا قلب الورقة فى يده وبدها ؟ تلك
قوة خفية شيطانية !

ونظر « المرأة الأسباني » فخيل إليه أنه يبصر فيها صورة الكونتيس ، وأنها
تبسم إليه ابتسامة هزء وسخرية وتغمز إليه بعينها وحاجبها .
فصاح وقد ملكه الرعب :

« الكونتيس العجوز ! الكونتيس العجوز ! »

وشرع شيكالتسكى يجمع أرياحه ، وليث هرمان فاقد الحركة والصواب
برهة من الزمن .

ولما غادر المكان علت فيه ضجة القوم ولجبههم وقال اللاعبون : « إنها لأشنع
خسارة ! »

واستأنف شيكالتسكى تفنيط الورق وجدد القوم المقامرة .

جن هرمان ، وهو الآن نزيل إحدى المستشفيات ، لا يعي قولاً ولا يحير
جواباً .. ولكن لسانه دائم الوسواس بهذه الكلمة : « ثلاثة ، سبعة ، فنت ،
ثلاثة ، سبعة ، امرأة أسباني ، الخ الخ »

وزوجت ليزافيتا من فتى جميل ممن كانوا فى خدمة الكونتيس ، وعاشت
معه أرغد عيش وأصفاه .

أحكام القدر

كانت الفتاة « ماري » ابنة سرى من سراة القرويين ببعض الأقاليم الروسية . وكانت تحب ضابط الجيش وكان ذلك الضابط بها مولعا . ولما علم أبواها بتلك العلاقة الغرامية حرما عليها لقاءه . ولكن ذلك لم يمنع تمادى المحبة بينهما بتبادل الرسائل والاجتماع أحيانا فى غابة قريبة من دار الفتاة حيث تعاهدا على أن يبذلا أقصى الجهد فى سبيل تحقيق آمالهما من الاقتران ولو بالفرار إلى أى ناحية .

وجاء الشتاء فحال بينهما بثلجه وجليده ولكن ذلك أدى إلى تزايد الرسائل بينهما . وكان الفتى (واسمه فلاديمير) يلح على الفتاة فى كل رسالة أن تسلم نفسها إليه فتفترن به سرا . ثم لعله تبين لأبويها بعد ذلك استمرار الوثام والوفاق بينهما وحسن العشرة والمعاملة ودوام الوفاء والصفاء ، صفحا عنهما وعظفا عليهما وأنزلاهما من كنفهما سهلا رحيبا ومن ظللها خضلا رطيبا .

وبعد طول تشكك وتردد وافقت الفتاة صاحبها على تنفيذ ما دبر لها من الحيلة للفرار من دار أبيها . وذلك أنها تتمنع عن تناول العشاء فى اليوم المضروب للفرار . وتلزم غرفتها بعله أنها منحرفة المزاج . ثم تذهب وخادمتها إلى حديقة المنزل على السلم الخلفى . ومتى خرجتا من الحديقة وجدتا زلافة (المركبة المستعملة على الثلج) فى انتظارهما فتركبانه وتمضيان إلى كنيسة فى قرية صغيرة تقع على نحو خمسة أميال من قرية الفتاة . وهناك تجدان أن فتاهما فلاديمير فى انتظارهما .

فى الليلة السابقة لذلك اليوم الموعود لم يغش النوم أجفان ماري . فقضت ليلتها فى حزم أمتعتها وثيابها وكتابة رسالة إلى إحدى أترابها وأخرى لوالديها ضمنتها أرق كلمات الوداع والاعتذار . وختمتها بقولها إن أسعد ساعة عندها هى التى يتاح لها فيها أن ترمى بنفسها تحت أقدامهما استعطافا واسترحاما . وبعد أن ختمت الرسائل ألقت بنفسها على الفراش ، فأخذتها عينها برهة

ابتليت أثناءها بأخوف الأحلام وأزعجها . فأحيانا ترى كأن أباه انفض عليها
وهى هاربة فأخذها أخذ عزيز مقتدر ثم قذف بها فى هاوية . وأحيانا ترى كأن
حبيبها فلاديمير ملقى على الصعيد شاحب الوجه مضرجا بدمائه ، وأنه يتضرع
إليها وهو فى سكرة الموت أن تزوج به . وأخيرا هبت من منامها قلقا مضطربة ،
موهنة متعبة .

جاء المساء . وكلما ذكرت أن هذا آخر أيامها بين أسرتها ، انخلع قلبها
وذهب لها وراحت بحال أقرب إلى الموت منها إلى الحياة وجعلت تودع كل ما
يحيط بها من بشر وحيوان وجماد .

نصب الخوان . فاشتد خفقان قلبها وقالت بصوت متقطع أنها لا تشتهى
الطعام واستأذنت أبويها فى الانصراف فأجاباها ودعوا لها بالخير والسعادة كشأنهما
كل ليلة . فانصرفت من أمامهما وهى لا تملك عبرتها فأجهشت بالبكاء .

ولما دخلت غرفتها تهالكت على مقعد وأسبلت عينها وابلا مدرارا . فزجرتها
خادمتها وأوصتها بالصبر والأناة .

ونظرت مارى فإذا كل شىء قد أعد للفرار . ثم ذكرت أنها بعد هنية
مغادرة دار أبيها إلى حيث لا تعود إليها آخر الأبد . بمغادرة أبويها وأسرتها
وأهلها وغرفتها وأدواتها وذكريات ماضيها وعيشتها الآمنة المطمئنة أبد الأبد .
كان الثلج إذ ذاك يملأ فضاء الجو والريح تعوى وتغول . ومصاريع النوافذ
ترتج وتضطرم . وكل شىء ينذر بالشر والشؤم .

شمل السكون المنزل ونام أهله أجمعون . وارتدت مارى رداءها واشتملت
بملاءة دفة ، وتناولت حقيبتها وهبطت على السلم الخلفى وخادمتها إلى الحديقة .
وكانت زوبعة الثلج لا تزال ثائرة والريح خفاقة الجلابيب تنفخ وجه مارى وتدفع
فى صدرها وتجذب بأطراف رداؤها كأن لها عند الفتاة ثارا . وبعد الجهد الجهد
خرجتا من الحديقة فألفيتا لدى الباب الزلاقة وسائقها فركبتا ووضعتا الأمتعة بين
أيديهما وأرخصى السائق لجواديه العنان فانطلقا .

والآن نترك الفتاة وخادمتها فى رعاية الأقدار وعناية السائق . ونرجع إلى
الفتى فلاديمير عاشق الفتاة .

قضى فلاديمير سحابة اليوم فى إعداد العدة للاقتران بحبيته . فرار كنيسة « جادرينو » التى قرر أن يتم بها عقد الزواج ، التى قلنا إنها فى قرية تبعد عن قرية الفتاة بنحو خمسة أميال ، فقابل قسيسها واتفق معه بعد مشقة وعناء على إنجاز ذلك العقد ثم ذهب يلتبس الشهود من بين فلاحي تلك الناحية ، فشر على ثلاثة من أصدقائه وفاقهم فى الأمر وأعلمهم مكان الكنيسة التى سيكون بها عقد القران ، فأجابوا طلبه وأقسموا ليذهبن إليها فى الموعد المحدود وليبذلن من أجله كل ما لديهن حتى أرواحهم فعانقهن وانقلب إلى داره ليعد معداته .

وكان الظلام قد أرخى سدوله . فأرسل فلاديمير خادمه بزلاقة لتقل الفتاة مارى وخادمتها من باب حديقتهما - على نحو ما تقدم .

وامتنطى هو زلاقة أخرى فانطلق فيها وحده يؤم الكنيسة وكان يعرف الطريق جيدا ويعلم أن الكنيسة على مسيرة ثلث ساعة من داره .

ولكن فلاديمير لم يكد يخرج إلى العراء حتى هبت الريح وثار فى وجهه عاصفة ثلجية أغشت عينيه فلم يصبر وخفيت عليه السبيل وسدت فى وجهه المذاهب ، وانطمست معالم الأرض والسماء ، وغابت الكائنات فى ضباب كثيفة صفراء كانت شظايا الثلج خلالها تسامى وتتهاوى ، واندفع الجواد بالزلاقة هائما على وجهه لاقصد له ولا وجهة . ومضت نصف ساعة ولم تلح له غابة « جادرينو » التى بها الكنيسة .

وكل الجواد وأعشى وجعل العرق يتحلب من أعطافه . وتبين للفتى أنه قد ضل الطريق فاندفع بزلاقته يحاول الاهتداء إلى جادة السبيل ولكنه كلما أمعن فى السير أمعن فى الضلالة فقلق باله وهاج بلباله ، وزايله الرجاء وملكه اليأس . وكان الليل قد انتصف فسالت على الخدين مدامعه ، واعتسف الأرض اعتسافا لا يدرى إلى أين تسوقه الأقدار .

وأخيرا سكنت العاصفة وانقشع الغيم وامتد أمامه سهل مغشى بالجليد كأنه صرح ممرد من قوارير ، وأبصر على كتب منه قرية صغيرة تشتمل على خمسة منازل . فقصدها حتى بلغ أول منزل . . وثب من الزلاقة فعمد إلى نافذته ودق عليها فانفتحت وأطل منها شيخ هرم وقال :

« من الطارق ؟ »

« هل كنيسة جادرينو منا قرية ؟ »

« كلا والله بل بعيدة جدا : هي منا على عشرة أميال »

فعض الفتى على أصابعه ندما . وأطرق واجما كالمنحكوم عليه بالإعدام .
وبعد برهة رفع رأسه قائلا :

« هلا أعطيتني أيها الشيخ دليلا حاذقا يهديني إلى كنيسة جادرينو ؟ »

قال الشيخ « سأرسل إليك غلامى »

وما لبث أن خرج إليه صبي فى يده عصا فتقدم أمام فلاديمير يهديه الطريق بين كتبان تلج مركومة حتى مطلع الفجر إذ بلغا كنيسة جادرينو ، فألفياها مغلقة فدفع للبواب بضعة دراهم ودخل ساحة الكنيسة بزلافته فلم يجد ثمت الزلافة الأخرى التى كان قد بعث بها لتحمل إليه حبيبته . ماذا جرى . وما الخبر ياترى ؟
وهنا ترك فلاديمير فى حيرته ودهشته ونعود إلى أسرة الفتاة ماري فى قريتهم . لئرى ما جرى هنالك ؟

انتبه والد الفتاة وأمها من النوم وذهبا إلى مائدة الإفطار وصفت أكواب الشاي وأرسل الوالد إحدى الخادومات إلى غرفة ابنته لتستفسر عن صحتها وكيف أمضت الليلة ، فعادت الخادمة وقالت للشيخ إن ابنته أحسن حالا وأنها قادمة على الأثر . ودخلت ماري فسلمت على أبيوها .

وقال الشيخ « كيف حالك يا بنتى ؟ »

« أحسن يا أبته »

« أى أن ما كان بك من الصداغ هو من تأثير دخان الفحم »

« لعله كذلك يا أبى »

فى مساء ذلك اليوم أصيبت ماري بنوبة شديدة من المرض فجئ بطبيب من المدينة ففحصهما فإذا هي تهذى من الحمى ، ولبثت الفتاة أسبوعين بين الحياة والموت .

ولم يكن أحد بالدار يعلم شيئا من أمر فرارها وعودتها فى تلك الليلة المشئومة .

وكانت الفتاة قد أحرقت عند إياها تينك الرسالتين آفتى الذكر ، ولم تبح خادمتهما بشيء وكانت للسر كتوما . وكذلك كان قسيس كنيسة جادرينو مأمونا على الغيب . والثلاثة الشهود كلهم كان حافظا للسر حازما رزينا . وكذلك كان سائق الزلافة ، ومن ثم بقى السر مكتوما فى أكثر من ستة صدور ، وهذا نادر . ولكن مارى باحت بالسر فى بعض نوبات هذيانها - وإنما باحت به فى عبارات متقطعة متناثرة . وألفاظ مبددة النظام متناكرة ، حتى إن أمها لم تكدر تفهم من تلك العبارات المضطربة أكثر من أن انتهت كانت تعاني من حب « فلاديمير » لوعة وحرقة . وإن الحب ربما كان سبب علتها . فأطلعت زوجها على ذلك . وبعد مناقشات ومفاوضات استقر رأيهما على تزويج الفتاة من حبيبها فلاديمير حتى شفيت .

أخذت الفتاة فى النقاة . وبعث أبوها وأمها إلى فلاديمير برسالة يطلبان فيها إليه الحضور إلى دارهم للشروع فى تزويجه من ابنتهما مارى، وكانا يحسبان أن رسالتهم تلك ستصيب من الفتى مواقع الماء من ذى الغلة الصادى . ولكن ماذا كانت دهشتهم حينما جاء الرد من فلاديمير فى رسالة شديدة اللهجة يقول فيها إنه لن يلج البتة دارهما ، وأن كل ما يرجوه هو أن يلقي حتفه عاجلا فيستريح من شر هذا العالم ، وبعد أيام من ذلك علما أن الفتى عاد إلى الخدمة العسكرية واختفى فى غمار الجنود . وكان هذا فى عام ١٨١٣ .

وقرأت الفتاة يوما فى إحدى الجرائد اسم فلاديمير ضمن أسماء الذين أبلوا بلاء حسنا ضد جيوش نابليون أثناء زحفها على موسكو . وأنه (أى فلاديمير) أصيب بجراح خطيرة . فأغشى عليها وخيف أن تعاودها الحمى ولكنها ما لبثت أن أفاقت .

ثم توفى والد الفتاة وأورثها كل ضياعه وأمواله ، ولكن ذلك الميراث العظيم لم ينسها حبيبها ولم يعزها عن فقدته . وتحولت وأمها عن تلك القرية التى انتابها فيها المحن والأرزاء إلى إحدى ضيعاتهما العديدة حيث عزمنا على الإقامة .

وهناك ازدحم عليها الخطاب ، ولكنها صلت عنهم وأعرضت . وكلمها أخذت الأم تحضها على اختيار زوج من هذا الجم الغفير من الطلاب كان جوابها

الصمت والإطراق .

وأذاعت الجرائد نعي فلاديمير منبئة أنه قتل فى موسكو ليلة استولت عليها .
جيوش نابليون .

فقدست مارى كراه وادخرت جميع آثاره ، كالكتب التى كان يقرأها والصور
التى رسمها وقصائد الغزل التى نظمها فيها وسائر مدونات ومذكراته . وقد كان
فى سلوكها هذا ما أدهش أهل تلك الناحية ، إذ عجبوا أن يكون فى الدنيا امرأة
على هذا الخلق العظيم من الوفاء والحفاظ . وجعلوا يرقبون ظهور ذلك البطل
الذى قد يتاح له أن يتغلب فى النهاية على أحزان هذه الفتاة الوفية .

فى أثناء ذلك كانت الحرب قد وضعت أوزارها واستراح الناس من شرها ،
وكانت وفود الخطاب كما أسلفنا يؤمون دار الفتاة من مهاب الرياح الأربع ،
وأصبحت وكأن صرح جمالها محاصر بجيش عرم من العشاق . ولكن هذا الجيش
تقهقر وانسحب حينما تقدم إلى الفتاة الضابط العظيم « الكولونيل برومين » من
كتيبة الفرسان يحمل على صدره وسام القديس جرجيس ، وعلى وجهه صفرة
أسى وأفتن من صفرة ذلك الوسام . وكان فى السادسة والعشرين من عمره قد
استكمل أسباب الرجولة واستوى سيدا ضخما لا غرا غمرا ولا ضرعا قحما .

وكان هذا الفارس قد أخذ إجازة وجاء يقضيها فى ضيعته بجوار ضيعة الأنسة
مارى ، فأفردته هذه الحسنة من دون غيره من الزوار بعناية خاصة وآثرته بمزيد
الاحتراف والتلطف والرفق والتعطف . فكانت فى حضرته تخلع رداء الحزن
والأسى ، وتنصل من حداد الشجن والشجى . ولا تجرؤ على القول بأنها كانت
تغازله وتصبو إليه . ولكننا نقول إذا لم يكن توددها إليه وحنينها وارتياحها هذا
غراما وحبا ، فكيف إذن يكون الحب والغرام ؟

والواقع أن « برومين » كان فتانا خلابا ، وكانت عيناه أبدا معقودتين بطلعة
مارى وقلبه عليها دائم الخفقان وفؤاده بها دائم الهيمان . وكانت قد علمت أنه
كان فيما سلف من زمانه خليعا مستهترا بالنساء ينتقل من هذه إلى تلك .

ولكن ما بلغها عن سلوكه هذا لم يزر به عندها ولم يشنه فى نظرها ، وكان
مذهبها فى ذلك مذهب سائر النساء إذ يغتفرون من ذنوب الرجال كل ما كان

منشؤه جراحة القلب وحدة المراج وحرارة الشهوة وتوقد الشعور .
ولكن الذى كان أبعث لعجبها وأشغل لبالها من كل مزايها هذا الفتى ومحاسنه ،
هو صمته عن مكاشفتها بميله ومصارحتها بسريرة حبه .

لقد جعلت تعجب له كيف لم يفتح لها أغلاق صدره يميز لها مكنون سره .
وكيف لم يخبر راعها تحت قدميها يشكو لها حر وجده وفرط كمدته ، ويسألها
أن تكون زوجته وقرينته ؟ ماذا كان يمنعه ، أهى الحشمة والحياء ؟ أم الأنفة
والكبرياء ؟ أم المكر والدهاء ؟ إن هذا والله إلا لغز وأحجية ، ومشكلة غامضة
خفية .

وبعد إدمان الفكرة عزمت على استطلاع غامض هذا الأمر ، ورأت أن أحسن
حيلة لبلوغ ذلك هى أن تخلو به يوما فتوجه إليه من عبارات التودد والتعجب
وأساليب الاستصبا ، ما هو جدير أن يخدر أعصابه ويستذيب عواطفه . وفعلها
نفذت هذه الخطة فاختلت بالفتى وسلطت عليه تيارا كهربائيا ومدفعية الحافظها ،
فخارت قواه تحت تلك المدفعية التى لا تصبر على قذائفها الأبراج العالية ، ولا
الجيال الراسية . وتزايدت مفاصله ووهى عقد جلده . فكاشفها بالغرام ، وشكا
لها لواعج الهيام إلى أن قال :

« مارى ! إننى أحبك ! »

فكست الفتاة جيدها كالزهرة آدها حملها من الطل والندى .

واسترسل « برومين »

« لقد جنيت على نفسى إذ عودتها حلاوة الائتناس برويتك . وعلى عيني إذ
جعلت من دأبها الاكتحال ببهاء طلعتك ، وعلى أذنى إذ صيرتها فى حاجة أبدا
إلى عذوبة حديثك ولذاذة نغمتك »

فتذكرت الغادة فى تلك الألفاظ المنسقة الرسالة الأولى من رسائل « سانت
بريه » فى كتاب « هلواز الجديدة » لجان جاك روسو . وكانت مارى من أكثر
نساء عصرها اطلاعا على آداب اللغات الحية والمندثرة .

واستمر برومين فى مناجاته .

« والآن قد نفذ السهم فلا مناص ، وقد أصبحت أيتها الصورة المعشوقة

والدمية المونقة المرموقة . شغلى الشاغل يقظان ، وحلمى الطائف وسان ، وأصبحت
أملى وألمى وفرحتى وترحتى ، ومنأى وشجأى .

وبعد كل ذلك فإن هنالك سرا رهيبا يحول بينى وبين الاقتران بك - بل
يجعل هذا الاقتران أمرا مستحيلا »
فقاطعت الفتاة قائلة :

« وإن عندى أيضا مثل هذا السر الرهيب ، وأراه أيضا يحول دون اقترانى
بك ، بل يجعل هذا الاقتران أمرا مستحيلا »
قال برومين :

« واحسرتاه ! ليس فى الدنيا أنكد منى عيشا وأسوأ حالا- إنى متزوج يا
مارى ! »

فبهت الفتاة ودهشت

قال برومين « أجل وقد مضى على تاريخ زواجى أربعة أعوام . وأعجب ما
فى الأمرأنى لم أر زوجتى إلا لحة وقت القران - وقبل ذلك لم أكن رأيتها قط ولم
أرها من بعد ذلك أبدا - ولا أعرف من هى ، ولا أدرى أين هى ، ولا أدرى
هل فى مشيئة الأقدار أن تربنيها مرة أخرى قبل مماتى »

فصاحت مارى « ماذا أسمع ؟ . هذا أعجب ما جرى به لسان ، وأغرب
ماساغ فى أذن إنسان . امض فى حديثك ، وسأخبرك بعد فراغك . »
قال « برومين » :

« فى أوائل عام ١٨١٢ كنت متوجها إلى مدينة « فلنا » ، حيث كانت فرقتى
معسكرة ، فوصلت إلى إحدى المحطات متأخرا ذات ليلة ، وأمرت بإسراج الخيل
متأبها للرحيل . وإذا ذاك ثارت عاصفة من عواصف الثلج فأشار على ناظر المحطة
بالانتظار ريثما تسكن العاصفة ، فاتبعت مشورته . ولكن عرانى شىء من القلق
لم أفهم له علة ولا سببا ، وخيل إلى أن دافعا من ورائى يدفعنى إلى استئناف المسير،
فأمرت بالزلافة أن تهيا وانطلقت والزوجة فى أشد غلوائها ، واندفعت الزلافة
تنهب الأرض نهبا - « قد لفها الليل بسواق حطم » .

ثم ضللنا الطريق فهمنا على وجهنا فى مجاهل الأرض ، كل ذلك والعاصفة

لم تن ولم تفر . ولاح لنا ضوء فيمناه فإذا قرية بها كنيسة بابها مفتوح وفي
ساحتها عدد من الزلاقات ونفر من الناس . وإذا القوم يصيحون بى تقدم !
تقدم ! ماذا أحرك حتى الساعة ؟ أسرع فلقد والله أغمى على الفتاة وقد حار
القسيس فى أمره فما يدرى ما يفعل . ولقد هممنا بالانصراف . أسرع إلينا . »
فنزلت من الزلاقة دون أن أنيس بأدنى كلمة ، ودخلت الكنيسة وكانت
مضاءة بشمعين ضعيلتين . وعلى مقعد بزاوية مظلمة تجلس فتاة صغيرة إلى جانبها
خادمتها تدلك وجهها ورأسها .

وقالت الخادمة : « الحمد لله إذ جاءنا بك بعد أن بلغت الروح التراقي . لقد
كدت والله أن تقتل الفتاة .

ودنا منى القسيس وقال « أتحب أن تبدأ الآن ؟ »

فقلت وقد ذهب عقلى وطاش لى ، وإنى وأيم الله لا أعرف ما أقول من
فرط الدهشة والذهول « ابدأ ابدأ يا أبانا »

ثم نهضت الفتاة فرأيتها مليحة حسناء ، فوقفت إلى جانبها أمام القسيس .
كل ذلك وأنا فى دهشة وذهول . وأسرع القسيس فى أداء مهمته وشهد
الشهود وتم زواجنا »

وقال لنا الشهود :

« بارك الله لكما فى القران السعيد . تعانقا أيها العروسان ! »

ولما التفتت إلى زوجتى فتبينت حقيقتى اصفر وجهها ونفرت مذعورة وصاحت
« رياه ! إنه ليس هو ، إنه رجل آخر » ثم خرت مغشيا عليها .

فنظر إلى الشهود مذعورين فمنحتهم كنفى ، وغادرت المكان فألقيت بنفسى
فى الزلاقة وصحت بالسائق : « انطلق ! »

فصاحت مارى قائلة : « رياه ! وأنت للآن لاتدرى ماذا حدث لزوجتك ؟ »

قال برومين : « لا أعرف من أمر ذلك شيئا ، كما لا أعرف اسم القرية التى
تزوجت بها ولا اسم الحطة التى منها انطلقت . ومن سوء الحظ أن الخادم الذى
كان معى تلك الليلة قتل أثناء الحرب ، فأصبحت ولا أمل لى فى الاهتداء يوما

ما إلى المرأة التي تزوجتها على الرغم منها. والتي قد عشت بأقدس عواطفها فانتقم
لها القدر مني شر انتقام بجرماني أن أتزوج بك الآن - وفي هذا الحرمان هلاكى .
فصاحت ماري : « ألسنت تعلم أنى أنا الفتاة التي تزوجت بها تلك الليلة .
أأنت الذى صنعت بى كل ذلك ثم لا تعرفنى ؟ »
فأهوى برومين على زوجته يطوق جيدها بعقد من مدامع الندم والسرور ،
وفؤاده يخفق فى قبضة الأسف الشديد والحبور .

جوليا

قال المنجد لصبيه :

« اذهب يا كارل إلى دار المسز « رومر » فلديها كرسى يحتاج إلى التنجيد
فأنت به على عجل »

ولما وصل كارل إلى دار السيدة المذكورة ، خرجت إليه فتاة فى الثامنة عشرة
فرنت بعينيهما الساحرتين إلى الفتى وكان جميل الطلعة ممشوق القوام ، ورنا إليها
الفتى وأدهش كلا منها جمال الآخر فليثا ذاهلين مبهورين برهة ، ثم أفاقت أولا
فقالت :

« من أنت ؟ »

« صبى المنجد »

« أتريد شيئا من أمتعة المنزل ؟ »

وهل فى المنزل شىء هو أبدع وأروع وأشهى وأبهى من ذلك الشكل الذى
أراه الآن وأخاطبه ؟ »

فاشتد غيظ الفتاة من جرأته ووقاحته ، واحمر وجهها وضربت الأرض بقدمها .
وتمادى الفتى فى وقاحته فقال :

« إذا كان فى متاعك خلل أو فساد ، فليس من شأنى إصلاحه لأنه لاشأن
لى بمتاع الفتيات ولا علاقة ، وإنما جئت بأمر معلمى المستر سفنسون لأحمل
إليه من ههنا كرسيا يقال إنه مخروق وفى حاجة إلى التنجيد »

فصببت الفتاة رأسها فى عظمة وكبرياء وفتحت الباب وسارت بالفتى إلى
المنظرة ، ثم أومأت إلى كرسى مخروق ولم تنبس أثناء ذلك كله بأدنى كلمة .
فحمل كارل الكرسى ومشى حتى إذا خرج من باب المنزل ، التفت إلى الفتاة

وقال :

« خيرا ؟ »

فقال الفتاة بمنتهى الكبرياء والعظمة .

« ماذا تريد ؟ »

فأجابها بابتسامة تتم عن أسرار ضميره ، أجابته عليها وجنتاها بحمرة الحياء والخجل .

ثم قال .

« إنى بخير وأرجو أن تكونى أنت بخير »

فلم تمالك الفتاة أن ضحكت ضحكة عالية ثم قالت :

تالله ما رأيت أبله منك قط ، لأنى أعبط صبيان المنجدين جميعا . اذهب فى الحال وإلا ناديت عمى »

فقال كارل « سأذهب حالا ، ولكن اسمحى لى قبل ذلك أن أرجو الله أن تكون عمك بخير أيضا »

ثم مضى مسرعا ، ولما عاد إلى الدكان وضع الكرسي فى غرفة الأمتعة المختلة وشرع يزاول أعمال صناعته ، ولكن محاسن الفتاة جعلت تتراعى لعين خياله . ولما أكمل قطعة الأثاث التى كانت فى يده نهض إلى الكرسي الذى جاء به من منزل الفتاة ووضعه أمامه ، ولم يكن فى نيته أن يبدأ به ولكنه كان يتلذذ بمجرد النظر إليه إذ كان يذكره بصاحبته الحسناء .

وبينما هو يتأمل الخرق الذى به بصر بورقة صغيرة كانت قد سقطت فى ثقب بظهره . وكانت معنونة هكذا « الآبار المعدنية - فيرنكليف وشركاؤه - المدير روبرت دى لين » وفيها الرسالة الآتية :

عزيزتى جوليا

ليت شعرى ماذا أصابنى من فتنة جمالك الباهر ، فو الله ما أدرى بين ضلوعى جمره تتوقد . أم حسرة تتجدد .

لقد تركتنى أشعل فحمة الليل بأنفاسى الحار . ثم أطفعتها بدموعى الغزار .

ماذا أتخنت لحاظك فى حشائى من الجراح والأوصاب . وما الذى قالته
عينك لقلبى فأجاب . فهلا تمنين على صبك الولهان بلقاء ينفى الشجى ويشفى
الجوى . ويا حبذا لو كان ذلك فى يوم الأربعاء فى عين المكان والأوان الذى
تلاقينا فيه قبل ، والسلام .

أسيرك المضى

روبرت

فلما فرغ كارل من تلاوة الرسالة تطايز شرر الغضب من لحاظه المستعرة ،
ثم أعاد تلاوتها مرارا وأخفاها فى جيبه وقال :
« مهما يكن روبرت هذا فإنى أقسم بمن رفع السماء بغير عمد أنه لو غد
نذل خسيس ساقط الهمة ، صفر من الشرف والمروءة ! »
ولما ذهب كارل فى صبيحة اليوم التالى إلى دكان معلمه ، وجد الفتاة الحسناء
تترقب مجيئه .

وقال له المعلم المستر سفسون « هذه الآنسة لها إليك كلمة »
وكانت مرتبكة مضطربة يجرى لونها ويذهب .
قالت تخاطب كارل « أظنك قد ... لعلك ... أريد أن أسألك هل عثرت
على شئ فى الكرسى الذى أخذته أمس من دارنا ؟ »
فنظر كارل إلى المعلم فوجده منهمكا فى عمله غافلا عنهما ، فنظر إلى الفتاة
وهز إليها رأسه علامة الإيجاب . فمدت إليه يدها وقالت بعظمة وكبرياء « هات
ما قد وجدته بالكرسى »
لكن كارل جعل ينظر إليها نظرات لينة ملؤها الحب والوله ، وهز إليها رأسه
رفضاً وإباء .

قالت جوليا : « إذا أبيت شكوتك إلى معلمك المستر سفسون »
قال كارل بثبات ورزانة « وإذا أبيت أنت إلا أخذ الرسالة أبلغت الأمر إلى
عمتك المسز رومر »
فاصفر لون الفتاة اصفرارا رائعا حتى أشفق عليها كارل وتوجع لها .

فالتفت إلى المعلم وقال :

« إن الأنسة تريد أن أرفقها إلى دار عمته لترينى شيئا من الأثاث فى حاجة إلى التنجيد .

فهز المعلم رأسه موافقة دون أن يرفعه عما كان مكبا عليه من عمله .
وغادر كارل الدكان تتبعه الفتاة فى خشوع وتواضع - حتى إذا بلغ بعض الأزقة وقف بها هنالك وقال لها مستفهما .

« اسمك جوليا ؟ »

ف قالت مغضبة « ليس هذا من شأنك »

فقال مبتسما « إذا أبيت الجواب عن سؤالى هذا فلأعرفنه من عمك »

قالت « اسمى جوليا وماذا تريد بعد ذلك ؟ »

« اعلمى يا جوليا أنى لست معطيك هذه الرسالة - لا تعيسى ولا تقطى جبينك الواضح - إنك لآية من آيات الجمال ومعجزة من معجزات الله فى الحسن والفتنة - ومازلت منذ رأيتك أمس حائر العقل مستهما - فاسمعى ما قد عزمت عليه فى شأنك - سأبحث عن هذا المسمى روبرت الذى بعث إليك بتلك الرسالة ، فإذا وجدته كفوا لك وأهلا للاقتران بك - ولن إخاله - رضيته لك زوجا وسألته أن يدعونى إلى حفلة الزفاف - ولكن هاتفا فى قلبى ينبئنى أنى سأجده وغدا نحسبنا ونذلا جيانا وأحمق غيبا ، وإنه لهاتف صادق معجب الصدق ، ومازلت أهنئ بوحى وإلهامه فى جميع شعونى - وكذلك يوحى إلى هذا الهاتف أن ذلك المسمى روبرت الذى اجترأ على مقامك السامى بتلك الرسالة الوقحة ، لن يكون نصيبه منى سوى صفة على قفاه وبوكس فى صدغه ورفسه فى كرشه - فدعبنى وتنفيذ خطتى هذه فإنه لا مناص من ذلك »

فلم يكن من الفتاة سوى أنها شرعت تبكى وتنتحب .

فقال كارل برأفة وحنان .

« لا تؤذى عينيك الساحرتين - تكيين - فوالله ما قصدت إلى إيذائك ولا

إيلاملك »

قالت جوليا « والله إنك لفظ غليظ القلب »

ثم صوبت إليه نظرة حشدت فيها كل ما لديها من بغض وغيظ وحنق ،
ومضت فى سيلها دون أن تفوه بأدنى كلمة أخرى .

ذهب كارل إلى دار القنصلية السويدية (ولا يفوتنا أن كارل هذا كان سويدي الجنسية) وهناك قابل القنصل وأسر إليه كلمة فى أذنه ، فأجابه القنصل قائلاً
« كلا » فhez كارل رأسه موافقة ، ثم همس ثانياً فى أذن القنصل فأجابه القنصل
بلفظة « كلا » أيضاً .

واستخرج كارل من جيبه ورقة فقدمها إلى القنصل ثم قال « لا بأس »
وأعادها إلى كارل .

وعلى إثر ذلك مضى كارل إلى « شركة الآبار المعدنية ، فرنكليف وشركاؤه »
وسأل عن المستر روبرت دى لين ، فأعلمه أحد الخدام أنه جالس فى قهوة
« سيونار » بالشارع المجاور فمضى كارل إلى القهوة المذكورة وعقد صحبة مع
الخدام فألطفه بكأس من النبيذ وسجاره - ثم أخذ يسأله عن أسماء الجالسين على
مائدة اللعب فكان ممن سماهم الخدام رجل يدعى « روبرت دى لين » (وهو
صاحب الرسالة) فتأمله كارل فإذا به كما كان قد تخيله قبل - رجل ضئيل نحيف
ضامر ضعيف البنية على وجهة مسحة من ملاحه

وقال خادم القهوة « إن لهذا الرجل - روبرت - لسلطاناً عظيماً على قلوب
الأوانس ، فهن أبداً يتهاقن عليه تهافت القراش على النار »

وانتظر كارل حتى فرغ روبرت من اللعب ثم استدعاه فانتحى به زواية من
المكان ، وقال يخاطبه :

« لقد جئت من مدينة « ستوكهولم » ومازلت أبحث عن صنف جيد من المياه
المعدنية ، حتى اهتديت إليك أخيراً »

قال روبرت بحفاوة وبشاشة :

« أنا فى خدمتك يا سيدى ، تفضل بالجلوس »

ثم تناقشا ملياً فى صنوف المياه المعدنية وأسعارها ونفقات شحنها وتصديرها ،
وقال كارل إنه سيتروى فى هذه المسألة ثم يخبره بالنتيجة بعد أيام .

ومما ألم كارل وكدر صفاءه أنه بدأ يشعر بشيء من العطف على روبرت والارتياح إليه والاستئناس به ، وكان روبرت يظهر إلى كارل نحو ذلك من التودد والحفاوة .

وقال روبرت « حبذا لو تناولت معى الغداء اليوم ، إنى أعرف مطعما مشهورا بجودة نيذيه ، فابق معى سائر هذا اليوم فإنى أشعر نحوك بعاطفة شديدة وبودى أن لا أفارقك أبدا ، فهل لك فى الركوب معى للترهة ؟ - إنى أعرف غادتين جميلتين لا تأبيان مرافقتنا فهل تقضى معهما برهة من الزمن ؟ »

وكذلك التقيا بالغادتين المليحتين وخرجا معهما للترهة ، وبينما هما يلهوان معهما ويلعبان اقترح كارل على صاحبه أن يذهبا بهما إلى دار التمثيل ، فتغافل روبرت عن اقتراح كارل كأنه لم يسمعه ، ثم همس فى إذنه بعد ذلك قائلا « هاتان الغادتان لا تستحقان أن نأخذهما إلى دار التمثيل ، وإنى لأعرف من الغانيات من هن أجمل كثيرا وأجدر لفرط حسنهن أن تأخذهن إلى مثل ذلك المكان فبهر بهن أبصار الجماهير »

ووفى روبرت بوعده فأخذ كارل إلى دار التمثيل فى صحبة أربع من أجمل الفتيات وأفتنهن حسنا وملاحة .

وتغيب كارل عن دكان معلمه المنجد ثلاثة أيام قضاها مع صديقه الجديد ، الذى جعل يعرفه فى كل ساعة جديدة بفتاة جديدة .

وأدرك كارل سر انجذاب الفتيات إلى روبرت هذا ، وذلك إنه كان لا يزال أبدا ضحوكا لعبا لا تفارق شفثيه ابتسامته البشر ، ولا ينطفئ فى وجهه مصباح البشاشة ، ذلك إلى كثرة التودد والتزلف إلى الغانيات ومزيد الترفق والتلطف بهن ، والتبجيل والاحترام والإجلال والإعظام لهن ، وفرط التملق والإطراء والتقرير لمحاسنهن وملحهن - أضف إلى كل ذلك أنه كان يحاول أن يفهم كل واحدة منهن على انفراد أنها هى وحدها الحبيبة والمعشوقة ، وقرة العين ومنية الروح .

وقال روبرت لصديقه كارل « إنى كما ترى لا أكاد اخلو من الفتيات ساعة واحدة »

قال كارل « ولكن ماذا تصنع إذا تزوجت ؟ »

قال روبرت « إذا تزوجت ! ياللعجب العجاب ! إني متزوج منذ عشرة أعوام »

فضحك كارل ثم قدم إلى روبرت الرسالة التي كان عثر عليها في الكرسي المخروق فقرأها روبرت وجعل يمسح جبينه بيده كمن يحاول أن يتذكر شيئا قد نسيه .

ثم قال « جوليا - جوليا - من جوليا هذه ؟ تالله لا أذكر هذا السم البتة »
ثم عاود كد ذاكرته ، وبعد الجهد الجهد تذكر شيئا كالحلم المشوش الذي قد مضى عليه ألف عام فقال :

« أجل جوليا هذه حمالة صغيرة عرفتني بها فتاة أخرى لا أذكر اسمها فقدمت إليها قدحا من الشاي ووعدتها أن آخذها إلى دار التمثيل . وهذا علة كتابتي إليها تلك الرسالة ، ولكني لم ألبث أن نسيت كل ما كان بيني وبينها حتى لكأنني لم أرها قط ولو لم تذكرني بها الساعة لما ذكرتها آخر الأبد ، ولكن خبرني كيف عثرت على هذه الرسالة ؟ »

قال كارل « سأنتيك بذلك في وقت آخر ، أما الآن فأرجو أن تكتب إليها رسالة أخرى لأوصلها إليها ، أتوافق على ذلك ؟ »

قال روبرت « بكل ارتياح يا سيدي ، إني مستعد أن أكتب إلى الفتاة كل ما تمليه علي . فإن شئت كتبت إليها إنها تنزل منى بمكان السويداء من مهجتي والسواد من مقلتي ، وإن شئت كتبت إليها أنني لا أعرفها وإني برىء منها وإنه عليها العفاء ولا أبعد الله غيرها »

وردت على المسز رومر (عمة جوليا) رسالة من المسز « جونسون » صاحبتها القديمة ، تدعوها هي وابنة أخيها جوليا إلى تناول الغداء على مائدتها ، وأنبأتها أنها قد دعت أيضا قصص دولة السويد إلى هذه المأدبة .

رحبت المسز جونسون بالفتاة جوليا وقالت :

« ياللعجب ! إن آخر عهدي بك طفلة صغيرة كاهرة الوثابة ! واعجبا ! ما

أسرع كمر الغدادة والعشى ، وما أشد أثرهما فى الإنسان .

هاك قنصل السويد ياجوليا يذوب شوقا لروئيتك ، وهاك المستر « كارل باترسون »

وأقبل كارل على الأنسة جوليا فهمس فى أذنها قائلا « سأرد إليك الرسالة متى شئت » فعبست الفتاة تلك العبسة المستملحة ومطت شفيتها تلك المطلة المستعذبة المعهودة ، ولم تزد على ذلك .

وقال كارل « إن الرسالة ليست معى الآ ولكن معى أخرى من الذى كتب إليك الأولى »

فبدا الغضب على وجه الأنسة وقالت :

« لا أدرى لماذا أنت هنا الآن ولا يهمنى ذلك ، ولكن إذا كان يلذ لك أن تشارك رجلا من الناس لترغمه على أن يكتب إلى رسالة سفه وبذاءة وخسة ونذالة ، فاسمح لى أن أقول لك إنك قد تجافيت بعملك هذا عن سبيل الشرف وتجانفت عن منهاج المروءة »

قال كارل « تقولين إنى أعارك رجلا من الناس ، أتريدين المستر روبرت دى لين ؟ عجباً عجباً ! إنى أعشق الرجل وأجله ! »

وهنا ارتجل القنصل الكلام يخاطب المسز رومر عمة جوليا فقال :

« اسمعى يامسز رومر ، ما رأيك فى هذا الفتى كارل ؟ إن أباه من أغنى تجار الأخشاب فى بلاد السويد ، وقد أراد أن يعلم ابنه هذا فن التنجيد الذى له أمس علاقة بتجارة الخشب . ولكن كارل أنف واستنكف أن يزاول هذه المهنة فى بلاده فيعرض نفسه لسخرية زملائه واستهزاء أئداده وأصحابه ، فأثر أن يقدم إلى لندن ليزاول بها تلك المهنة ، وقد أخفى نفسه فى دكان غامضة محجوبة عن الأبصار ، حيث يأمن أن يعثر عليه أحد .

ولقد خرج على بغتة من هذا المخبأ فانقض على وسألنى المعونة فى حادثة غرامية أملت به فكادت تذهب بعقله ، وسألنى أن أبليغ أقصى مجهودى فى السعى إلى تزويجه من الفتاة التى اختبلت لبه وتيمت فؤاده - فلم يسعنى إلا السعى إلى تحقيق آماله لما بين والده المبجل وبينى من روابط الإخاء والصدقة ، فما رأيك

فى ذلك يا مسز رومر ؟ » .

عند ذلك تبدت على وجه الفتاة جوليا أوضح شواهد الفرح والسرور فى شدة احمرار وجنتيها ووميض عينيها وبريق ثغرها ، وصاحت المسز جونسون ربة الدار :

« يا غلام أحضر لنا أجود مالديك من المدام ، نشربه فى نخب العروسين »

الفهرس

صفحة

٥	 المقدمة
١٣	 الرواية
٢١	 زيت البرافين
٢٧	 موقف حرج
٣٦	 زميلان فى الشقاء
٤٣	 تحفة فنية
٤٩	 ورقة اليا نصيب
٥٨	 زو بعة منزلية
٦٧	 الغرام
٧٥	 زوجة الصيدلى
٨٢	 المربية
٩١	 أحبك
٩٧	 اليأس
١٠٣	 بولينكا
١١١	 الحب
١١٩	 الرجل السعيد
١٢٧	 المغالاة
١٣٣	 أنيوتا
١٤٠	 ليذا
١٥٤	 الميسارزة

١٦٢	 الشهرة
١٦٩	 الأحزان
١٧٦	 المقامرة
١٩١	 أحكام القدر
٢٠١	 جوليا

رقم الإيداع ٩٤ / ٣٨١٥

L.s.B.N : ٩٧٧ - ١١ - ٠٨٥٧ - ٣

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - البجالة

دار مصر للطباعة
معيد جودة السحار وشركاه